

العلاقات بين الشرق والغرب فك المصور الوسطى

الإستاذة الدكتورة

أسمت غنيم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
رئيس قسم العلوم الاجتماعية

جامعة الإسكندرية

اهداءات ٢٠٠٠

الأستاذة الدكتورة / إسمت غنيم

أستاذ العصور الوسطى

جامعة الإسكندرية

العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

الاستاذة الدكتورة

أسهمت غنيم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
رئيس قسم العلوم الاجتماعية

جامعة الإسكندرية

المحتوي

صفحة	الموضوع
٥	المقدمة
١١	الفصل الأول
	بداية ظهور صلاح الدين الأيوبي
٢٧	الفصل الثاني
	نصر حطين
٤٣	الفصل الثالث
	صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة
٦٣	الفصل الرابع
	الايوبيين والحملة الصليبية الخامسة
٨٣	الفصل الخامس
	بيت المقدس بين السلطان الكامل والامبراطور فردريك الثاني
٧٩	الفصل السادس
	مصر والحملة الصليبية السابعة
١٢٧	الفصل السابع
	مظاهر الحضارة في العصر الايوبي
١٤١	المصادر والمراجع
١٥٣	ملاحق : الحملة الصليبية الرابعة

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عندما دعى البابا ايربان الثانى فى مؤتمر كلير مونت بجنوب فرنسا فى عام ١٠٩٥ الغرب الأوربي لحمل شارة الصليب والتوجه الى الشرق لتخليص الاراضى المقدسة المسيحية في فلسطين من يد المسلمين ، كانت الاستجابة لدعوته تلك استجابة هائلة وانخرطت جموع البشر من امراء وعامة للاشتراك فى هذه الحركة ، وقامت الحملة الصليبية الأولى بشقيها الشعبى والنظامى واتجهت الى الشرق ونجحت فى تأسيس إمارة الرها ، إمارة انطاكية، مملكة بيت المقدس الصليبية ، وإمارة طرابلس ،

وفى البداية أصيب المسلمون فى منطقة الشرق الأدنى بالارتباك والفرع بعد ان رأوا ما فعله هؤلاء الصليبيون الغربيون من وحشية وعنف اثناء فتوحاتهم لارضى المسلمين وخاصة ما فعلوه حينما اقتحموا مدينة بيت المقدس فى ١٥ يوليو ١٠٩٩ م ، والمذبحة الوحشية التى اقترفوها مما جعل بعض المؤرخين الغربيين انفسهم يعتبرون هذه المذبحة وصمة عار فى تاريخ الحروب الصليبية^(١).

ثم بدأ المسلمون يفيقون من غفوتهم ويدركون مدى الخطر الذى يتهددهم من جانب هؤلاء الصليبيون وبدأوا فى رفع راية الجهاد ضدهم وبرزت اسماء لامعة خلدها التاريخ أبلت بلاء حسنا فى الجهاد ضد الصليبيين ومن اشهرها عماد الدين زنكى . وقد اثمرت جهود هؤلاء المجاهدين واستطاع المسلمون التغلب على الحملة الصليبية الثانية التى تولى قيادتها اثنين من اكبر ملوك الغرب الاوربي و هما كونراد الثالث امبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا ، وقد جاء فشل هذه الحملة ايذانا بترنح البناء

(1) Grousset : Histoire des croisades , vol 1,p . 161 .
Runciman : A History of the crusades , vol 5 p . 278

الصليبي في الشرق .

وشاء القدر ان تظهر الدولة الايوبية في هذه المرحلة من مراحل الصراع الصليبي الاسلامي ، وان يقع على عاتقها مواجهة هؤلاء الصليبيون الذين لم يقنعوا بالاستقرار في اراضي الشام وفلسطين وتهديد ممتلكاتها هناك ، وانما اتجهت اطماعهم نحو مصر، مركز هذه الدولة وقلبها النابض ، وذلك بهدف ضمها واحتوائها بامكانياتها البشرية والمادية الهائلة ضمن مناطق نفوذهم .

ولتحقيق هذا الهدف تم التخطيط والتنفيذ لحمليتين كبيرتين اتجهتا ضد مصر ، وكان على رأس حملتهم الثانية وهي المعروفة باسم الحملة الصليبية التاسعة لويس التاسع ملك فرنسا الذي تم أسره وقضى فترة الاسر في دار ابن لقمان بمدينة المنصورة . وقد باءت الحملتان بالفشل الذريع وكان فشلهما هذا جزاء طيبا لما اقترفت ايديهم وتناولت اليه احلامهم .

ونظرا لاهمية الدور الكبير الذي اضطلعت به الدولة الايوبية في الجهاد ضد الصليبيين ، فقد تم عرض هذا الدور وبشكل مختصر ، خلال فصول هذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه كيفية ظهور صلاح الدين الايوبي على مسرح الاحداث السياسية وتكوين الدولة الايوبية ، ثم عرض لأحداث الحملات الصليبية الثالثة ، الخامسة ، السادسة ، والسابعة ، وموقف الايوبيين من هذه الحملات .

اما عن الحملة الصليبية الرابعة ، فقد تكونت من أجل هدف اساسي ، هو ذهابها لقتال الأيوبيين واستخلاص الاراضي المقدسة في فلسطين من ايديهم . ولكن برزت عوامل أدت الى انحرافها واتجاهها ضد مدينة زارا المسيحية على ساحل البحر الادرياتيكي وقاتلتها واستولت عليها ، ثم كان انحرافها الأكبر ضد القسطنطينية

العاصمة البيزنطية التي حملت لواء الدفاع عن العالم المسيحي في الشرق والغرب
ضدها فتوحات المسلمين منذ ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي ، وحتى ذلك
الوقت من بداية القرن الثالث عشر الميلادي ١٢٠٤ م . وقد اسقطت الحكم اليوناني
الارثوذكسي واقامت مملكة لاتينية كاثوليكية ظلت دليل صارخ علي انعدام الروح
الدينية في هذه الحركة وسيطرة الاطماع الاستعمارية عليها .

ونظرا لان هذه الحملة لم تتعامل تعامللا مباشرا مع الايوبيين وبعدت تماما عن المسار
الذي كان مرسوما لها ، وحتى لا ينقطع تسلسل الاحداث الخاصة بالعلاقات الأيوبية
الصليبية ، فقد تم عرض احداث هذه الحملة في ملحق - ا - .

هذا مجهود متواضع أردت به ابراز دور الدولة الايوبية وجهادها ضد هؤلاء
المستعمرين الغربيين الذين اتخذوا من الدين ستار يخفون وراءه اطماعهم
الاستعمارية .

والله الموفق

أ . د . اسمت غنيم

لوران

يناير ١٩٩٤

الفصل الاول
بداية ظهور صلاح الدين الأيوبي

يرجع أصل صلاح الدين الأيوبي إلى الأكراد ، وقد هاجر والده نجم الدين أيوب بن شاذي وعمه أسد الدين شيركوه بن شاذي من بلدة دفين Divin في أرمينيا ، وقد انخرطا في خدمة عماد الدين زنكي أثابك الموصل .

ويعتبر صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية وأشهر سلاطينها ، وقد حاز صلاح الدين شهرته الكبيرة هذه في المشرق الإسلامي والغرب الأوروبي ، وعند المسلمين والمسيحيين على حد سواء نظراً للدور الكبير الذي لعبه في الجهاد ضد الصليبيين ، وقد كللت جهود صلاح الدين ضد الصليبيين بانتصاره الساحق عليهم في معركة حطين ١١٨٧ .

والواقع أن تاريخ الأيوبيين في مصر والشام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحروب الصليبية ، بل أن ظهور صلاح الدين نفسه على مسرح الأحداث السياسية ارتبط بالصراع الذي قام بين سيده نور الدين محمود والصليبيين حول مصر . ذلك أن الدولة الفاطمية في مصر أصبحت تعاني في أواخر أيامها من الضعف والاضمحلال السياسي ، فأصبح الخليفة الفاطمي العوبة في يد الوزراء يحركونها كيفما شاؤوا ، بل أكثر من ذلك أصبح الوزير يستعرض الخلفاء استعراض الغنم ليختار منهم أضعفهم وأصغرهم سناً ليكون أداة طيعة في يده ، مثل الوزير طلائع بن رزيك الذي كان أرمني الأصل ، وسيطر على الوزارة لمدة سبع سنوات (١١٥٤ - ١١٦١) ، فعندما أخذ أهالي القاهرة يهملون للخليفة الجديد ، قال ابن رزيك « كأي هؤلاء الجعلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا ، وما علموا أنني كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم » .

وقد تطور التنافس على الوزارة في مصر عند نهاية العصر الفاطمي إلى استعانة بعض الطامعين فيها بأمراء الدول المجاورة مما ترب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى بسط سلطانهم عليها . فقد انفرد بالسلطة أوالي الصعيد ويدعى شاور . بعد أن تخلص من الوزير العادل بن طلائع بن رزيك في المحرم ٥٥٨ هـ على أن أحد قادة جيشه ويدعى صرغام ثار عليه وتقلد الوزارة ،

فاضطر شاور الى الالتجاء الى نور الدين محمود صاحب دمشق - وهو ابن عماد الدين زنكى صاحب أول حركة جهاد ضد الصليبيين ، والذي تم له استرداد الرها وهى مركز أول أمانة أسسها الصليبيون في الوطن الاسلامى - ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه ، ووعد بأن يتنازل له عن ثلث خراج مصر اذا عاونه في التغلب على ضرغام وانتزع الوزارة منه . فتردد نور الدين محمود في بداية الأمر ثم لم يلبث أن وافق بعد أن قلب الأمر وادرك مدى الضعف الذى صارت عليه الخلافة الفاطمية ، واقتنع بضرورة اقتناص الفرصة وعدم تركها تفلت من بين يديه ، فأعانه بحملة اسند قيادتها الى أسد الدين شيركوه ، وقد نجحت هذه الحملة في التصدى لضرغام والتغلب عليه ، وتمكنت من اعادة شاور لمنصبه في الوزارة في رجب ٥٥٩ هـ .

لكن الخيانة التى اتصف بها شاور لم تلبث أن ظهرت بوضوح فلم يفى بما تعهد به لنور الدين محمود ، وأرسل الى أسد الدين شيركوه يطلب منه مغادرة البلاد المصرية والعودة الى الشام . بل أكثر من ذلك أرسل الى الملك عمورى الأول ملك بيت المقدس الصليبي يطلب مساعدته ضد نور الدين محمود وأوضح له مدى الخطر الذى سيلحق بالصليبيين اذا استولى نور الدين محمود على مصر . لذلك فقد سارع الملك عمورى الى تلبية طلبه وخرج على رأس جيشه خاصة بعد أن وعده شاور بمبلغ كبير من المال ، ووصل الى مصر حيث اشترك معه شاور بجيشه في حصار شيركوه في مدينة بلبس ، وأخيراً تم الاتفاق بين هذه الاطراف على أن يغادر كل من شيركوه وعمورى أرض مصر ، وكان ذلك في أواخر عام ١١٦٤ م .

وقد أدت هذه الظروف الى لفت أنظار كل من الصليبيين ونور الدين محمود الى ضعف مصر وازداد طمعهم فيها ، ولم يلبث الخليفة الفاطمى العاضد بالله أن أرسل الى نور الدين محمود يخبره بأن شاور قد استبد بالأمور وكثر ظلمه للناس وسفكه للدماء . أضف الى ذلك أن نور الدين محمود كان يكن الكراهية لشاور بعد أن غدر بأسد الدين شيركوه واستعان عليه بالصليبيين .

فانفذ نور الدين محمود حملته الثانية الى مصر وغادرت دمشق في يناير ١١٦٧ في طريقها الى مصر ، وقد صار بصحبة شيركوه بعض الامراء وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا في هذه الحملة .

وقد عاد شاور من جديد واستنجد بالملك عمورى ، الذى خرج بجيوشه على وجه السرعة وانضم اليه جيش شاور ، فتقدم شيركوه الى الصعيد فتبعه الصليبيون والتقى الفريقان في مكان يعرف باسم البابين على مقربة من مدينة المنيا ، فكان النصر حليف شيركوه الذى رأى بعد ذلك أن يسير الى الاسكندرية ، فدخلها من غير مقاومة تذكر وعين ابن أخيه صلاح الدين والياً عليها .

عادت القوات الصليبية ومعها قوات شاور الى القاهرة بعد هزيمتهم في موقعة البابين ، ثم ولوا وجوههم شطر الاسكندرية حيث قاموا بحصارها براً ، في الوقت الذى كان اسطول الصليبيين يحاصرها براً ولم يكن لدى صلاح الدين من الجند ما يمكنه من رفع الحصار ، فاسرع أسد الدين شيركوه الى نجدة . وقد أرسل اليه الصليبيون وشاور يطلبون الصلح فأجابهم الى طلبه واشترط ألا يقيم الصليبيون في البلاد المصرية ، ثم عادت قوات نور الدين محمود الى دمشق .

على أن القوات الصليبية لم تغادر كلها مصر تنفيذاً لهذا الصلح ، بل عقدت مع شاور معاهدة ، كان من أهم شروطها « أن يكون لهم بالقاهرة شحنة - وهو نائب السلطان في ضبط البلد وتصريف شئونها - وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين عن انفاذ عسكر اليهم » . كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنوياً من دخل مصر .

وقد علق المؤرخ أبو شامة على هذه الشروط بقوله : « هذا كله يجرى بين الفرنج وشاور وأما العاضد - صاحب مصر - فليس له من الأمر شيء ، ولا يعلم شيئاً من ذلك ، قد حكم عليه شاور وصحبه ، وعاد الفرنج الى بلادهم وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة » .

على أن شاور بدأ يتخوف عندما وجد أن مساعدة الصليبيين له انقلبت الى حماية ، هذا الى أن الضريبة السنوية التي فرضها عمورى على شاور - وهى مائة ألف دينار - أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية ، في الوقت الذى نضبت فيه مواردها . أضف الى ذلك أن وجود (شحنة) صليبي في القاهرة يشارك في شئون الحكم ووجود حامية صليبية تحرس أبواب القاهرة ، كل ذلك أزعج المسلمون . وهكذا لم يجد شاور أمام شعور الاستياء العام في القاهرة ، الا أن يقلب سياسته رأساً على عقب ، فما كان منه ألا أن اتصل بنور الدين محمود يطلب حمايته وتخليصه من الحماية الصليبية .

لكن عمورى الأول ملك بيت المقدس عندما علم بتغير سياسة شاور تجاه الصليبيين عزم على مهاجمة مصر والاستيلاء عليها قبل أن تصل اليها قوات نور الدين ، وبالفعل فانه خرج على رأس قواته في أكتوبر ١١٦٨ ، فوصل بلبس في أول نوفمبر ١١٦٨ ، وقد اغلقت المدينة أبوابها في وجهه ، ولكنه نجح في اقتحامها واتخذ طريقه الى القاهرة بعد أن أساء معاملة الأهالى في بلبس وقتل منهم اعداداً كبيرة كما احرق وخرب أكثر البلد . وقد وصل عمورى بالقرب من القاهرة وعسكر جنوبى الفسطاط ، فاحرق شاور الفسطاط بعد أن أندر أهلها فخرجوا جميعاً ، وقد نقل عمورى معسكره بعد حريق الفسطاط أمام القاهرة ، ولكن القاهرة قاومت الجيوش الصليبية مقاومة باسلة .

هذا في الوقت الذى اخترق فيه شيركوه الصحراء ووصل بجيوشه ومعه صلاح الدين الايوبى الى القاهرة ، حيث التف حوله الاهالى ، بوصفه المدافع عنهم وعن الاسلام . وقد تم القبض على شاور وقتل ، وهكذا انتهت حياة ذلك الوزير الذى استبد بالسلطة في أواخر العصر الفاطمى واستعان بالعناصر لأجنبية لتثبيت نفوذه ولم يعد للصليبيين بعد مقتله من سند يؤيد وجودهم داخل مصر ، فانسحبوا « عائددين الى بلادهم بخفى حنين ، خايين مما أملوه » .

أصبح أسد الدين شيركوه صاحب السلطان الفعلى في البلاد بعد أن انتهى عهد شاور ، فاتخذ الخليفة العاضد الفاطمى وزيراً له ولقبه بالملك المنصور أمير

الجيش ، وقلده جميع أمور الدولة ، فجاء في سجل تعيينه وزيراً : « وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته وتدير مملكته ، وحيطة ما وراء سرير خلافته ، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة امامته ، وكفالة قضاة المسلمين ، وهداية دعاة المؤمنين .. » ثم يوصي الخليفة العاضد أسد الدين شيركوه بأمر العساكر « أحمرهم وأسودهم وأقربهم وأبعدهم ، وفارسهم وراجلهم ، وراحمهم ، ونابلهم ، بتوفير الاقطاع ، وادرار النفقات .. الخ » وكذلك يوصيه بالرعايا فيقول : « والرعايا فقد علمت مانا لهم من اجحاف الجبايات ، واسراف الجنبايات ، وتوالى عليهم من ضروب النكايات فاعمر أوطانهم التي أخرجها الجور والاذى ، وانف عن موارد الكدر والقذى ، واحسن حفظ وديعة الله تعالى منهم وخفف الوطأة ما استطعت عنهم ، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا .. » .

ومن هذا يبدو واضحاً ما قاساه الشعب المصرى من متاعب حقيقية في السنوات القليلة التي شهدت الصراع العنيف بين قوى الصليبيين وقوى نور الدين محمود في سبيل الاستيلاء على مصر ، والتي انتهت بهزيمة الصليبيين وانسحابهم وقتل شاور وانتصار أسد الدين شيركوه ثم توليه الوزارة في مصر . وقد نجح أسد الدين شيركوه في الفترة القصيرة التي قضاها في الوزارة أن يقبض على زمام الأمور في البلاد ، كما وزع الاقطاعات على عساكره ، وأعاد أهالى الفسطاط الى بلدتهم ، وأوصى أصحابه ألا يتركوا القاهرة ، ثم توفى بعد أن ظل في منصبه ما يقرب من ثلاثة أشهر ، فتنازع أمراء نور الدين محمود الذين كانوا بمصر في طلب الرئاسة والوزارة ، لكن العاضد اراد تولية صلاح الدين يوسف بن أيوب لصغر سنه بأمل أن يتمكن الخليفة من السيطرة عليه ، ولكن ستظهر الاحداث التالية خيبة ظن الخليفة . وقد جاء في سجل تولية الخليفة العاضد الوزارة لصلاح الدين ان المبررات التي دعت لاختيار صلاح الدين مكانته عند عمه شيركوه ، وشجاعته الفائقة في الحروب . ويختتم السجل بالوصية المعتادة ، فهو يوصى صلاح الدين بأولياء أمير المؤمنين « وأنصاره الميامين من الامراء المطوقين والاعيان المعصين والأمائل والأجناد أجمعين » ويقصد هؤلاء جميعاً أمراء الجيش واجناده من المغاربة ، أو كما يقول

النص في خطابه لصلاح الدين : « فهم أنصاره غرباً كما أن عسكري أنصاره شرقاً » . وهذا يوضح الحالة التي كان عليها الجيش في الدولة الفاطمية ، فقد أصبح يتنازع الزعامة فيه عنصران ، عنصر المغاربة أولياء الدولة القدامى ، وعنصر المشاركة جنود صلاح الدين وأعوانه .

ويوصي السجل صلاح الدين بالرعايا الذين هم : « ودائع الله لأمر المؤمنين وودائعهم لديك ، فأقبض عنهم الأيدي وابسط بالعدل فيهم يدك » .

كان موقف صلاح الدين منذ ولي الوزارة موقفاً غريباً ومزدوجاً ، فهو وزير لصاحب مصر الخليفة العاضد بالله الفاطمي الشيعي ، وهو في الوقت نفسه قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السني ، فهو موزع الولاء ومع ذلك كان يتبع في سياسته أراء الرجلين الحكمة والتؤدة .

على أن نور الدين كان يود أن يبادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية ، وقطع الخطبة لآخر خلفائها العاضد ، ثم إقامة الخطبة للخليفة العباسي ، وكان نور الدين مدفوعاً في هذا بسنيته وكرهه للشيعية ، وبرغبته في اجابة الخليفة العباسي الى طلبه ، فقد كان دائم الالتحاح عليه أن يقيم له الخطبة في مصر ، ولكن صلاح الدين كان أعلم من نور الدين محمود باحوال مصر . لهذا فقد أثر صلاح الدين التمهيل ، وأن يمهّد الطريق قبل أن يضرب ضربه الأخيرة ، فقد كان رجال القصر والدولة الفاطمية غاضبين ، ويودون لو استطاعوا أن يقضوا على صلاح الدين ومن معه ، ليستعيدوا نفوذهم وسلطانهم المسلوب ، وكان صلاح الدين يخشى أن هو أسرع بقطع الخطبة والقضاء على الدولة أن ينحج هؤلاء في الثورة عليه ، يقول ابن واصل في كتابه « مفرج لكروب في اخبار بني أيوب » : « كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية ، وانه لم يبق لهم منعه كتب الى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد ، ويخطب للخليفة من بني العباس ، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب لخوفه من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة لذلك لميلهم الى العلوية ، فلم يصنع نور الدين الى قوله ، وأرسل به يلزمه الزاماً لا فسحه فيه » .

وقد بدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره ، فابعد هؤلاء القواد عن القاهرة ، واستولى على اقطاعاتهم ومنحها لقواده هو ليضمن ولائهم واخلاصهم له ثم ارسل الى نور الدين يستأذنه في أن يرسل اليه أباه نجم الدين أيوب وأهله ، فارسلهم اليه ، وكان نجم الدين أيوب بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين ، فقد كان ذا دهاء ومكر وخبرة طويلة .

وأخذ صلاح الدين كذلك في تعميم حركة انشاء المدارس في مصر ، وقد كان الهدف من حركة انشاء المدارس منذ بدأها السلاجقة وتبعهم فيها الاتابكة . هو محاربة المذهب الشيعي ، والدعوة للمذهب السني وتدريسه ، وقد كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين في مصر هي المدرسة الناصرية التي انشأت في القساط لتدريس المذهب الشافعي ، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكي ، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته فأنشأوا مدارس أخرى كثيرة في مختلف المدن المصرية .

وخطا صلاح الدين خطوة أخرى ، فعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي قاضياً للقضاة ، فجعل القضاة في سائر الديار المصرية شافعية ، ويقول المؤرخ ابن واصل معلقاً على حركة انشاء المدارس وعلى حركة تحويل القضاة من المذهب الشيعي الاسماعيلي الى المذهب الشافعي : « فأنهر مذهب الشافعية ، واندثر مذهب الاسماعيلية بالكلية ، وانمحى أثره ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به » .

وليس أبلغ من هذا القول للدلالة على قيمة هذه الخطوات التي كان يخطوها صلاح الدين في حرص وحذر للتمهيد لتحقيق رغبة الخليفة العباسي ونور الدين محمود بقطع الخطبة للعاضد الفاطمي .

على أن صلاح الدين لم يلبث أن لقي معارضة شديدة من قبل بعض الفئات لاسيما قادة الجيش الفاطمي الذين اتخذوا لهم زعيماً من بين طواشية القصر ، وهو مؤتمن الخلافة وساد السخط بينهم على اساس ان صلاح الدين يعمل على اضعاف مركز الخليفة ويحاول ان ينفرد بالسلطان ، وكرهوا ان يخضعوا

لسلطان صلاح الدين ، وما حدث من القاء القبض على عدد كبير من رجال القصر لم يترك عندهم أى أثر للشك في نوايا الوزير الجديد صلاح الدين . وكان مؤتمن الخلافة موطن ثقة الخليفة العاضد ، ولم يتردد في أن يستنجد بقوة الصليبيين مثلما فعل شاور من قبل .

غير أن صلاح الدين أمر بقتل زعيم الثائرين في اغسطس ١١٦٩ م . وترتب على ذلك أن تظاهر عدد كبير من الرعايا والجند عند دار الوزارة بالقاهرة ، فبادر صلاح الدين بحشد قواته التي جعل عليها أخاه توارن شاه ، ووقع بين الترك والسودان معارك دامية في الشوارع ، وانتهت بهزيمة المتظاهرين ومطاردتهم في شوارع القاهرة ، واشعال النيران في الدور التي ينزلها السودان . ثم أوقف صلاح الدين القتل وأخرج من القاهرة عدد كبير منهم ، وما تبقى ألزمهم بعدم مغادرة دورهم ، وعدم الظهور بشوارع القاهرة . وترتب على القضاء على هذه الفتنة أن هية الفاطميين وسلطانهم أخذ في الزوال بسبب سوء تصرف الخليفة ، فما لحق السودان من القمع الشديد أودى بقوة الخليفة الفاطمي .

ولما تم لصلاح الدين ذلك ، جمع أمراء جيشه ليستشيرهم في أمر قطع الخطبة فترددوا كثيراً ، وأخيراً تقدم فقيه يدعى الأمير العالم وتطوع أن يبدأ هو بتنفيذ هذه الفكرة . وفي يوم الجمعة الأول من المحرم ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١) خطب هذا الرجل ، ولم يدع للخليفة العاضد ، وإنما دعا للخليفة العباس المستضيء بنور الله ، فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كانت الجمعة التالية ، أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة العباسي في مساجد القسطنطين والقاهرة جميعاً وبذلك انتهى آخر خيط في حياة الدولة الفاطمية ، أما الخليفة العاضد الفاطمي ، فإنه كان مريضاً وتوفي بعد ذلك بثلاثة أيام (١٣ سبتمبر ١١٧١) دون أن يعلم بزوال دولته لأن صلاح الدين منع إبلاغه بهذا الأمر .

وما وقع من الحوادث بين سنة ١١٧١ (٥٦٧ هـ) منذ سقوط الخلافة الفاطمية ، وسنة ١١٧٤ (٥٧٠ هـ) وهي السنة التي توفي فيها نور الدين محمود ، حددت مستقبل صلاح الدين في مصر وعلاقته بالدولة النورية .

وماتطلع اليه من المضي في توحيد الجبهة الاسلامية ومهاجمة الصليبيين ، يضاف لذلك ما تعرضت له مصر في أثناء هذه الفترة من الفتن والمؤامرات التي دأب أنصار الفاطميين على اثارها .

استطاع صلاح الدين ان يطارد بقايا السودان الذين خرجوا من القاهرة ، ولجأوا الى النوبة فتحالفوا مع النوبيين سنة ١١٧٢ وأغاروا على أطراف مصر الجنوبية ، ولم يكن قصد هؤلاء المغيرين سوى النهب أولاً ، ثم الانتقام من صلاح الدين لازالته الدولة الفاطمية وشدته في قمعهم وطردهم من مصر ، على أن صلاح الدين بفضل جهود اخيه توران شاه شنت شملهم ، وأمر بوضع حامية كردية في ابريم .

وفي سنة ١١٧٣ (٥٦٩ هـ) جرى تدبير مؤامرة شاملة الغرض منها إعادة الحكم الفاطمي الى مصر ، وتضمنت هذه المؤامرة ، التي يعتبر الشاعر عمارة اليمنى من أكبر زعمائها استغلال توزيع قوات صلاح الدين في جهات عديدة ، والاتصال بسائر العناصر المناهضة لصلاح الدين في داخل البلاد ، والتحالف مع أعدائه خارج البلاد ، فضلاً عن الاستعداد لإعلان الخلافة الفاطمية في مصر من جديد .

وتفصيل هذه المؤامرة أن الشاعر عمارة اليمنى ، الذي أمضى شطراً كبيراً من حياته في القصر الفاطمي ، وعاش على سخاء وكرم الوزراء الفاطميين ، حاول أن يتقرب الى السادة الجدد (الايوبيين) لاسيما توران شاه فحرضه على فتح بلاد اليمن لابعاده عن مسرح الاحداث التالية لما اشتهر به من العنف والشدة . ووافق ذلك هوى عند توران شاه لاسيما ان صلاح الدين منتهك من استقرار بمصر ظل هو وأهله خائفين من نور الدين أن يدخل مصر وينزعها منهم ، فأرأوا أن يقيموا لهم مملكة يلدجأون اليها ، ووجدوا ما يرر ذلك عند نور الدين من حيث الحرص على اقامة الخطبة العباسية ببلاد اليمن . واستنجد المتآمرون بالصليبيين في الشام ، والنورمان في صقلية ، وكتبوا الى رعيم الحشيشية بالشام يطلبون اليه أن يرسل من يقاتل صلاح الدين . وانطوت خطتهم على أن الصليبيين اذا قصدوا مصر ، وخرج اليهم صلاح الدين أعلنوا

الثورة بالقاهرة ، وأعادوا الخلافة الفاطمية ، وانحاز اليهم من مالأهم من
عسكره ، فلا يستطيع صلاح الدين الصمود للصليبيين ، أما اذا بقى صلاح
الدين بالقاهرة وأرسل عساكره لمواجهة الصليبيين ، ففي استطاعتهم ان يقبضوا
عليه ، لأنه ليس لديه من العساكر ما يحميه ، وعلم صلاح الدين بتفاصيل
المؤامرة ، عن طريق الفقيه الواعظ زين الدين على ابن نجا الذى اشركه معهم
التآمرون واطلعوه على سرهم ، فقام باطلاع صلاح الدين على جميع حلقات
المؤامرة أولاً فأول . وقد تمكن صلاح الدين حين تأكد من قيام هذه المؤامرة
بالفعل ، فألقى القبض على زعماء المؤامرة وجرى الاحتياط على افراد الاسرة
لفاطمية ، ثم أمر بصلب عمارة وباقي المتآمرين ، وصادر أموال الفاطميين
وأرسل جانباً كبيراً منها الى نور الدين محمود ليستعين بها على الجهاد .

أما عمورى الأول ملك بيت المقدس ، فلم يكذ يعلم بانكشاف سر
المؤامرة في القاهرة ، وفشل الخطة الموضوعة لغزو مصر ، حتى توفى في بيت
المقدس وسط جو من خيبة الأمل (١١ يولييه ١١٧٤) . ولم يلبث أن أرسل
النورمان بصقلية اسطولهم الذى وصل الى ميناء مدينة الاسكندرية في أواخر
يوليو ١١٧٤ .

وقد تمكن هذا الاسطول من انزال بعض قواته على الشاطئ كما استطاع
تدمير بعض السفن التجارية الراسية في ميناء الاسكندرية ، وقد حاول النورمان
اقتحام الاسكندرية وشددوا هجماتهم عليها ، ولكن الاهالى ثبتوا لهم ثباتاً
عظيماً واحرقوا بعض سفنهم في الوقت الذى وصل الى الاسكندرية صلاح
الدين بجيشه فهاجم النورمان وأغرق بعض سفنهم وأنزل بهم الهزيمة ، فاضطر
النورمان الى مغادرة ميناء الاسكندرية والعودة الى بلادهم خائبين خاسرين .

محاولة صلاح الدين الاستقلال بمصر :

من الواضح أن صلاح الدين بعد ان تم له انزال الهزائم المتتالية بالمتآمرين
لإعادة الخلافة الفاطمية ، لم يعد يفكر في أية أخطار تنجم عن إعادة الدولة
الفاطمية وانما اشتد قلقه من تصرفات نور الدين محمود . ذلك أن نور الدين
أراد أن يحكم قبضته على مصر ، فأرسل اليها في عام ١١٧٣ موفق الدين خالد

القيسراني متولى ديوان الاستيفاء يطلب منه أوراقاً بخراج مصر ، بعد أن حاول صلاح الدين الاعتذار عن عدم التعاون الحرى معه ضد الصليبيين ، لما تعرضت له مصر من اخطار خارجية ، وما جرى بها من تدبير المؤامرات مما يتطلب منه الالتفات والاهتمام ، والواقع ان السبب في امتناع صلاح الدين عن التعاون مع نور الدين ، ما لمسه صلاح الدين من حرص نور الدين على انتزاع مصر منه ، والاستعداد لغزوها ، فعلى الرغم من أن صلاح الدين وافراد أسرته أعلنوا ولاءهم لنور الدين ، وارسلوا له بالهدايا ، فان نور الدين انتهر فرصة اعتراف الخليفة العباسي به سلطاناً على مصر ، فارسل القيسراني ليتحقق من أحوال البلاد ، ويتحرى بالتفصيل المركز المالى بها ، ويحدد ما ينبغي ان تدفعه مصر من الجزية كل سنة لنور الدين ، ومن الواضح ان نور الدين طلب الى وزيره أن يتعرف الى نوايا صلاح الدين وميوله .

واستطاع صلاح الدين أن يقنع القيسراني بحسن تصرفه ، وأخذ في جمع الاموال التى سوف يرسلها الى نور الدين ، وجعل للقيسراني من الاموال ما لم يكن يتوقعه وحمله من الهدايا ما تفوق في الفخامة والابهة ما سبق أن بعث به . وقد خرج القيسراني من مصر محملاً بكل هذا في طريقه الى نور الدين محمود بالشام ، ولكنه علم وهو في الطريق بوفاة نور الدين محمود في ١٥ مايو ١١٧٤ .

وهكذا انقذت الاقدار صلاح الدين من محاولات نور الدين المستمرة لاحكام قبضته على مصر وابعاد صلاح الدين عنها . وما وقع من الاحداث بعد وفاة نور الدين جعل صلاح الدين يقترب من تحقيق الهدف الذى سعى اليه دائماً وهو الاستقلال بمصر والابتعاد بها عن سلطة البيت الزنكى . فقد خلف نور الدين على الحكم ابنه الصالح اسماعيل ، الذى كان طفلاً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وادرك صلاح الدين انه قد حان الوقت للانفراد بحكم مصر . ولم يمانع صلاح الدين في بادىء الأمر من ان يذكر اسم هذا الامير الصغير في خطبة الجمعة وان يسك النقود باسمه . كما انه ادرك أن عليه ان يقوم بعمل خطير ، وهو الاستيلاء على دمشق من أجل توحيد الجبهة الاسلامية

وتطويق الصليبيين . على أن تحقيق هذا الهدف كان يتوقف على موقفه من الصالح اسماعيل .

وقد التزم صلاح الدين طريق الحكمة والروية حتى يحقق غرضه ، كما أنه حرص على أن يسير في ذلك على مراحل وخطوات . ذلك أن الصالح اسماعيل قد انتقل من دمشق للاقامة بحلب ، وقد اتاح ذلك لصلاح الدين دخول دمشق في اكتوبر ١١٧٤ وقد أبطل صلاح الدين كل المكوس التي جرى استحداثها بعد نور الدين في دمشق ، ثم أعلن أنه لم يقدم الا ليقوم على تربية الصالح اسماعيل ، وانه لم يقصد الا ان يتولى شئون المملكة باسم الامير الزنكي . غير أن ما حدث من سيطرة بعض أمراء نور الدين على الصالح اسماعيل وشدة احقنهم على صلاح الدين ، والاستنجاد بقوات الموصل ، والتماس المساعدة من الصليبيين ، جعل صلاح الدين يتخذ من الاساليب والوسائل ما يطل هذه الدسائس ، ويوقف مساعدة الصليبيين ويحقق غرضه وقد لجأ صلاح الدين الى استمالة بعض الامراء النوريين وبذل الاقطاعات لهم وتعيينهم في وظائف رئيسية بالشام . وبفضل ما حرص عليه من اقامة العلاقات الطيبة مع الخليفة العباسي ، يدل على ذلك ما تردد في رسائله الى الخليفة المستضيء من الاشارة الى جهوده في القضاء على الدولة الفاطمية واعادة المذهب السني بمصر واليمن والى حرصه على جهاد الصليبيين وتوحيد كلمة المسلمين ، وأظهر ما لجأ اليه خصومه من الاستعانة بالصليبيين والباطنيين اعداء الاسلام .

وقد احرز صلاح الدين في ١٣ ابريل ١١٧٥ انتصاراً حاسماً على جيوش الصالح اسماعيل قرب حماه . وترتب على ذلك أن أمر صلاح الدين بقطع الخطبة باسم الصالح اسماعيل ، وتقرر عقد صلح بينهما في يولية ١١٧٦ ، اعترف فيه الامير الزنكي لصلاح الدين بكل ما استولى عليه من البلاد ، وما هو جار تحت حكمه من جنوب الشام الى حماه ، وتعهد صلاح الدين بمساعدة الصالح اذا هاجمه عدو ، ولم يسع الخليفة العباسي الا أن يمنح صلاح الدين تقليداً بالسلطنة ببلاد مصر والشام .

وهكذا تم لصالح الدين ماأراد وماعمل من أجله سنين طويلة ، وقد ساعدته الأقدار بوفاء نور الدين محمود في تلك الآونة مما كان له أبعد الأثر في تمكين صلاح الدين من تحقيق اهدافه والاستقلال بمصر وما تحت يديه من بلاد ، هذا الأمر الذي كان من العسر بل المستحيل أن يحققه صلاح الدين في حياة نور الدين محمود .

الفصل الثانى

نصر حطين

تجدر الإشارة الى ان صلاح الدين لم يغفل أمر الصليبيين أثناء انصرافه الى معالجة موقفه مع نور الدين وابنه الصالح اسماعيل . على أن مقام به صلاح الدين من اجراءات ضد الصليبيين يصح تقسيمها الى مرحلتين متميزتين .

ففى المرحلة الأولى لم يفكر السلطان صلاح الدين في القيام بعمليات حربية واسعة النطاق مثل المرحلة الثانية التى بدأها بعد توحيد مصر والشام . فحملاته الأولى وجهها الى أرض الصليبيين المحصورة بين الأراضى الاسلامية والتى تعترض طريق المواصلات بين مصر والشام . وماوقع بين صلاح الدين والصليبيين من اشتباكات حتى سنة ١١٨٠ وماتخلل هذه الفترة بين ١١٧٤ - ١١٨٠ من مهادنة لم تؤد الى تغيير في الاوضاع الاقليمية ، غير أن صلاح الدين أفاد من هذه الحروب في أمور عديدة ، فبالاضافة الى ماأحرزه من انتصارات على الجيوش الصليبية في مواضع عديدة ، وتدمير ماأقاموه من حصون لاسيما حصن بيت الاحزان بين دمشق وطبرية ، وماترتب على ذلك من وقوع اسرى عديدين في يده ، ورد الاسطول الصليبي الذى قدم الى صقلية وهاجم الاسكندرية ، فانه عمد الى تجديد استحکامات دمشق ، وتبأت له الفرصة بعقد هدنة عام ١١٨٠ بينه وبين الصليبيين لأن يواصل تقوية الاستحکامات . فمن ذلك تقوية الجسر المؤلف من السفن والذى يصل بين البرجين اللذين يتحکمان في دمياط ، وتشيد قلعة في تيس ، وعمارة الاستحکامات في الاسكندرية ، وتلى ذلك قيامه بتفقد هذه المنشآت الحربية ، يضاف لذلك اهتمامه بالاسطول والبحرية فأفرد له ديواناً خاصاً به .

وقد توجت جهود صلاح الدين ضد الصليبيين بانتصار حطين أما العوامل التى مهدت لهذه المعركة التاريخية الهامة فقد كانت ترجع في المقام الاول الى تصرفات أحد الفرسان الصليبيين المعروف بالطيش والتهور والذى اطلق عليه المؤرخون الغربيون انفسهم اسم (الفارس اللص) وهذا الفارس هو رينودى شاتيون الذى عرف لدى المؤرخين المسلمين باسم (ارناط) .

وقد لعب رينو هذا دوراً بارزاً في الصراع بين الصليبيين وصلاح الدين وجر بتصرفاته الطائشة على الصليبيين الكثير من المتاعب التى كانوا في غنى

عنها . وكان رينو قد تزوج من ورثته صاحب الاردن وتدعى اتيت دى ميلى طمعاً في اقطاعها الذى ورثته عن ابيها وهو الاردن وحصن الكرك والشوبك ، وقد امتاز هذان الحصنان بموقعهما الهام على طريق القوافل الذاهبة الى الاراضى الحجازية ، وفي نفس الوقت القوافل المتنقلة بين شطرى مملكة صلاح الدين في مصر والشام . وكان رينو بطبيعة الحال يجنى ثروات طائلة من المكوس التى يفرضها على القوافل التى تعبر بحصنيه ، ولكن هذا الفارس لم يقنع بذلك وانما أعماه الجشع المادى عن ادراك خطورة تصرفاته الهوجاء على الصليبيين جميعاً خصوصاً في وقت كانت فيه شخصية مثل شخصية صلاح الدين الايولى هى التى تحكم مصر والشام ، وتواجه الصليبيين .

وكانت بداية الاحتكاك بين رينو وصلاح الدين في عام ١١٨١ ، اذ تناسى رينو أمر الهدنة المعقودة بين صلاح الدين والصليبيين في عام ١١٨٠ ، والتى سبقت الاشارة اليها ، وخرج على رأس قوة من رجاله وتوجه الى صحراء العرب حيث أوغل فيها حتى وصل الى واحة تيماء ، وهى واحة لها اهميتها لوقوعها في منتصف الطريق بين الاردن والمدينة المنورة ، وقد وصفها صلاح الدين في رسالته الى الخليفة العباسى بانها (دهليز المدينة) . وكان هدف رينو دى شاتيون من تصرفه هذا أن يصل حتى المدينة المنورة حيث يقوم بتخريب الاماكن المقدسة بها . لكن صلاح الدين اصدر أوامره الى نائبه في دمشق وهو ابن اخيه ويدعى فرح شاه بالاغارة على الاردن حتى يجبر رينو على العودة دون اتمام مشروعه . وقد كان فعاد رينو الى امارته للدفاع عنها ضد هجمات المسلمين ، بعد أن نهب قافلة اسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق الى مكة المكرمة وسلب جميع ما بها من نفائس .

وقد ازعج تصرف ارناط هذا المسلمون والصليبيون على حد سواء ، فقد انزعج الصليبيون لأن هذه الغارة التى قام بها رينو قد عكرت صفو السلام القائم بينهم وبين صلاح الدين ، وأما المسلمون فقد انزعجوا أشد الانزعاج لتطاول هذا الصليبي ومحاولته المساس بالاماكن المقدسة التى يتجهون اليها بقلوبهم ، وهو التصرف الذى لم يجزؤ أحد من الصليبيين قبله أن يفعله . لذلك

فقد أرسل صلاح الدين الى ملك بيت المقدس بلدوين الرابع يطلب منه أن يجبر رينو على رد ماسلبه من أموال القافلة واطلاق سراح من أسره من رجالها ، وقد طلب بلدوين من رينو تحقيق كل ماطلبه صلاح الدين ، ولكن رينو رفض تنفيذ كل ماطلبه الملك بلدوين .

وقد رد صلاح الدين على هذا العمل بأن أسر نحو ألفين وخمسمائة مسيحي كانوا في طريقهم لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين ولكن شاءت الظروف أن يتعرضوا لعاصفة طاحت بسفنهم على شاطئ دمياط ، وأعلن صلاح الدين أنه لن يفرج عن هؤلاء الحجاج إلا بعد أن يفرج رينو عن الأسرى المسلمين وأموالهم .

وفي مايو ١١٨٢ . غادر صلاح الدين مصر الى الشام وكانت هذه آخر مرة يرى فيها صلاح الدين وجه مصر ، اذ ظل بالشام يناضل الصليبيين حتى ادركه الموت .

ولم يلبث رينو دى شاتيون ان قام بتصرف طائش آخر ، بمحاولته الثانية تخريب الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة . وكان رينو يهدف من وراء ذلك الى طعن العالم الاسلامي في قلبه ، أما الهدف الثاني فكان السيطرة على البحر الاحمر واحتكار تجارة الشرق والمحيط الهندي .

وقد قام ارناط بالاستيلاء على أيله ذلك المركز الهام والتي تقع على ساحل العقبة ، ثم استولى على جزيرة القلعة المواجهة لها في خليج العقبة أيضاً . ثم قام رينو بغارة بحرية على السواحل المصرية الواقعة على البحر الاحمر ، ثم سار بسفنه حتى وصل الى ميناء عيذاب في مواجهة جدة ، وقد نهب رينو بعض السفن التجارية الوافدة من جدة واليمن وعدن والهند .

وقد بلغ من جرأة رينو واعوانه انهم انتقلوا بعد ذلك الى شاطئ الحجاز ، حيث تركوا سفنهم واستعانوا ببعض الخونة من البدو الذين دلوهم على داخلية البلاد فتوغلوا فيها حتى اصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة . ولم يسكت المسلمون على هذا التهديد السافر للأماكن الشريفة بالحجاز ، فخرج حسام الدين لؤلؤ قائد الاسطول المصري على رأس قوة بحرية ، أغارات على

أيلة حيث وجدوا بعض السفن الصليبية فاحرقوها وأسروا من فيها . ثم تعقبوا السفن الصليبية عند عيذاب ف ساحل الحجاز ، وقد وجدوا السفن الصليبية راسية أمام ساحل الحوراء ، فهاجمها حسام الدين ودمرها وفك أسر التجار المسلمين الذين سبق أن أسرهم الصليبيين وقد نزل حسام الدين بقواته على الساحل وأخذ في مطاردة الصليبيين بين الجبال حتى تم له أسرهم جميعاً فيما عدا رينو الذى نجح في الفرار وقد نذر صلاح الدين دمه وأقسم الا يغفر له فعلته هذه .

أما الاسرى الصليبيين فقد أرسل بعضهم الى منى وكان موسم الحج قد أوف فذبخوا كما تذبح الشاه عقاباً لهم على فعلتهم هذه ، أما باقى الاسرى فقد عاد بهم حسام الدين لؤلؤ الى مصر حيث تم تشهيرهم بشوارع القاهرة والاسكندرية .

ولم يلبث رينو دى شاتيون ان طلب الصفح والأمان من صلاح الدين فتم عقد هدنة بين صلاح الدين من جهة والصليبيين ورينو من جهة أخرى . وبناء على هذه الهدنة أخذت قوافل الحجاج والتجارة تغدوا وتروح بين البلاد الاسلامية مارة بصحراء الاردن . ومما لاشك فيه أن رينو قد كسب من وراء ذلك الكثير نتيجة للمكوس التى كان يفرضها على هذه القوافل . على أنه لم يقنع بكل ذلك وإنما عاوده الحنين الى أعمال اللصوصية والقرصنة . وكان أن انتقض بكل الغدر والخيانة على قافلة تحمل بضائع ثمينة كانت في طريقها من القاهرة الى دمشق في اوائل عام ١١٨٧ . وقد استولى رينو على كل ما تحمله القافلة من أشياء نفيسة وأسرى رجالها عن آخرهم في حصن الكرك حيث أساء معاملتهم الى حد كبير . ولم يكتف بذلك وإنما أصر على غيّه ورفض ما طلبه صلاح الدين من فك أسرى الرجال واعادة الاموال والبضائع اليهم ، وكان رده يتسم بسوء الخلق والاصرار على استفزاز صلاح الدين والمسلمين حيث رد على صلاح الدين قائلاً : « قولوا لمحمد بخلصكم » .

وقد بلغ الضيق بصلاح الدين أشده ، ولكنه تمالك نفسه وارسل الى ملك بيت المقدس جاي لوز جنان طالباً منه أن يرغم رينو على رد الاسرى

والبصائع ، ولكن الملك جايء ينجح في مهمته إذ ان رينو كان يشعر بانه صاحب فضل عليه لمساعدته في الوصول الى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية عقب وفاة الملك الطفل بلدوين الخامس في ١١٨٦ . فما كان من الملك جايء الا أن اخبر صلاح الدين بعجزه عن ارغام رينو على رد الاسرى والغنائم . وهكذا لم يعد هناك مجال امام صلاح الدين الا اعلان الحرب على الصليبيين فأخذ في تعبئة قواه تعبئة شاملة وخرج من دمشق على رأس جيش كبير متجهاً نحو الجنوب حيث هاجم حصن الكرك وضرب حوله وكذلك فعل بحصن الشوبك وهكذا اصبح رينو دى شاتيون محصوراً داخل حصن الكرك في الوقت الذي كان صلاح الدين يتمتع بحرية الحركة. وقد رغب صلاح الدين في ابريل ١١٨٧ في ارسال قوة استكشافية لتقوم بالاغارة على اقليم عكا ، ولما كانت هذه القوة في بانياس فقد كان عليها لكي تصل الى عكا ان تمر باقليم الجليل الذي يخضع لريموند أمير طرابلس والذي كان في حالة تحالف مع صلاح الدين . وهنا وجد ريموند نفسه في موقف حرج ، فهو اذاً لم يجب طلب صلاح الدين تعرض لافساد العلاقات معه ، واذا وافق فلاشك ان ذلك سيغضب الصليبيين ، ولم يجد ريموند مفرأ من السماح لهذه القوة بالعبور خلال إقليم الجليل ولكنه في نفس الوقت اعطى تعليماته الى مدن هذا الاقليم مثل الناصرة وطبرية باغلاق ابوابها حتى لا يستولى عليها المسلمون .

على ان هذا العبور لم يمر بسلام ، وذلك بسبب مقدم الداوية جيران دى ريد فورت الذي كان معروفاً عنه وعن فتنه التعصب الشديد ضد المسلمين ، فحين علم بمرور هذه القوات خلال اقليم الجليل جمع بضع مئات من الصليبيين وتصدى للمسلمين بالقرب من صفورية ، وقد دارت معركة عنيفة بين الطرفين في مايو ١١٨٧ اسفرت عن انتصار ساحق للمسلمين الذين قتلوا القوة الصليبية عن آخرها باستثناء بضعة أشخاص نجحوا في الافلات من القتل ، وبعد المعركة وصلت قوة أخرى من الصليبيين تمكن المسلمون من أسرها ، وعادوا سائين وهم يحملون رؤوس القتلى على أسنة حراهم .

وقد حمل الصليبيون ريموند أمير طرابلس مسؤولية هذه الكارثة التي حاقت بهم فلم يجد بداً من نقضه تحالفه مع صلاح الدين والعودة الى التعاون مع بنى

جلبته الصليبيون ، مما كان من صلاح الدين إلا أنه رد على تصرف ريموند بالمجوم على مدينة طبرية التابعة لزوجته أشيافا وكان ذلك في أوائل يوليو ١١٨٧ ، وقد اقتحم المسلمون المدينة واحرقوها ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على قلعتها التي احتمت بداخلها أشيافا .

وقد اجتمع الصليبيون في صفورية بالقرب من عكا ، وأخذوا في حشد جيوشهم ، ثم عقدوا اجتماعاً للحرب في عكا طلب بعضهم مثل رينو دى شاتيون ومقدم الداوية وغيرهم من المتطرفين ، ضرورة الاشتباك مع صلاح الدين وتخليص طبرية من ايدي المسلمين ، ومن الغريب ان ريموند أمير طرابلس وهو صاحب طبرية لم يؤيد مبدأ الاشتباك مع المسلمين وألقى في الصليبيين خطبه أعلن فيها رأيه هذا موضحاً أن قوات المسلمين كثيرة وحشودهم ضخمة وان من الأفضل عدم الاشتباك معهم في معركة ، لكن المتطرفين الذين سبقوا الإشارة اليهم وعلى رأسهم رينو دى شاتيون هاجموا ريموند واتهموه بأنه يحب المسلمين ويميل اليهم . وقد استطاع رينو ومن على شاكلته من الصليبيين التأثير على ملك بيت المقدس الضعيف الشخصية جاي لوز جنان ، وانتهى الرأي وتم الاتفاق على أن يسير الصليبيون من صفورية حتى طبرية لقتال صلاح الدين وتخليصها من يديه .

وقد سر صلاح الدين سروراً عظيماً حين علم بخطة الصليبيين هذه وعزمهم على المسير اليه ، وقال (جاءنا مانريد) ويفهم من ذلك ان صلاح الدين كان يريد ان يسير اليه الصليبيين حتى تهك قواهم من وعورة الطريق وطول الرحلة التي بلغ ١٦ ميلاً وحرارة الجو ، وقد كان ، اذ سار الصليبيون في اتجاه طبرية ، ولكن صلاح الدين ترك طبرية وتقدم حوالى خمسة أميال حتى وصل الى قرية حطين التي تمتاز بوفرة الماء وكثرة المرعى . وفي يوم ٣ يوليو ١١٨٧ وصل الصليبيون الى سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين وهو عبارة عن هضبة ترتفع عن سطح البحر بحوالى ثلاثمائة متر ، ولها قمتان اطلق المسلمون عليها اسم قرون حطين . وقد وصل الصليبيون الى هذا الموقع وهم في غاية الارهاق والتعب ، كما اشتد بهم العطش أيضاً وقد نصبوا معسكرهم فوق هذه الهضبة ، وكان في اسفل الهضبة تقع بحيرة طبرية ، وقد حاول

بعضهم الوصول الى ماء البحيرة لاطفاء نار ظمأهم ، ولكن حال المسلمون بينهم وبين الوصول اليه ، وقد قضى المسلمون ليلتهم وهم يهللون ويكبرون (الله أكبر) ، كما استغلوا ستار الليل واحاطوا بالهضبة التي عسكر الصليبيون فوقها احاطة الدائرة بقطرها . وفي صباح ٤ يوليو ١١٨٧ م . ، كان اليوم شديد الحرارة ، كما ان المسلمين اشعلوا النيران في الحشائش الموجودة باسفل الهضبة وكان الهواء على الصليبيين ، فحمل اليهم حر النار والدخان ، فاجتمع عليهم كما يقول ابن الاثير « العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال » .

وهكذا اصبح الموقف شديد الصعوبة بالنسبة للصليبيين ، الذين انتهكهم العطش واشتد عليهم الحر ، وأخذ المسلمون يتسلقون الهضبة وهم يقاتلون قتال الانطال ، والصليبيون يتراجعون امامهم نحو قمى الهضبة وقد نجح ريموند أمير طرابلس في الفرار من المعركة فكان الوحيد من زعماء الصليبيين الذى نجا ، أما باقى الصليبيين فوقعوا ما بين قتيل وأسير حتى لم يبق الا الملك جاي لوز جنار ومعه رينو دى شاتيون ومائة وخمسون من رجاله . وقد تم اسرهم جميعاً وبلغ من كثرة القتل والأسرى ان قال المؤرخ ابن الاثير « وكان من يرى القتل يحسب أن ليس هناك اسرى ، ومن يرى الاسرى يحسب ان ليس هناك قتلى » وقد سيق الاسرى الى معسكر المسلمين واستقبل صلاح الدين في خيمته الملك جاي لوز جنان ورينوى دى شاتيون وكان الملك جاي يعانى من العطش فقدم له صلاح الدين اناء به ماء مثلج ليروى ظمأه ، وبعد ان ارتوى الملك قدم مابقى من الماء لرينو دى شاتيون ، ولكن صلاح الدين غضب لذلك وقال للملك جاي « ان هذا الملعون لم يشرب الماء بأذنى ليناله امانى » وأخذ يؤنب رينو على تصرفاته الطائشة ضد المسلمين وقال له : « كم تحلف وتنكث ؟ » فرد عليه رينو بوقاحتة المعهودة : « هكذا جرت عادة الملوك » وقد ضاير رده هذا صلاح الدين لدرجة انه تناول سيفه واطاح برقبته ، فدعر الملك جاي وتوحس حيفه من قتله هو الآخر على هذا النحو ولكن صلاح الدين هدأ مـ روعه وقال له : « لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك اما هذا فقد تجاوز حـ ولذلك حرى عليه ماحرى » .

ولقد أكرم صلاح الدين الأسرى وعلى رأسهم الملك جاي وعامله معاملة طيبة للغاية وقد بلغ من كثرة الأسرى انهم كانوا يباعون بالجملة أى تباع الأسرة المكونة من الأب والأم والأبناء والبنات بيعة واحدة وبالسعر البخس .

صلاح الدين وانهار مملكة بيت المقدس الصليبية :

لقد فتح نصر حطين الطريق الى بقية الممتلكات الصليبية بالشام وفلسطين ، بعد أن أصبحت البلاد الواقعة تحت سيطرة الصليبيين وليس بها من يحميها بعد ان سقط فرسان المملكة الصليبية مابين اسير وقتيل اثناء معركة حطين . وكان من المنتظر ان يتجه صلاح الدين بعد حطين مباشرة الى بيت المقدس لفتحها ، ولكن تجلت عبقرية صلاح الدين وبعد نظره في تأجيله فتح بيت المقدس والبدء بفتح البلاد الساحلية ليقطع بذلك الشريان الذي يمد الصليبيين بداحل الشام وفلسطين بالمساعدات العسكرية الآتية من الغرب الاوروى وبذلك يعزل هذه البلاد الداخلية عن الاستفادة بأية معونة حربية يرسلها الغرب الاوروى فيسهل بذلك فتحها .

هذا فضلاً عن ان استيلاء صلاح الدين على موانئ الشام سيمكنه من تحقيق الاتصال البحرى السريع بين شطرى دولته في مصر والشام .

وقد تعاونت البحرية المصرية مع الجيوش الشامية على استرداد عكا وقيسارية وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرهم من الثغور الساحلية ، ولم يستعصى على صلاح الدين سوى مدينة صور التى كانت كما يصفها العماد الاصفهاني : « محاطة بالبحر من معظم نواحيها كأنها سفينة » . واضطر صلاح الدين الى استدعاء الاسطول المصرى المرابط في عكا ليقوم بمحاصرة صور من جهة البحر بينما حاصرها هو بجيوشه من ناحية البر .

وبالواقع ان من العوامل الهامة التى ساعدت صور على الصمود في وجه صلاح الدين وجيوشه واسطوله ، وصول كونراد دى مونتفرات الذى يصفه المؤرخ المسلم ابن شداد بقوله انه : « كان رجلاً عظيماً ذا رأى وبأس في دينه ، وصرامة عظيمة » ، وكونراد هذا هو ابن وليم دى مونتفرات الذى

قاتل الى جانب الصليبيين في معركة حطين ووقع اسيراً في يد صلاح الدين ، وهو شقيق بونيفيس دى مونتفرات الذى سيلعب دوراً هاماً في الحملة الصليبية الرابعة ، حيث انه كان قائد هذه الحملة التى انخرقت واتجهت ضد القسطنطينية في ١٢٠٤ حيث اسقطت الحكم البيزنطى واقامت مملكة لاتينية بها . وكان كونراد قد جاء من الغرب الاوروى ونزل بالقسطنطينية حيث ساعد في القضاء على الثائى البيزنطى برانانس في عام ١١٨٦ ، وهزم برانانس وارسل رأسه للامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس وتزوج من ثيودورا شقيقة الامبراطور اسحاق ، ثم ترك الاراضى البيزنطية واتجه الى الشام حيث وصل الى عكا بعد معركة حطين ووقع عكا في يد المسلمين ، الذين لم يتعرضوا لكونراد بسوء وتركوه يغادر عكا في أمان ، فاتجه الى مدينة صور ، والتف حولة الاهالى بها حيث أخذ كونراد ينظم صفوف المقاومة في صور ضد المسلمين ، وكان قد اجتمع بصور اعداد كبيرة من الصليبيين ، الذين فتح صلاح الدين بلادهم فلم يجدوا امامهم مأوى يأويهم الا صور فتجمعوا بها ، وقد أخذ كونراد في تقوية روحهم المعنوية وحثهم على الصمود والدفاع عن مدينتهم . وهكذا صمدت صور في وجه صلاح الدين الذى حاصرها براً وبحراً .

وقد حدثت معركة بحرية بين المراكب الحربية الصليبية الموجودة داخل ميناء صور وبين مراكب الاسطول المصرى ، ونجح المصريون في تشتيت مراكب العدو وابعادها وضرب حصار قوى حول ميناء صور . وكان من المنتظر ان تسقط المدينة سريعاً بعد هذا الانتصار الذى احرزه المسلمون ، ولكن الذى حدث ان رجال الاسطول المصرى امام صور احتفلوا بانتصارهم ، وسهروا تلك الليلة الى السحر ، ثم غلبهم النعاس فناموا ، وقد انتهز الصليبيون هذه الفرصة واغاروا على الاسطول المصرى وأسروا خمسة سفن من سفنه ، وأسروا قائد هذه السفن ويدعى عبد السلام المفرى ، وألقى البحارة المسلمين بأنفسهم في البحر فغرق منهم من غرق ونجا من نجا . واضطر صلاح الدين ازاء هذا الموقف ان يصدر أوامره الى رؤساء المراكب الباقية ان يرفعوا الحصار عن صور .

ومما لاشك فيه ان هذه الهزيمة التى منى بها الاسطول المصرى في ~~صور~~ صور قد رفعت من روح الصليبيين المعنوية بداخل المدينة ، فصاروا يخرجون منها من حين لآخر ويغيرون على جيوش المسلمين المحاصرة للمدينة مما اضطر صلاح الدين آخر الأمر الى رفع الحصار عن صور والانسحاب جنوباً الى عكا ، وترك أمر صور لكى يعود اليها في وقت آخر .

وهكذا لم يبق امام صلاح الدين في داخل فلسطين سوى المدينة الهامة بيت المقدس عاصمة مملكة بيت المقدس الصليبية ولنرى كيف تم لصلاح الدين فتحها .

كان باليان دى ابلين من الفرسان الصليبيين الذين تم أسرهم أثناء معركة حطين ، وكان باليان متزوجاً من ملكة بيت المقدس السابقة ماريا كومنين ارملة الملك عمورى الأول ، وهي سيدة بيزنطية من عائلة كومنين الشهيرة ، وقد توسل باليان لصلاح الدين طالباً منه السماح له بالذهاب الى بيت المقدس لأخذ زوجته وابنته ومغادرة المدينة على الفور ، أو كعادة صلاح الدين وتسامحه وكرم اخلاقه ، سمح له بذلك بعد أن أقسم لصلاح الدين ألا يبيت داخل بيت المقدس أكثر من ليلة واحدة على أن باليان لم يلبث بعد وصوله الى بيت المقدس ان نكث بوعده وقسمه لصلاح الدين ، وتزعّم حركة المقاومة ضد المسلمين ، وذلك انه وجد المدينة في حال يرثى لها بعد أن فقدت ملكها وفرسانها ، وقد بلغ من نقص الرجال بها انه كان هناك رجل واحد مقابل كل خمسين امرأة وطفل ، وقد توسل أهالي بيت المقدس لباليان ان يبقى معهم ويتولى الدفاع عن المدينة ضد المسلمين ، فوافق باليان واتخذ اجراءات سريعة لتقوية الدفاع عن المدينة ولكن كل اجراءاته كانت ليست ذات قيمة بعد أن انعدم عنصر الفرسان المدربين .

وقد استقبل صلاح الدين قبل وصوله الى بيت المقدس وفد من المدينة ذاتها فعرض عليهم ان يسلموا المدينة مقابل تأمينهم على ارواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم ، ويسمح لمن شاء منهم الخروج من المدينة سالماً . وهى نفس الشروط التى فتح بها صلاح الدين جميع بلاد مملكة بيت المقدس الصليبية ، غير أن

الوفد رفض مطالب صلاح الدين وأوضحوا : « ان الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون البيت المقدس » . عند ذلك أقسم صلاح الدين على أن يفتح بيت المقدس بحمد السيف ، فنزل على المدينة محاصراً لها وقد طاف بالمدينة خمسة أيام يتحسس موضع الضعف فيها ، حتى استقر رأيه أخيراً على تركيز الهجوم على الجانب الشمالى منها ، وفي ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧ بدأ هجوم صلاح الدين عند باب صهيون ، فحصل المسلمون (حملة رجل واحد) حتى وصلوا الى سور المدينة ونقبوه .

ومن الامور **الغريبة ان الملكة عليا** كرمين زوجة باليان دى ابلين الذى نكث بوعدده لصلاح الدين **واقضى** **ترعم** حركة المقاومة ضده داخل بيت المقدس ، طلبت من صلاح الدين ان يسمح لها بمغادرة المدينة (بيت المقدس) هى وابنائها ، وقد سمح لها صلاح الدين بما طلبت ، بل أكثر من ذلك ، أمر بحراستها من بيت المقدس حتى طرابلس ، كما سمح لغيرها من النساء والاطفال الذين رغبوا في مغادرة بيت المقدس ان يخرجوا من المدينة آمنين .

وقد عرض صلاح الدين للمرة الثانية على أهالى المدينة الخروج بنفس الشروط التى سبق ان عرضها عليهم ، ولكنهم رفضوا .

وعندما أدرك باليان **استعانة** **التغلب** على جيوش صلاح الدين المحاصرة لبيت المقدس قرر الاستسلام ، **فرسل** وفداً لمقابلة صلاح الدين وعرضوا عليه تسليم المدينة على نفس **الشروط** **التي** سبق ان عرضها عليهم ، ولكن صلاح الدين أبى في تلك المرة **أن يوافق على** طلبهم وأصر على أن يواصل حصاره للمدينة حتى يفتحها بحمد السيف ، وقال لرسل الصليبيين : « لا أفعل بكم الا كما فعلتم بأهله ، حين ملكتموه سنة احدى وتسعين واربعمائة (١٠٩٩ م) واجزى السيئة بمثلها » .

وقد خرج باليان بنفسه لمفاوضة صلاح الدين في شروط الاستسلام ، ولكنه وجد اضراً من صلاح الدين على فتح بيت المقدس بحمد السيف عند ذلك لجأ باليان للتهديد فقال لصلاح الدين : « اذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتل ابناءنا ونساءنا ونحرق ماملكه من أموالنا وامتعنا ، ولا نترككم تنعمون

منا ديناراً ولا درهماً ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة فإذا فرغنا من ذلك أخرجنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرها من المواضع الشريفة ، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيوان إلا قتلناه ، ثم نخرجنا إليكم وقاتلنا قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحيث لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله .

عندئذ أعاد صلاح الدين التفكير في الأمر مرة أخرى واستشار أصحابه فيما ينبغي فعله ، فاجتمعوا على الموافقة على ترك المسيحيين يغادرون المدينة مقابل فداء عشرة دنانير للرجل ، وخمسة دنانير للمرأة ، وديناراً واحداً للطفل . أما الفقراء فقد دفع باليان لسبعة آلاف منهم مبلغاً قدره ثلاثون ألف دينار . وقد أعطى صلاح الدين للصليبيين مهلة قدرها أربعون يوماً لكي يدفعوا الفداء ويغادروا المدينة ومن بقي بعد الأربعين يوماً ولم يؤد ما عليه صار مملوكاً .

وفي يوم الجمعة ١٢ أكتوبر ١١٨٧ م . وهو يوافق ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ وهي ليلة الأسراء والمعراج ، دخل صلاح الدين بيت المقدس ، وقد رتب على كل باب من أبواب المدينة أميناً من الأمراء لتحصيل الفدية المتفق عليها ، وقد أظهروا تسامحاً كبيراً تجاه فقراء المسيحيين الذين لم يقدرُوا على دفع الفدية ومنحهم صلاح الدين مساعدات مالية من ماله الخاص كما أن صلاح الدين قد عامل نساء الصليبيين معاملة طيبة للغاية أشاد بها المؤرخون المسلمون والمسيحيون على حد سواء . وقد أرسل الحراس ليصاحبوا الخارجين من بيت المقدس من الصليبيين خوفاً عليهم من اعتداءات البدو . وإذا قارنا بين هذه المعاملة التي إن دلت على شيء فأنما تدل على مدى الحصار التي كان عليها المسلمون في تلك الآونة ، بالتصرف الهمجي للصليبيين يوم أن فتحوا بيت المقدس في ١٥ يوليو عام ١٠٩٩ وأجروا به مذبحه مروعة بحيث أنهم لم يتركوا مسلماً في الطرقات أو المساحد البيوت والأقلام واستباحوا دمه ، دون أن يفرقوا بين رجل وطفل وامرأة ، وبمراعى الصليبيون حرمة المسجد الأقصى فاجهزوا على كل من حتمى به من المسلمين وكان عددهم أكثر من سبعين ألفاً .

ولم يحاول المؤرخون الصليبيون أنفسهم انكار هذه الحقائق فذكر ولیم الصوری ان بیت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحه مروعة حتى ان البلد اصبح «مخاصة واسعة من دماء المسلمين اثار خوف الغزاة واشتمزازهم». وذكر مؤرخ صليبي آخر كان شاهد عيان لهذه الاحداث انه عندما زار المسجد الاقصى غداة المذبحة الرهيبة التي اجراها الصليبيون ، لم يستطع ان يشق طريقة وسط اشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة ، وان دماء القتلة بلغت ركبتيه . ولذلك فليس بمستغرب ان بعض المؤرخين الغربيين اخذوا مثل رينيه جروسيه وستيفن رانسيمان ، يعترفون بان مذبحه بيت المقدس هذه كانت وصمة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى .

أقول لو قارنا بين فتح الصليبيين لبيت المقدس والمذابح الرهيبة التي اجروها للمسلمين ، وبين فتح صلاح الدين لهذه المدينة المقدسة والمعاملة الطيبة التي عامل بها الصليبيون لبدا الفرق واضحاً بين حضارة المسلمين وترفعهم عن الانتقادات وراء شهوة الانتقام ، وبين بربرية الصليبيين الغربيين الذين اتصفت تصرفاتهم وتشبعت بروح الكراهية والحقد المتأصل في نفوسهم تجاه المسلمين . وقد كان صدى فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الايوبي في العالم الاسلامي كبيراً ، وهلل المسلمون لهذا النصر وأتوا القدس الشريف من كل قطر زائرين له . وقد أخذ صلاح الدين يعمل على ازالة كل أثر للصليبيين في بيت المقدس ، فانزل الصليب الكبير الذهبي الذي أقامه الصليبيون في أعلا قبة الصخرة ، كما أمر بغسل الصخرة نفسها بعدة أحمال من ماء الورد وبخرت وفرشت .

وقد نادى بعض المسلمين بهدم كنيسة القيامة وقالوا « اذا هدمت ونبشت المقبرة وعفرت وحرثت أرضها ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار ، ومهما استمرت العمارة استمرت الزيارة » . ولكن صلاح الدين لم يوافق على هذا الرأي وأمرهم باحترام الاماكن المقدسة المسيحية في بيت المقدس والتزام روح التسامح مع المسيحيين وهو الأمر الذي انتهجه المسلمون دائماً تجاه أهل الدمة

الفصل الثالث

صلاح الدين والحمة الصليبية الثالثة

لقد كان لسقوط بيت المقدس في يد المسلمين وانهيار المملكة الصليبية آثار خطيرة لدى المسيحيين وخاصة في الغرب الاوروبى . وقد عمل كونرادى منتفرات على اذكاء روح البغض والكراهية تجاه المسلمين ، بما ارسله للغرب الاوروبى من لوحة كبيرة جرى الطواف بها في اوروبا وهى تمثل القبة المقدسة والقبر المقدس وقد لوثنه خيول المسلمين ، ونسى كونراد أو تناسى كرم وتسامح صلاح الدين ومعاملته الطيبة للصليبيين كافة على النحو الذى تم توضيحه فيما سبق من احداث .

وقد ارسل كونراد مع هذه اللوحة جوسياس رئيس اساقفة صور ليطلب من البابوية وملوك الغرب المساعدة العسكرية العاجلة . لذا فان كونراد دى منتفرات يعتبر مسئولاً أكثر من غيره عن الدعوة للحملة الصليبية الثالثة .

وقد قابل جوسياس البار ايربان الثالث الذى كان مسناً ومريضاً فلم يتحمل الانباء السيئة التى نقلها اليه جوسياس وخاصة استيلاء المسلمين أو بمعنى أصح استعادتهم لبيت المقدس ، وقد توفى البابا ايربان الثالث غماً وحزناً بعد سماعه لهذه الاخبار .

وتجدر الاشارة الى أن الحملة الصليبية الثالثة تختلف عن الحملة الاولى ، من حيث أنها لم تنبع من البابوية ، وانما نبعت من السلطة العلمانية ، التى تمثلها امبراطورية المانيا (الامبراطورية الرومانية المقدسة) ، وملكىة إنجلترا وفرنسا . وقد اعلن الامبراطور الالماني فردريك بربروسا الاشتراك في توجيه حملة صليبية الى الاراضى المقدسة ، وقرر ملك فرنسا فيليب اوغسطس وملك إنجلترا هنرى الثانى ، الاشتراك سوياً في حملة صليبية . وما اتخذه كل من هذين الملكين من الوسائل للقيام بالحملة الصليبية انما يدل على ماكان لهذه الحملة من مظهر علمانى . اذ قاما بفرض ضريبة وهى المعروفة باسم عشور صلاح الدين ، على كل من لم يهض لاتحاد الصليب والاشتراك في الحملة . دفعت من جهة عدداً كبيراً الى ان يتخذوا الصليب ويشتركوا في الحملة الصليبية حتى لا يقوموا بدفعها ، وصارت من جهة اخرى تعتبر أساساً مالياً لعمليات الحربية . الأساس العلمانى لحملة الصليبية الثالثة هو الذى جعلها من جهة أكبر

الحملات الصليبية ، اد اشترك فيها الملوك الثلاثة الكبار الذين يحكمون غرب أوروبا ، وجعلها من جهة أخرى من عوامل فشلها ، لأن ملكي إنجلترا وفرنسا بعد أن تغيرت نواياهما ، نقلا مابينهما من منازعات سياسية ، الى الحركة الصليبية ، بعد أن تم الاتفاق بينهما على ضرورة اغفالها ونبذها . ولذلك فان الحملة الصليبية الثالثة تعتبر من الناحية الروحية أقل شأناً من الحملة الصليبية الأولى . ومهما يكن فان هنرى الثانى ملك إنجلترا توفى في اوائل يوليو ١١٨٨ فخلفه ابنه ريتشارد قلب الاسد الذى توج في سبتمبر ١١٨٨ .

وفي صيف ١١٩٠ أبحر ملكا فرنسا وإنجلترا على رأس جيوشهما الصليبية ليقضى كل منهما فصل الشتاء في جزيرة صقلية (سبتمبر ١١٩٠ - مارس ١١٩١) مستمتعين بجو صقلية الدافئ . أما امبراطور ألمانيا فردريك بربروسا فقد خرج على رأس جيوشه في مايو ١١٨٩ في طريقه للاراضى المقدسة في فلسطين متخذاً الطريق البرى عبر هنغاريا ماراً بأراضى الدولة البيزنطية .

والواقع ان شخصية فردريك بربروسا استحوذت على اعجاب المؤرخين في مختلف العصور التاريخية ، فيقال انه جمع في شخصه جميع الشيم التى افتخرت بها فروسية العصر الذى عاش فيه ، من شجاعة فائقة وهمة خارقة ومرح مفرط فضلاً عن شغف بالقتال والنزال وولوع بالمغامرة ، وحب للعدل بين الناس عدلاً عرفياً مصدره حسن الادراك ، لا القانون الجامد . ويقول المؤرخ فيشر انه لم يعتل عرش المانيا منذ شارلمان ملك تم فيه من خلال المؤهلة لحكم الالمان مثلما تم في بربروسا ، اذ كان باستطاعته ان يخيف العقول ويسحرها بلطفه في آن واحد ، ولمس رجال الدين والامراء الاقطاعيون والفلاحون تلك الناحية من شخصيته الممتازة ، واعتبروه مثال الفارس الكامل .

على أية حال فان فردريك بربروسا وصل الى أراضى الدولة البيزنطية على رأس جيوشه التى بلغت مائة ألف مقاتل ، وكان بصحبته ابنه فردريك أمير سوايبا ، الذى عرف باسم فردريك السواى . وفيهما في هذا المجال ان نتعرض للعلاقة بين فردريك بربروسا والامبراطور البيزنطى اسحاق اكيلوس الذى كان يحكم الامبراطورية البيزنطية آنذاك (١١٨٥ - ١١٩٥) فقد انصمت هذه

العلاقة بالكراهية والبغض الشديد وذلك لعدة أسباب منها العداء التقليدي الذي ساد دائماً العلاقات بين الامبراطوريتين البيزنطية والالمانية ، وقد نظر الاباطرة البيزنطيين دائماً نظرة احتقار وتعالى للامبراطور الالمانى (المحدث) ، الذى لم يحظى بلقب الامبراطور الا منذ عام ٨٠٠ م حين توج البابا ليو الثالث شارلمان امبراطوراً ، وبذلك أوجد منافساً خطيراً للامبراطور البيزنطى الذى كان يعتبر فريداً من نوعه ، وقد رفض الاباطرة البيزنطيون دائماً الاعتراف بالاباطرة الالمان الذين كانوا يطعمون في الامبراطورية البيزنطية منذ عصر شارلمان . أضف لذلك ان الامبراطور فردريك بربروسا كان في حالة تحالف مع النورمان في صقلية وجنوب ايطاليا وهم الاعداء الألداء للامبراطورية البيزنطية لما لهم هم الآخرون من اطماع فيها ، وقد ظهرت هذه الاطماع بوضوح خلال عصر الامبراطور اليكسيوس كومنينوس (١٠٨١ - ١١١٨) الذى خاض نضالاً عنيفاً ضد روبرت جويسكارد النورمانى الذى نزل مهاجماً لأراضى الامبراطورية البيزنطية في البلقان ، وقد ظل النورمان على عدائهم للبيزنطيين واطماعهم في الدولة البيزنطية وتاريخ الحملة الصليبية الاولى حافل بالصراع الذى نشب بين بوهيمند النورمانى ابن روبرت جويسكارد وبين الامبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس حول امتلاك انطاكية . هذا الى جانب العداء التقليدى أيضاً الذى كان بين الدولة البيزنطية والصليبيين بصفة عامة منذ الحملة الصليبية الأولى . لذلك لانعجب حين نجد الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيليوس يواجه فردريك بربروسا بالعداء منذ أن وطأت قدماه الارض البيزنطية ، مما دفع بربروسا الى ارسال رسالة لانه هنرى في المانيا يطلب منه اعداد الجيوش لقتال الدولة البيزنطية . وقد اخذ اسحاق انجيليوس يرسل لصالح الدين الرسالة تلو الاخرى يخبره فيها بتحركات الألمان ، ومحاولاته المستمرة لعرقلة مرورهم عبر اراضيه .

وقد رد صلاح الدين هذا الجميل للامبراطور البيزنطى بان وافق على وضع الاماكن المقدسة المسيحية في بلاد الشام وفلسطين تحت رعاية رجال الدين الارثوذكس . وقد وافق الامبراطور البيزنطى من جانبه على اشراف صلاح الدين على الجامع الموجود بالقسطنطينية ، وهو الذى تم بناؤه في عصر

الامبراطور ليو الثالث الايسورى ، وفي خلافة الأمويين . وقد ارسل صلاح الدين الخطيب والمؤذنين والقراء الى القسطنطينية واقيمت الخطبة بهذا الجامع للخليفة العباسى .

ولم يلبث فردريك بربروسا بعد أن ووجه بهذا العداء من جانب الامبراطور البيزنطى ان رحل الى آسيا الصغرى في أواخر مارس ١١٩٠ . وقد دخل الامبراطور الالماني وجيشه الى أراضى سلطان سلاجقة الروم الذين اتخذوا من مدينة قونية في آسيا الصغرى عاصمة لهم وكان يدعى قليج ارسلان الثانى . وبهنا أيضاً أن نشر هنا الى علاقات الود التى ربطت بين هذا السلطان المسلم الذى ينتمى الى السلاجقة الذين حملوا لواء الجهاد ضد المسيحيين منذ وصولهم الى آسيا الصغرى عند منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، وبين الامبراطور الالماني فردريك بربروسا . وقد تعهد له قليج ارسلان بامداده بالمرشدين وحمايته ورجاله من المعتدين: واذا تساءلنا عن الدافع لقلبيج ارسلان لأن يدخل في تحالف مع هذا الامبراطور الصليبي لوجدنا ذلك يرجع الى عداء قليج ارسلان لكل من الامبراطور البيزنطى من جهة ولصلاح الدين من جهة أخرى ، وقد وجد في تحالفه مع الامبراطور الالماني الرد على تحالف صلاح الدين مع اسحاق انجيلوس .

وبناء على الاتفاق الذى تم بين قليج ارسلان وفردريك بربروسا فقد أمدّه سلطان سلاجقة الروم بالادلاء والمرشدين الذين قادوا الجيش الالماني خلال آسيا الصغرى حتى وصلوا الى ارمينيا في سلام .

وهكذا اصبح الوضع بالغ الخطورة بالنسبة للجانب الاسلامى بعد أن وصلت الحملة الالمانية الى ارمينيا وكانت الحملة الفرنسية والحملة الانجليزية في طريقهما للشام ، وهكذا أحس المسلمون انهم سيقعوا بين شقى الرحى أو فكي الكماشة . حين يتعرضون لضغط الالمان من الشمال من جهة ارمينيا وضغط الفرنسيين والانجليز من ناحية الجنوب أى من ناحية السواحل المطلّة على البحر الابيض المتوسط .

وقد أورد المؤرخون المسلمون عبارات توضح مدى اليأس الذى انتاب

المسلمون عندما علموا بوصول الالمان الى ارمينيا فقال ابن الاثير : « لما وصلت الاخبار بوصول ملك الالمان أيقنا أنه ليس لنا بالشام مقام » ، وقال أبو الفدا : « بلغ المسلمون وصول ملك الالمان ، وكان قد سار من بلاد ماوراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل ، واهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية » .

وقد سيطر القلق على صلاح الدين ، واتخذ من الاجراءات مايكفل عدم سيطرة الصليبيين على المراكز الاسلامية الهامة واستخدامها في محاربة المسلمين ، فأمر بهدم سور طبرية ويافا وارسوف وقيساريه وصيدا وجيل ، ونقل أهلهم الى بيروت .

لكن الله سبحانه وتعالى لطف بالمسلمين ، وشاء تعالى ان يرفع عنهم ذلك الخطر الجسيم الذين تعرضوا له ، اذ غرق فردريك ببروسا اثناء عبوره لنهر السالف في ارمينيا . وقد تعددت الروايات بصدد غرقه ، فمن قائل بأنه رمى بنفسه اثناء عبوره للنهر من على ظهر فرسه ليطفئ حرارة جسده ، فغرق ، ورواية أخرى تقول ان فرسه قد جمع به وألقاه في الماء على حين غرة ولما كان فردريك يرتدى ملابس الحرب الثقيلة من الدروع وغيرها فانه لم يستطيع ان ينهض وغرق . اما الرواية الثالثة فتقول انه نزل ليستحم في مياه النهر فغرق في موضع لا يصل فيه الماء الى وسط الرجل . ومهما يكن ، فان غرق فردريك ببروسا على هذا النحو كان تدخلاً من الاقدار في ساعة حاسمة في مصير المسلمين بالشام في هذه المرحلة التاريخية من نضالهم مع العدو الصليبي .

وقد هلك المسلمون لاختفاء الامبراطور على هذا النحو وقال ابن الاثير : « لولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الالمان - لما خرج على ماذكره عند خروجه الى الشام - والا كان يقال ان الشام ومصر كانتا للمسلمين » .

وبموت فردريك ببروسا انفلت زمام الجيش الألماني ولم يستطع ابنه فردريك السواني ان يسيطر عليه ، فعادت طائفة منه الى الغرب الاوروى تجر اذيال الخيبة ، أما فردريك فقد حمل جثثان والده في جرة نبيذ وسار في طريقه

للشام وعند نهر العاصى أصيب هو ورجاله بالوباء ، فالتقطهم بوهيمند الثالث أمير انطاكية على أمل أن يموتوا عنده فيغنم ما معهم . ولكنهم لم يموتوا وانما اخذوا يستردون صحتهم ، فضايق بهم وثقلت عليه وطأتهم ، فأراد أن يستفيد منهم لمصلحته الخاصة فعرض عليهم مساعدته في الهجوم على حلب ، ولكن فردريك السوائى رفض ، ورحل هو ورجاله لينضموا الى باقى الصليبيين المحاصرين لمدينة عكا .

الحملة الصليبية الثالثة والاستيلاء على عكا :

كان الملك جاي لوز جنان أحد الذين وقعوا أسرى في يد صلاح الدين الايوبي في معركة حطين كما سبق أن ذكرنا ذلك في موضعه ، وقد أخذت زوجته سبيل تلح على صلاح الدين لاطلاق سراح زوجها جاي لوز جنان ، وقد استجاب صلاح الدين لتوسلاتها وأطلق سراح جاي في يوليو ١١٨٨ ، وكعادة صلاح الدين في نبل الاخلاق والكرم ، أطلق مجموعة من كبار الشخصيات الصليبية التى كانت في الاسر ، حتى يكونوا رفقاء للملك جاي لوز جنان ، وقد اطلق صلاح الدين سراح جاي ورفقائه دون مقابل مادى على الاطلاق ، وكل ما هنالك أن جاي تعهد لصلاح الدين بألا يشهر في وجهه سيفاً أبداً ويكون غلامه ومملوكه الى الابد . وبعد اطلاق سراح جاي لوزجنان توجه مع زوجته سبيل إلى المدينة الوحيدة التى بقيت في يد الصليبيين من مملكة بيت المقدس الصليبية وهى مدينة صور ، وقد سبق أن ذكرنا ان كونراد دى مونتفرات قد سيطر عليها ودافع عنها ضد المسلمين وحال بينها وبين السقوط في ايديهم ، وقد وصل الملك جاي لوز جنان والملكة سبيل الى صور وطالبا كونراد بالسماح لهما بدخولها ، ولكنه رفض أن يسمح لهما بذلك واجابهما بأن هذه المدينة لم تعد مدينتهما وان الفضل يعود اليه في حفظها والدفاع عنها ضد المسلمين ولولا جهوده هذه لكانت قد سقطت في أيديهم كما حدث لغيرها من مدن مملكة بيت المقدس الصليبية . وقد ظل الملك والملكة أمام صور عدة أشهر يحاولان دخولها دون جدوى . ولما وحده الملك جاي لوز جنان انه لم يعد له بلد يأويه نكث في قسمه وخان عهده الذى

قطعه لصالح الدين بألا يشهر في وجهه سيفاً أبداً ، واتجه نحو عكا التي تعتبر من أهم مدن الشام الساحلية وثاني مدينة بعد بيت المقدس في الأهمية بالنسبة للصليبيين ، وقد سحب الملك جاي في طريقه الى عكا جموع كثيرة من الفرسان الصليبيين المشردين ، وكذلك مجموعة من الفرسان المقاتلين من النورمان المعروفين بشدة بأسهم في القتال . وكان لصالح الدين في ذلك الوقت مشغولاً بحصار قلعة الشقيف ارنون ، ولم يصدق الانباء التي وصلت اليه عن اعتزام الملك جاي لوز جنان الاستيلاء على عكا ، وظن أن في الأمر خدعة لاجباره على ترك قلعة الشقيف ارنون . ولكن لم يلبث أن تأكد من صحة هذه الاخبار وان الصليبيين وعلى رأسهم جاي لوز جنان في طريقهم فعلاً من صور الى عكا مروراً بالساحل . وقد كان رأى لصالح الدين أن يقضى على جموع الصليبيين قبل أن يصلوا الى عكا ، ولكن امراءه خالفوه في الرأي وطالبوا بتأجيل ذلك حتى تكتمل جموع الصليبيين أمام عكا ويقضون عليهم دفعة واحدة .

ولاشك أن رأى لصالح الدين كان هو الأصح والاسلم ولكن لم يعملوا به ، وهكذا اجتمع امام عكا جموع كثيرة من الصليبيين خاصة ون جاي لوزجنان وكونراد دي مونتفرت قد صفيا مابينهما من خلافات وبعاد معا في حصار عكا كذلك وصل امام عكا فردريك السواني يقيما الحملة الالمانية الفاشلة والتي انفصم عراها بعد غرق فردريك ببروسا . هذا الى جانب اساطيل المدن البحرية الايطالية جنوا وبيزا والبندقية التي كانت قد سمعت بالدعوة للحملة الصليبية الثالثة ، فصفوا ماينهم من خلافات واسرعوا للشام للاشتراك في حرب المسلمين . ويقدر بعض المؤرخين عدد الجموع الصليبية التي احتشدت امام عكا بأكثر من عشرين ألفاً . كما قدروا عدد سفنهم بما لا يقل عن ٥٥٢ سفينة من مختلف البلاد الأوروبية . وهذا العدد الكبير كان يزيد كثيراً على ما كان عند لصالح الدين من سفن حربية وقد اعترف لصالح الدين بهذا التفوق البحري للعدو في بعض رسائله مثل قوله : « ومن خبر الكفار انهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهم أمر من اجاجه .. فاذا قتل المسلمون واحداً في البر يبعث

البحر عوضه ألفا » .

على أن صلاح الدين لم يقف مكتوف اليدين ازاء تجمعات العدو امام عكا ، بل سارع بمهاجمتهم ، ونجح في فتح الطريق الى المدينة لامتدادها بالمؤن والاسلحة والرجال ، وظهرت حامية المدينة تحت قيادة قراقوش بطولة وشجاعة تسترعى الانتباه .

كذلك كان صلاح الدين يتصل بحامية المدينة عن طريق الحمام الزاجل ، أو عن طريق العوامين في البحر وهم مانعرفهم في الوقت الحالي باسم (الضفادع البشرية) ومن امثلتهم عيسى العوام الذي كان يشد على وسطه الرسائل المراد توصيلها الى حامية عكا وأكياس الذهب للاتفاق منها على المجاهدين ، ثم يغوص في البحر ليلاً وفي غفلة من العدو ، ثم يخرج من الجانب الآخر من سفن العدو ، ويدخل عكا حيث يسلم ما يحمله من الذهب والرسائل الى رجال الحامية .

وفي ذات يوم حمل عيسى العوام أكياس الذهب والرسائل كعادة ، وغاص في البحر ، ولم يعد أحد يسمع عنه خبر بعد ذلك ، فاعتقد البعض أنه فر بالذهب ، على حين اعتقد البعض الآخر بأنه وقع اسيراً في يد الاعداء . وبعد عدة أيام بينما الناس على ساحل البحر في عكا ، اذا بالبحر يقذف اليهم ميتاً غريقاً ، فنظروا إليه فاذا به عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه أكياس الذهب والرسائل كما هي ، وبذلك برأه الله سبحانه وتعالى مما نسب إليه من الخيانة والفرار بالذهب .

وعلى الرغم من الامدادات التي وصلت لصلاح الدين وهو امام عكا الا ان التفوق العددي كان للصليبيين . وقد أصبح رجال الحامية أعنى حامية عكا ، يشتكون مر الشكوى من مواصلة السهر والقتال ليلاً ونهاراً وطلبوا بالحاج سحبهم الى خارج عكا ووضع احامية اخرى جديدة ، وقد تم تجديد الحامية في منتصف فبراير ١١٩١ ، ولكن هذه العملية لم تتم على الوجه الأكمل نظراً لما أحاط بها من ظروف عسكرية خاصة بحصار الصليبيين لعكا . ولم يستطع المسلمون ان يدخلوا الى عكا سوى عشرين اميراً بدلاً من الستين الذين تم سحبهم من عكا .

ويرجع بعض المؤرخين السبب في سقوط عكا فيما بعد الى الخطأ في تنفيذ هذه العملية بالذات وعدم اتمامها على الوجه الأكمل .

وقد توفيت الملكة سبيل زوجة جاي لوز جنان وهم محاصرين لعكا ، وهكذا فقد جاي لوز جنان أى حق له في عرش مملكة بيت المقدس ، بعد وفاة زوجته الملكة صاحبة الحق الشرعى ، لأنه كان يجلس على عرش مملكة بيت المقدس بصفته زوج الملكة وليس بصفته الشخصية .

وهكذا انتقل الحق في العرش الى اختها ايزابيلا ، وكانت ايزابيلا ، متزوجة من شخص ضعيف الشخصية وخامل يدعى اونفروى دى تورون ، فاتفق الفرسان الصليبيين على تطليق ايزابيلا من زوجها وتزويجها من رجل الساعة حينئذ لديهم وهو كونراد دى مونتفرات ، وقد تم ذلك بالفعل في نوفمبر ١١٩٠ . وهذا بطبيعة الحال مما اغضب جاي لوز جنان وأوجد فرقة وانقسام في صفوف الصليبيين ، ولكن ذلك سرعان ما انتهى بوصول فيليب اوجسطس ملك فرنسا الى الشام . وقد وصل فيليب اوجسطس الى صور أولاً فرحب به قرية كونراد دى مونتفرات وصحبه الى عكا ، وكان لوصول الملك فيليب الى عكا رد فعل كبير عند الصليبيين والمسلمين على حد سواء ، وفي الوقت الذى هلك فيه الصليبيين وابتهجوا لوصوله نظراً لمكانته الكبيرة عندهم . اذا بالمسلمين يعملون حساباً كبيراً لوصوله ، خاصة وانه وصل في الوقت الذى بدأ المسلمون فيه يضجرون من كثرة القتال وطول البقاء امام عكا ، فبدأ بعضهم ينسحب من امامها مثل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل .

ولم يلبث ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ان وصل هو الآخر الى صور بعد ان ساقته الظروف لفتح جزيرة قبرص والاستيلاء عليها من يد حاكمها البيزنطى . وقد رفضت حامية صور استقباله بالمدينة وطلبت منه الاسراع الى عكا . وبعد وصوله الى عكا في ٨ يونيو ١١٩١ ، ازداد الصليبيون قوة وكثرة عددية ، ورغم ذلك فان المسلمين قد أبدوا بطولات وشجاعة نادرة ، مثال يعقوب الحلبي الذى خرج من بيروت على رأس سفينة كبيرة (بطسه) مشحونة بالآلات والميرة والرجال لامداد حامية عكا ، فاعترضه ملك إنجلترا ريتشارد وحاصره بسفنه التى

كانت تبلغ الأربعين قطعة بحرية ، فقاتلهم المسلمون قتالاً عنيفاً ، واحرقوا لهم سفينة كبيرة غرقت بمن فيها ، ولما تكاثر العدو على سفينة المسلمين وكاد أن يستولى عليها ، قال مقدمها يعقوب الحلبي : « والله لا نقتل الا عن عز ، ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئاً » . ثم حطموا جوانب البطسة ، بالمعاول حتى فتحوها ، فامتلأت ماء وغرق جميع من فيها وكان عددهم ستمائة وخمسون رجلاً ومافيا ولم يظفر العدو منها بشيء .

وقد مر الصليبيون هم الآخرون بظروف سيئة ، بعد أن اشتد الخلاف بين جاي لوز جنان وكونراد دي مونتفرات ، مما جعل كونراد ينسحب الى صور ، ومرض ريتشارد قلب الأسد ، وجرح فيليب اوجسطين ، ولكي يكسبوا الوقت حتى تتحسن ظروفهم ، اخذوا في مراسلة صلاح الدين شغلاً للوقت ، وظل ريتشارد ملك إنجلترا يطلب من صلاح الدين الفاكهة والتلج التي احتاج اليها في مرضه ، وكان صلاح الدين يمدّه دائماً بما يطلبه .

وما ان نجست احوال الصليبيين حتى استأنفوا القتال من جديد بضراوة وعنف ، وقد ارسلت حامية عكا رسالة الى صلاح الدين عن طريق الحمام الزاجل جاء بها : « انا قد بلغ منا العجز غاية ما بعدنا الا التسليم ، ونحن في الغد ثامن الشهر (جمادى الاولى ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م) ان لم تعملوا معنا شيئاً ، نطلب الامان ونسلم البلد » .

ولم تنجح جميع المحاولات التي قلم بها صلاح الدين لانقاذ عكا ، واضطر الى الدخول في مفاوضات مع الصليبيين ناب عنه فيها أخوه العادل وناب عن الصليبيين الاستبارية ، ولكن الصليبيون غالوا في مطالبهم وطالبوا برد جميع البلاد التي فتحها صلاح الدين بعد حطين واعادة صليب الصليبيوت وكان من الطبيعي ان يرفض صلاح الدين مطالبهم هذه وبذلك انقطعت المفاوضات . وقد تدخل كونراد دي مونتفرات في الأمر وبدون موافقة صلاح الدين عقد اتفاقية مع حامية عكا ، وقد نصت الاتفاقية على السماح لحامية عكا بالخروج سالمة مقابل فدية قدرها ٢٠٠,٠٠٠ دينار وتحرير ٢٥٠٠ من الاسرى الصليبيين ، ورد صليب الصليبيوت. وهكذا تم للصليبيين الاستيلاء على عكا ودخلوها في يولييه ١١٩١ هـ بعد

حصار دام مايقرب من العامين .

وبعد سقوط عكا في يد الصليبيين اعتذر فيليب اوجسطس ملك فرنسا بالمرض وغادر بلاد الشام الى برنديزي في ايطاليا في اغسطس ١١٩١ ، على حين استمر ريتشارد ملك إنجلترا في الشام وقام بعدة محاولات لاسترداد بيت المقدس ولكنه فشل ، ولم يستطع سوى الاستيلاء على ساحل فلسطين من عكا الى يافا .

وقد حاول ريتشارد ان يصل الى حل سلمى لمشكلة بيت المقدس فاقترح ان تزوج اخته جوانا من العادل شقيق صلاح الدين وبمكمان معاً مملكة بيت المقدس الصليبية بحدودها التي كانت عليها قبل معركة حطين ١١٨٧ . وقد وافق صلاح الدين على هذا الاقتراح ووافق العادل أيضاً ، ولكن جوانا رفضت بعد أن حرضها رجال الدين ضد الزواج من مسلم . وكان ان اقترح ريتشارد ان يعتنق العادل المسيحية ، ولو تظاهراً ، حتى توافق جوانا ، ولكن صلاح الدين والعادل رفضا ذلك ، وهكذا انتهى هذا المشروع بالفشل .

ولما طالت اقامة ريتشارد بالشام واصابه المرض واضطربت احوال مملكة إنجلترا نتيجة لغيابه عنها طوال هذه السنين منذ خرج من بلده في صيف ١١٩٠ . أخذ يلح على صلاح الدين من أجل الوصول الى اتفاق حتى يتمكن من مغادرة الشام والعودة الى وطنه ، واخيراً تم بينهما صلح الرملة في ٢ سبتمبر ١١٩٢ . ونص على ما يلي :

١ - أن يكون للصليبيين البلاد الساحلية من صور الى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وارسوف .

٢ - تكون عسقلان للمسلمين .

٣ - تكون اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين .

٤ - يكون للمسيحيين حرية الحج الى الاماكن المقدسة في بيت المقدس دون مطالبتهم بأية ضريبة مقابل ذلك .

٥ - أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر .

وهكذا تم الاتفاق أخيراً ، وعقب ذلك غادر ريتشارد الشام في ٩ أكتوبر

١١٩٢ في طريقه بحراً الى بلاده .

وبذلك انتهت قصة الحملة الصليبية الثالثة التي قامت أساساً من أجل استرداد بيت المقدس بعد أن فتحها صلاح الدين وحطم مملكة بيت المقدس الصليبية عقب انتصاره في معركة حطين ١١٨٧ م . ولكن هذه الحملة رغم اشتراك ثلاثة من كبار ملوك الغرب الاوروى بها ، ورغم الاستعدادات المادية والبشرية التي اتاحت لها ، ورغم الظروف الصعبة التي مر بها صلاح الدين والمسلمون ، الا أنها لم تحقق الهدف الذي خرجت من أجل تحقيقه وهو استعادة بيت المقدس من يد المسلمين ، ولذلك يمكننا القول أن هذه الحملة فشلت في تحقيق هدفها ، وبقيت مدينة بيت المقدس في حوزة المسلمين .

وفاة صلاح الدين والصراع بين الأيوبيين :

توفي صلاح الدين في اوائل مارس سنة ١١٩٣ ، وكانت وفاته وهو يهدم دمشق بعد مرض قصير ألم به . ودفن هناك ومعه سيفه الذي طالما جاهد به أهلاء الاسلام ، ليتوكلأ عليه الى الجنة على حد تعبير المؤرخ أبو شامة .

أما المؤرخ ابن شداد فيصف حب صلاح الدين للجهاد وتفانيه في نصرة دين الله . فيقول : « ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ماكان له حديث الا فيه ولا نظر الا في آياته ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنه وميسرة » .

وقد كان يوم وفاته يوم حزن وأسى بالنسبة للمسلمين وقد تمنى الكثير منهم ان يفتدوه بأنفسهم ، وقد اعترف المؤرخون الغربيون بقوة صلاح الدين وعدله وتسامحه بل وأكثر من ذلك لقد اعترفوا بأنه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية بأجمعه ، ولاشك ان هذه شهادة طيبة للغاية خاصة اذا كانت صادرة من اعدائه ، ورغم ما حفل به عصر الحروب الصليبية من

شخصيات الأباطرة والملوك الغربيين ، ولكن تصرفات صلاح الدين الذي اتسمت دائماً بالشهامة والمروءة والنبل والترفع عن الانتقام والرد بالمثل على تصرفات الصليبيين المهجبة ، كل ذلك جعل منه اعظم شخصية في عصر الحروب الصليبية وبشهادة اعدائه .

على أنه ماكاد صلاح الدين يختفى من مسرح الاحداث ، حتى دب الخلاف والانقسام بين أفراد البيت الايوبي . فقد أنجب صلاح الدين سبعة عشر من الابناء ، وكان من الطبيعي ان يختص صلاح الدين ابنائه بحكم الاجزاء الرئيسية في دولته ، وقلد اخوته الذين كان أهم شخصية فيهم هو العادل ، الاجزاء الثانوية .

وعند وفاة صلاح الدين كان أكبر ابنائه ويسمى الأفضل نور الدين على موجوداً مع ابيه بدمشق ، فاحتفظ بها وبالمدين الساحلية وبيت المقدس وبعليك صرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبين الى الداروم بالقرب من حدود مصر . وكان صلاح الدين قد أوصى بالسلطنة من بعده لابنه الأفضل بمعنى أن تكون له السلطة العليا في باقي أنحاء الدولة الايوبية .

أما الابن الثاني لصلاح الدين وهو العزيز عثمان ، فكان في مصر وقت وفاة أبيه ، لذلك فقد احتفظ بها . أما الابن الثالث وهو الظاهر غازي ، فقد أخذ حلب وشمال الشام . وكان صلاح الدين قد منح اخوه العادل بعض الاقطاعات الثلوية المنخرقة مثل الاردن والكرك الى جانب الجزيرة وديار بكر .

كان هؤلاء اهم الشخصيات بعد صلاح الدين أما باقي ابنائه واخوته فقد أخذوا اقطاعات صغيرة .

مايجبنا في هذا الصدد ان الملك الأفضل وهو الابن الأكبر لصلاح الدين لم يكن بالشخصية التي تصلح لأن تتولى السلطنة بعد والده صلاح الدين العظيم ، فقد كان الأفضل ضعيف الشخصية سيء السيرة والسلوك وقد احتجب عن الرعية ونفى وقته كله في شوب الخمر والاستماع الى الاغاني واللهو . وشتان بين شخصية صلاح الدين وشخصية ابنه الأفضل

وقد أبعد الأفضل رجال ابيه صلاح الدين من الامراء والوزراء . الذين ساءهم نصرفات الأفضل ، فلجأوا الى اخيه الملك العزيز عثمان حاكم مصر ، واخذوا يثيرونه على اخيه الافضل ، وكان ان استجاب لهم العزيز وخرج على رأس جيشه واتجه الى دمشق حيث فرض الحصار عليها . وقد لجأ الافضل الى عمه العادل يستنجد به ، وكانت هذه هي الفرصة التي انتظرها العادل ، ليتدخل في شئون ابناء صلاح الدين ويحركهم جميعاً لخدمة اغراضه الخاصة ، لاسيما وانه كما وصفه المؤرخون كان « ذا مكر شديد وخديعة ، صبوراً ذا أناة وتؤده » . وقد استجاب العادل لنداء الأفضل وجمع الامراء من بيت صلاح الدين ووقفوا جميعاً في وجه العزيز عثمان ، الذي ادرك تماماً أنه لا قبل له بمواجهة هؤلاء مجتمعين ، فاجتمع مع العادل بالقرب من دمشق وطيب العادل خاطره وزوجه من ابنته ، وعاد العزيز الى مصر .

على أن الافضل لم يرتدع ، وانما استمر في لومه وتشاغله عن الرعية وعن تصريف أمورها بنفسه بعد أن أوكل هذه المهمة لوزيره ضياء الدين ابن الاثير وهو شقيق المؤرخ المشهور . فعاد العزيز عثمان خروجه من مصر الى دمشق بغرض ضمها لممتلكاته وابعاد الأفضل ، وقد استنجد الافضل بعمه العادل للمرة الثانية ، فحرض امراء العزيز على تركه والعودة لمصر ، وهكذا انفض الامراء من حول العزيز الذي وجد نفسه وحيداً ، فاضطر للعودة الى مصر .

وقد خشي الأفضل ان يعاود اخيه الكرة ويحاربه من جديد ، فاتفق مع عمه العادل على أن يذهبا بجيوشهما الى مصر ويستوليا عليها وتكون من نصيب الأفضل على أن يعطى عمه العادل حكم دمشق . وبالفعل خرج الاثنان لتنفيذ الاتفاق السابق ودخلا الاراضي المصرية ونزلا على بليس محاصرين لها ، ولكن العادل خشي أن يأخذ الأفضل مصر ولا يعطيه دمشق ، فارسل سراً الى العزيز وطلب منه الثبات وتعهد له بأنه سيعمل على عودة الافضل لدمشق ، وقد كان فعاد الأفضل لدمشق دون ان يحقق أمله في الاستئثار بحكم مصر دون اخيه العزيز .

وهكذا أصبح العادل يمسك بالموقف كله بين يديه ، ويحرك الاخوة أبناء

صلاح الدين كيفما أراد . وحين تمادى الأفضل في طيشه ولهوه وضع الناس بالشكوى ، ذهب العادل الى العزيز في مصر واتفقا على خلع الأفضل والاستيلاء على ملكه بدمشق ، وقد خرج الاثنان في يونيو ١١٩٦ لتحقيق هذا الاتفاق ودخلا دمشق دون مقاومة تذكر وحل العادل محل الأفضل في حكم دمشق . على حين اخذ العزيز لقب السلطنة وظل يحكم مصر .

ولم يلبث العزيز عثمان ان توفي في نوفمبر ١١٩٨ ، وكان أكبر أبنائه لا يزال طفلاً صغيراً في العاشرة من عمره ، فأرسل فخر الدين جهار كس المسيطر على الأمور في مصر الى العادل يستدعيه ليسلم له مصر ، في حين ان المماليك الأسدية والصالحية خشوا قوة شخصية العادل واستبداده بالأمور ، ورأوا أن يسلموا مصر للأفضل ، وهو المعروف بضعف شخصيته وتشاغله باللهو ، حتى تناح لهم الفرصة ليفعل كل منهم ما يراه في ظل حكمه . وبالفعل وصل الأفضل الى مصر وتسلم مقاليد الأمور بها ، وقد أراد الأفضل الانتقام من عمه العادل ، فاتفق مع اخيه الملك الظاهر حاكم حلب لأخذ دمشق من عمهما العادل ، الذي كان غائباً عن دمشق يحاصر مارددين في ديار بكر . ولكن العادل حين علم بمؤامرة ابناء اخيه ضده عاد مسرعاً الى دمشق ودخلها قبل وصولهما اليها ، وأخذ يعد العدة للدفاع عن دمشق . وقد وصل الأفضل بجيوشه من مصر والظاهر بجيوشه من حلب ، وحاصرا دمشق لمدة ستة أشهر دون أن يقوموا بمحاولة جدية لاقتحامها . وقد استعمل العادل ذكائه ودهائه لبذر بذور الخلاف بين الأخوين ، الى جانب استمالته لامراء الأفضل والظاهر ، فانضموا الى جانب العادل ، وانفضوا عن الأفضل والظاهر . وانتهى الأمر برفعهما الحصار عن دمشق والعودة الى ديارهما .

وقد طارد العادل الأفضل حتى مصر وأوقع به هزيمة كبيرة بالقرب من بلبس ، ثم لحق به الى القاهرة واجبره على التخلي عن حكم مصر وتركها للعادل ، أما هو أى الأفضل فقد انسحب الى اقطاعه الصغير في حوران . وقد قام الأفضل بالاتفاق مع شقيقه الظاهر ، وتعاونوا معاً ضد العادل ، وحاصرا دمشق ، وقد خرج العادل من مصر على وجه السرعة ، حيث بذر

بذور الخلاف كعادته بين الشقيقين ، وكان من نتيجة ذلك ان رحل الظاهر الى حلب ، أما الأفضل فقد عاقبه العادل وسحب منه حوزان واقطعه سيمساط لاغير .

وهكذا دان للعادل ملك مصر ودمشق وبيت المقدس بفضل حيلته ودهائه ، وان كان صلاح الدين الايوبي قد خشي من طموح العادل وحاول ان يقضى على طموحه هذا باعطائه اقطاعاً ثانوياً لا يتناسب مع اطماعه ، الا أن العادل نجح عن طريق الصبر والمكر والخديعة ان يحقق اطماعه في ملك صلاح الدين ، وصفى له الجو بعد ان تخلص من الأفضل وخلصه الموت من العزيز عثمان .

وقد قسم العادل ملكه على ابنائه ، فاعطى الكامل حكم مصر ، والمعظم عيسى دمشق ، والاشراف موسى حران ، والأوحد ميفارقين ، أما العادل فكان له الاشراف العام والتام على جميع تلك الممالك .

واذا كان العادل قد نجح في توحيد مصر والشام مرة أخرى ، الا أنه وقع عليه عبء مواجهة الصليبيين ، وحماية الأراضي الاسلامية من غاراتهم عليها ، كما سنرى فيما بعد .

مملكة بيت المقدس الصليبية الأسمية :

رغم ان الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت في استرداد بيت المقدس من يد المسلمين ، الا أنها نجحت في استرداد الساحل القديم لمملكة بيت المقدس بما فيه حيفا وقيسارية وارسوف ويافا وعكا ، التي كانت أهم مدينة به ، وصارت قاعدة مملكة بيت المقدس في عهدها الجديد ، ورغم عدم وجود مدينة بيت المقدس نفسها في يد الصليبيين الا انهم أصرروا على استمرار احتفاظ المملكة باسمها القديم (مملكة بيت المقدس) . وهذا يدل على تصميمهم على استعادة مدينة بيت المقدس لحوزتهم من جديد .

وهكذا كانت الصفة البحرية هي الطابع المميز لهذه المملكة ، بعد أن فقدت كل ما كان لها من ممتلكات داخل فلسطين ، وأصبحت لاتضم سوى المدن الساحلية بما فيها صور ، وقد كان لذلك نتيجة حتمية هي اعتماد هذه المملكة على الغرب الاوروي وخاصة اساطيل المدن البحرية الايطالية أو الثلاثة الكبار كما كان يطلق عليهم في ذلك الحين وهم جنوا وبيزا والبندقية .

وكان أول من حكم هذه المملكة في عهدها الجديد هو هنري دى شامبني وهو ابن أخت الملك ريتشارد قلب الاسد ملك إنجلترا ، والزوج الثالث لايزابيلا وريثة مملكة بيت المقدس الصليبية ، والجدير بالذكر ان هنري دى شامبني لم يتوج ملكاً على تلك المملكة ، والسبب في ذلك غير معروف ، وربما رأى هو تأجيل هذا التتويج حتى استرداد بيت المقدس ويتوج بها ، وعلى أية حال فقد توفي هنري دى شامبني في ١٠ سبتمبر ١١٩٧ ، وجرى البحث عن زوج رابع لايزابيلا وكان أن تم الاتفاق على تزويجها من عموري لوزجنان ملك قبرص ، وهكذا تم توحيد عرش مملكة قبرص ومملكة بيت المقدس الصليبية . على أن هذا التوحيد لم يلبث أن انفصمت عراه ، بعد وفاة عموري لوزجنان ، وبذلك عاد عرش مملكة بيت المقدس الى صاحبه ايزابيلا ثم الى كبرى بناتها من هنري دى شامبني وتدعى ماري . ولما كانت ماري لاتزال صغيرة السن اذا كانت في الرابعة عشر من عمرها فقد وضعت تحت وصاية حنادى ابلين حاكم بيروت . وفي عام ١٢٠٨ بلغت ماري سن الرشد

وبدأت مشكلة البحث عن عريس مناسب ، ليس لها ، وإنما مناسب للمملكة ، أى تكون له من الخبرة والكفاية ما يمكنه من حماية مصالح الصليبيين بالشام ، وهو ما نطلق عليه اسم (الزواج السياسى) ، وقد تم عقد مجلس في عكا برئاسة البطريرك لبحث هذا الموضوع ، واجتمع رأى المجتمعين على الرجوع الى فيليب اوجسطس ملك فرنسا ليتولى اختيار الزوج المناسب . وللأسف فقد وقع اختيار فيليب على عجوز مفلس يدعى حنا دى برين وكان في الستين من عمره ليتزوج من ماري التي لم تبلغ العشرين بعد . ولكن ملك فرنسا وجد في حنا دى برين الصفات اللازمة للصليبيين بالشام . وفي سبتمبر ١٢١٠ وصل العريس المفلس الى عكا بعد أن زوده كل من البابا وملك فرنسا بمبلغ من المال ، وقد استقبله الصليبيون بجميع طوائفهم بالترحاب ، وتم زواجه من ماري وتزوج ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية في كاتدرائية صور في اوائل اكتوبر ١٢١٠ .

ولم يمتد العمر بماري مع هذا الكهل لأكثر من سنتين فتوفيت في عام ١٢١٢ ، حزينه على شبابها الضائع ، وبعد أن انجبت طفلة اسمها ايزابيلا أو يولاند . وهكذا اصبح حنا دى برين غير ذى صفة بالنسبة للصليبيين ، لانه تولى الحكم بصفته زوجاً للملكة صاحبة الحق الشرعى ، فلما ماتت فقد صفته هذه واصبح لا شئ . على انه تم الاتفاق سريعاً على ان يتولى حنا دى برين الوصاية على ابنته يولاند حتى تبلغ سن الرشد . وبذلك استمر حنا دى برين ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية ولكن بصفته وصى على ابنته يولاند صاحبة الحق الشرعى . وقد قام حنا دى برين هذا بدور كبير في الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، كما سنرى خلال عرضنا التالى للاحداث .

الفصل الرابع

الأيوبيون والحملة الصليبية الخامسة

لقد اجرت الصليبيون منذ أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين حقيقة هامة لا جدال فيها ، وهى أن الأيوبيين لم يستطيعوا أن يحرزوا انتصاراتهم على الصليبيين ويسترجعوا بيت المقدس من أيديهم إلا بعد سيطرتهم على مصر التى أصبحت على عهد الأيوبيين معقل الاسلام وحصنه المنيع ، ومصدر الامداد الوفير من الرجال والمال والميرة والسلاح ، وقد انحصر هدف الصليبيين منذ ذلك الحين فى ازالة قوة مصر والقضاء عليها حتى يمكنهم عن طريقها الوصول الى بيت المقدس ، وبمعنى آخر آمنوا ايمانا عميقاً بأن مفاتيح بيت المقدس موجودة بالقاهرة وأن عليهم الاستيلاء على مصر بوصفها الطريق الطبيعى الذى لا طريق بعده للوصول الى بيت المقدس . وقد اخذوا يشبهون مصر تشبيهات توضح بجلاء ايمانهم هذا ، فهم حيناً يشبهونها برأس الأفعى ، وانه اذا تم لهم القضاء على هذا الرأس ، فان الجسد كله سيهوى بين أيديهم ، ومرة أخرى بالقلب فى الجسد ، واذا توقف القلب انتهى أمر الجسد ، الى غير ذلك من التشبيهات العديدة التى امتلأت بها كتب دعاة الحروب الصليبية . أما المؤرخون المسلمون فقد ادركوا هم الآخرون هذه الحقيقة وفسروا فى ضوءها اتجاه الحملات الصليبية ضد مصر منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى . فيقول المؤرخ ابن واصل أن الصليبيين تشاوروا بخصوص اتجاه الحملة الصليبية الخامسة وان ذوى الراى منهم قد اشاروا بقصد مصر أولاً وقالوا : « ان الملك الناصر صلاح الدين انما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها ، فالمصلحة ان نقصد أولاً مصر ومملكها وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغمره من البلاد » .

وقد اثبت لهم تجاربهم السابقة والتى تمثلت فى الحملة الصليبية الثالثة عدم جدوى محاولة استرداد بيت المقدس عن طريق الشام لذلك فقد ارادوا وبصفة عملية ان يستردوا بيت المقدس عن طريق مصر ، وكان ذلك هدف الحملة الصليبية الرابعة ، ولكن هذه الحملة لاسباب معينة انخرقت وانجهدت ضد القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ م . واسقطت الحكم البيزنطى واقامت مملكة

لاتينية^(١) . وهكذا أصبح البابا اينوسنت الثالث بحجة أمل كبيرة بعد أن خرج من تجربة الحملة الصليبية الرابعة بحقيقة هامة هي ان الصليبيين بدأت تحركاتهم عوامل أخرى غير العامل الديني وان السيطرة على الحركة الصليبية آلت إلى أشخاص آخرين غير البابوية .

والواقع أن البابا اينوسنت الثالث يعتبر المسئول الأول عن الدعوة للحملة الصليبية الخامسة^(٢) ، لذا ينبغي الايمان بنبذه عن هذا البابا وجهوده في الدخول في الحملة الصليبية الجديدة .

يعتبر البابا اينوسنت الثالث واحد من ألمع البابوات الذين تولوا منصب البابوية في العصور الوسطى ، واسمه الحقيقي لوثر أوف سيجنى ، وهو ينتمي إلى عائلة رومانية عريقة هي عائلة كونتى سادة مقاطعة سيجنى ، وكان من السابعة والثلاثين من العمر حين تولى منصب البابوية . وقد درس اللاهوت في باريس على يد Peter of Grbeil وهو واحد من الرجال اللامعين في هذا العلم ، كما درس أيضاً القانون في بولونا على يد واحد من أشهر رجال القانون في إيطاليا وهو Uguccio of Ferrera .

وقد ظهر البابا اينوسنت الثالث في هذه الفترة ليسترد النفوذ السياسى للبابوية في إيطاليا وعبر جبال الألب ، وليحمى السلطة الكليركية من جور السلطة العلمانية ، وفي ظل هذا البابا نظمت الحياة الدينية في الغرب الأوروبي وادبرت بشكل لم يسبق له مثيل من قبل . وكان من رأيه ان البابا هو القاضي الأعلى في الشئون الدينية والديوية على حد سواء ، فهو يمثل القانون الجنائى في الامور المدنية ، كما يمثل القانون الكنسى في الامور الدينية . ولذلك أصبح البابا

(١) للمزيد من التفاصيل عن الحملة الصليبية الرابعة راجع :

اسمت غيم : الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية الحوافها ضد القسطنطينية ، دار المعارف ١٩٧٧

(٢) بخصوص الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، يمكن الرجوع لكتاب الأستاذ الدكتور سعيد سعيد عمران ، وهو دراسة تحليلية مركزة على المصادر الأصلية للحملة

انظر : محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٨

هو الفصل الاعلى للمجتمع المسيحى ، والمصدر الذى تنبع منه العدالة ، والمحكمة العليا التى يرفع اليها الناس شكواهم واصبحت روما على عهده المنجأ لكل صاحب شكوى مهما كان مصدرها .

أما الابرشية المقدسة لروما فهى من وجهة نظره « تجلس في مكان متوسط بين الله والبشر ، هى أدنى من الله ، ولكنها أعلى من البشر » .

وبناء على سلطة البابا المطلقة في كل شئ التى نادى بها اينوسنت الثالث كان أول بابا يدعى الحق المطلق في اتفاق ايرادات الكنيسة بالصورة التى يراها هو فقط وقد اصبح للبابوية على عهده موارد مالية ضخمة ، هى الضرائب التى اشترك في دفعها العالم المسيحى الغربى بوجه عام . وقد ارتبطت هذه الضرائب في تطورها بالحروب الصليبية ، بعد أن فرضها الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك إنجلترا على رعاياهم العلمانيين والاكليركيين من أجل الغرض الصليبي . وقد خطا البابا اينوسنت خطوة جديدة في هذا الشأن عندما أصدر أمراً سنة ١١٩٩ الى جميع الاساقفة بان يرسلوا الى البابوية جزءاً من اربعين ($\frac{1}{4}$) من دخل الاسقفية السنوى المتحصل من جميع ممتلكاتها واقطاعاتها هذا غير مجموع الضرائب الاخرى التى ظلت البابوية تجمعها عن طريق مباشر عند تعيين الاساقفة وغيرهم من كبار رجال الدين في مناصبهم ، أو عن طريق غير مباشر مثل بيع صكوك الغفران . ونتيجة لذلك اصبحت البابوية في القرن الثالث عشر تمتلك من الموارد المالية مايعادل دخل كل ملوك أوروبا مجتمعين .

وهكذا تمكن البابا اينوسنت الثالث من تحقيق كل ماكانت تصبو اليه البابوية من سمو في ضوء مبادئ جريجورى السابع والاسكندر الثالث ، وقد شبه البابوية بالشمس والامبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوءه من الشمس وبذلك عاد الى نعمة سيادة البابوية على الامبراطورية . وقد وضع البابا اينوسنت الثالث نصب عينيه نحو آثار الانتصارات التى حققها صلاح الدين على الصليبيين في الشرق ، تلك الانتصارات التى توجت بمعركة حطين في

١١٨٧ ، والعمل على إخراجهم من القدس ، في السطوع على حريق الاستيلاء أولاً على مصر . وبعد أن تم إخراجهم من مصر ، دعا في منتصف سنة ١١٩٨ إلى أن تكون الحملة الصليبية الثالثة ، التي عرفت باسم الحملة الصليبية الرابعة ، التي كان لها نفس الغرض ، أن تنهب إلى القسطنطينية بدلاً من مصر ، وأن تفرط طارئة على نفسها أنفسهم سواء في زارا أو في القسطنطينية بدلاً من طارية المسلمين ، على استرداد بيت المقدس من أيديهم . وهكذا أصبح بين البونست الثالث ، ومن بالدعوة لحملة صليبية جديدة يعرض بها القسطنطينية ، حتى بالطمع الثانية ، فكان أن دعا إلى الحملة الجديدة التي عرفت باسم الحملة الصليبية الرابعة .

وقد دعا البابا البونست الثالث إلى هذه الحملة الصليبية الجديدة في المؤتمر الديني الذي عقد في كنيسة لان ان في روما في ١١ نوفمبر ١٢١٥ ، بعد بدأ المؤتمر بالخطبة التي ألقاها البابا البونست الثالث والتي عمر فيها عمدا تقاضى مدينة بيت المقدس من أتباعه ، للامكان المسيحية المقدسة من جانب المسلمين ، وأشار إلى انه قد آن الآوان للقضاء على المسلمين وطالب الحاضرين - وكان المؤتمر يضم أعداداً كبيرة من رجال الدين فضلاً عن مندوبين للوك الثانية و إنجلترا وفرنسا وإسبانيا وهنغاريا والمملكة اللاتينية في القسطنطينية - طالب جميع هؤلاء ببذل المساعدة للبابوية لتمكين من القيام بهذا العمل المقدس .

ولقد سمح لمندوب مملكة بيت المقدس الصليبية الاسمية والتي كان على رأسها في ذلك الوقت حنا دى برين بالكلام في المؤتمر ، فأخذ يفيض في وصف الحالة السيئة التي وصل اليها الصليبيون في الشرق ، وتمت مناقشة عدة مشروعات لاستعادة بيت المقدس ، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن تكون مصر هي وجهة الحملة الصليبية الجديدة .

وقد تحدد يوم أول يونيو عام ١٢١٧ موعداً لاجتماع الحملة على أن يكون الاجتماع من أى مكان يقع على خليج مسينا .

وقد بدأ البابا حملة التبرعات للحملة بأن قدم ثلاثين ألف جنيه بالاضافة إلى ١٠ آلاف مارك فضة . وقد طالب البابا بأن يدفع رجال الدين ١/١٠ دخلهم ،

أما العلمانيون الذين لم يحملوا الصليب ولم يشتركوا في الحملة فعليهم أن يمدوا اخوانهم الصليبيين في الحملة بالمصاريف الضرورية لمدة ثلاث سنوات .

وقد بذل البابا اينوسنت امتيازات روحية هامة للمشاركين في هذه الحملة الصليبية الجديدة ، فقد منح البابا الغفران التام من الخطايا لكل من يقدمون سفنهم لحمل الصليبيين المشاركين في الحملة ، وكذلك لكل من يعملون في بناء هذه السفن أو يساهمون في نفقات الحملة . أما الذين سيشاركون في الحملة فقد تقرر إعفاؤهم من دفع الضرائب المقررة عليهم بمجرد حملهم الصليب ، ووضع املاكهم تحت حماية الكنيسة لحين عودتهم وتأجيل دفع ما عليهم من ديون ، وهذه الامتيازات تشبه الى حد كبير الامتيازات التي منحها البابا ايربان الثاني للمشاركين في الحملة الأولى .

هذا الى جانب القرارات الأخرى التي اتخذت بخصوص هذه الحملة من منع الاتجار مع المسلمين وتهديد من يخالف ذلك بمصادرة تجارته ، وقد اعطى الحق لمن يقبض على أى تاجر لاتينى يتعامل مع المسلمين ان يعامله معاملة الاسرى .

والمقصود من ذلك بطبيعة الحال منع تزويد المسلمين بالأخشاب والحديد اللازمة لهم والتي كان المسلمون يحتاجون اليها لبناء السفن . وكثيراً ما نادى البابوات بمثل هذا التحريم ، خاصة على المدن البحرية الايطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية ، ولكن جهود البابوات ذهبت ادراج الرياح لأن هذه المدن كانت لا تهتم بالصالح الصليبي قدر اهتمامها بمصالحها التجارية البحتة ، واذا تعارضت مصالحها المادية مع الصالح الصليبي ، قذفت بالصالح الصليبي عرض الحائط ، وليذهب هذا الصالح الصليبي الى الجحيم ، أما هي فلا تخسر تجارتها ، ويكفى أن نوضح في هذا المجال ان شعار البنادقة كان « نحن أولاً بنادقة ، وبعد ذلك مسيحيون » .

وقد انتشر الدعاة للحملة الصليبية الجديدة في انحاء الغرب الاوربي ، من أجل العمل على حشد أكبر عدد ممكن من النبلاء والفرسان والعامة ، للانخراط في سلك هذه الحملة الصليبية .

على أن الأجل لم يمتد بالبابا اينوسنت الثالث ليرى نتيجة جهوده في الحملة

الصلبية الخامسة ، فقد توفي في بروجيا في شمال إيطاليا في عام ١٢٣٥ . خلفه الكاردينال سنسيوس تحت اسم البابا هونوريوس الثالث . الذي أخذ من عاتقه أكمل العمل الصليبي الذي دعا اليه سلفه السابق البابا اندرس . الثالث .

وقد خرجت الحملة الصليبية الى بلاد الشام بعصها عن غير البحر بمساعدة سفن البندقية ، وقد قبض البنادقة ثمن نقل الصليبيين . سمي بذلك هذا الثمن هو تنازل ملك هنغاريا عن مدينة زارا على ساحل دالماتيا مقابل للبنادقة واطلاق حرية التجارة بين هنغاريا والبندقية . كفلت الاتفاق من أن يدفع الصليبيون مبلغاً من المال مقابل كل سفينة تمدهم ببحر البندقية .

أما الجزء الآخر فقد اتخذ طريق البر ، واجتمع الجميع في عكا . والقوات الصليبية تحت قيادة ملك هنغاريا ويدعى اندرو الثالث (١٢٣٥) .

وفي أثناء ذلك بلغت الانباء الملك العادل بنزول الصليبيين بالشام واستعدادهم لغزو بلاد المسلمين . فغادر مصر الى الشام ، وبعد عدة اشتباكات بين القوات الاسلامية والصليبية في الشام لم تسفر عن تحيين مكاسب هامة للصليبيين اعلن الملك اندرو عزمه على العودة لبلاده وقد هدده بطريق مملكة بيت المقدس الاسمية بتوقيع قرار الحرمان عليه اذا تخلى عن الصليبيين في هذا الوقت الحرج وقبل قيامهم بغزو مصر ، ولكن اندرو لم يعبأ بهذه التهديدات واتخذ طريقه من عكا الى ارمينيا وعاد الى بلاده في أوائل عام ١٢٢٢ .

وهكذا عاد قائد الحملة الملك الهنغارى الى بلاده ومعه عدد كبير من جنوده هنغاريين دون ان يشترك مع الصليبيين في عمل حاسم ضد المسلمين سواء في الشام أو في هجومهم المرتقب ضد مصر .

على ان الصليبيين بالشام لم يلبثوا ان عوضوا عن النقص الذي حدث في قوات الحملة عن طريق وصول أعداد كبيرة من المحاربين القادمين من أوروبا ، فقد وصلت اليهم قوات من الجنود الاسكندنافيين في أوائل مايو ١٢١٨ وصل

عددهم الى حوالى ثلاثين ألف مقاتل ، كما وصلتهم قوات أخرى تحت قيادة هنرى كونت هولندا . وهكذا تجمع بالشام أعداد كبيرة من القوات الصليبية المحاربة بالإضافة الى قوات الامارات الصليبية بالشام وعلى رأسها الفرسان الداوية والاستتارية .

وقد عقد ملك بيت المقدس حنا دى برين مجلساً لبحث الأمور الخاصة بالهجوم على مصر ، ومكان نزول القوات الصليبية المهاجمة وكيفية تزويدها بالموثون ، واعداد سفن النقل وغيرها من الأمور اللازمة لهذا العمل . وقد تقرر أن تكون مدينة دمياط هى المكان الذى ستبدأ الحملة بغزوه والاستيلاء عليه ، وقد تم اختيار مدينة دمياط بالذات لعدة أمور ، أولاً لقربها من مراكز الصليبيين في الشام وخاصة عكا ، كما أنها على حد تعبيرهم كانت قفل الديار المصرية وانه يمكن عن طريقها الوصول الى القاهرة العاصمة ، كما أنها إحدى ثلاث مدن هامة بمصر والمدينتان الاخرتان هما الاسكندرية والقاهرة ، وأن سقوط أى مدينة من هذه المدن الثلاث يعنى سقوط مصر كلها .

وكانت مدينة دمياط آنذاك تقع الى الشمال من دمياط الحالية ، وتبعد عن البحر الابيض المتوسط بحوالى ميلين ، أما بالنسبة لنهر النيل فقد كانت تقع على الضفة الشرقية لفرع دمياط . وهكذا أصبحت المدينة كشبه جزيرة يحدها البحر المتوسط شمالاً ونهر النيل غرباً وبحيرة تنيس شرقاً . ونظراً لأن المياه تحيط بدمياط من ثلاث جهات فقد كان ذلك مما يخدم الحملة عن طريق انتفاعها بالاسماك التى يمكن اصطيادها من مياه النيل أو البحيرة أو البحر المتوسط في امداد الحملة بالغذاء اللازم لها . وكذلك الاراضى الزراعية القريبة من دمياط كان مما يوفر للحملة الامداد من الخضروات والفاكهة . هذا الى جانب ان دمياط كانت ميناء بحرياً هاماً وكانت السفن التجارية القادمة من الهند تمر على ميناء دمياط وهى في طريقها الى سواحل الشام أو أوروبا وتدفع ضرائب المرور . ونظراً لأهمية موقع دمياط بالنسبة لباقي البلاد المصرية ، وتعرضها نتيجة لذلك للهجوم المستمر من جانب البيزنطيين والصليبيين ، لهذا كله فقد لقيت دمياط العناية من جانب الأيوبيين وعملوا على تحصينها ، وتقوية سورها

وحفر خندق يحيط بالمدينة . كما تم العمل على اعاقه أى سفن للعدو تحاول الدخول عن طريق النيل الى داخل البلاد المصرية ، وذلك عن طريق مد سلاسل من الحديد عظيمة القدر تمتد بعرض مجرى النيل . هذا بالإضافة الى برج السلسلة وهو حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية المدينة ودفع أى عدوان يقع عليها ، وكان يحرس هذا البرج رجال أشداء مزودون بالسلاح ، وكان البرج يتكون من عدة طوابق ويعتبر الطابق الذى في الوسط الطابق الرئيسى لهذا البرج . ويعلو البرج قبة ذات ثلاثة أقواس صغيرة .

وفي يوم ٢٤ مايو ١٢١٨ تحركت سفن الحملة الصليبية في طريقها الى دمياط على أن يلحق بها ملك بيت المقدس وهو حنا دى برين وقد وصلت هذه السفن الى دمياط في ٢٧ مايو ١٢١٨ وقد تمكن الصليبيون من النزول على الضفة الاخرى للنيل المقابلة لمدينة دمياط وكانت تعرف باسم جزيرة دمياط وقد نزلوا على هذا البر دون أن يجدوا أمامهم أية عوائق تعوقهم ، نظراً لأن الملك العادل الايوبي لم يكن يعتقد أن تكون دمياط هى هدف الحملة الصليبية الجديدة وبالتالي لم يتخذ أية اجراءات دفاعية ضد الصليبيين في هذه المنطقة . ولم يلبث الملك حنا دى برين ان لحق بالحملة التى عسكرت في منطقة جزيرة دمياط . وقد سارت الحملة سفنها في النيل وفرسانها على الشاطئ حتى وصلوا الى السلسلة التى وقفت حائلاً أمام تقدم سفنهم في النيل وبالتالي الوصول الى دمياط سواء من ناحية النيل أو من ناحية البر . لذلك كان عليهم أولاً وقبل كل شيء مهمة عبور هي تحطيم تلك السلسلة والاستيلاء على برج السلسلة .

ترك الصليبيين يحاولون التخلص من هذه العوائق ، وانتقل الى الجانب الاسلامي ممثلاً في أهالى دمياط وفي الايوبيين المسيطرين على مصر .

فيما يتعلق بأهالى دمياط فقد أخذوا يعدون أنفسهم لحصار طويل الأمد مما يدل على أنهم عزموا على الدفاع عن مدينتهم وعدم تسليمها للقوات الصليبية المهاجمة . فقام الاهالى بتخزين المؤن اللازمة ، كما أرسلوا الى الملك الكامل الموجود بالقاهرة نائباً عن والده الملك العادل واخبروه بنزول الصليبيين في جزيرة دمياط ، وقد غادر الكامل على الفور القاهرة واتخذ طريقه الى دمياط على

رأس جيشه وما انضم اليه من العربان ، وعسكر في جنوبي دمياط في مكان يعرف بالعادلية ، كما اتخذ الاسطول طريقه كذلك في مياه النيل الى دمياط واستقر في شارمساح (وهى قرية كبيرة بينها وبين دمياط حوالى ٣٨ كيلومتر) . وقد كان هدف الكامل في ذلك الوقت العمل على عدم تمكن الصليبيين من الاستيلاء على برج السلسلة وقطع السلسلة التى تمتد بعرض النيل .

أما بالنسبة للملك العادل الذى كان موجوداً آنذاك بالشام فقد أخذ يغير بالاستعانة بابنائه المعظم عيسى والاشرف موسى على املاك الصليبيين في الشام عله ينجح في شغل الصليبيين عن مصر .

وقد حدثت بعض الاشتباكات بين الصليبيين والمسلمين في مصر ولكنها لم تسفر عن نتائج فعالة ، وقام الصليبيون كذلك بالعديد من المحاولات لقطع السلسلة والاستيلاء على البرج ولكن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع وانزلت بهم خسائر جسيمة في الارواح نتيجة لاستبسال المدافعين المسلمين في حماية البرج والدفاع عن السلسلة .

وأخيراً وفي ٢٤ أغسطس ١٢١٨ نجح الصليبيون في اقتحام البرج وقتل من فيه والاستيلاء عليه وذلك بعد قتال دام حوالى الاربعة أشهر . وعن طريق استيلائهم على هذا البرج تمكنوا من تحطيم السلسلة وتسيير سفنهم في مجرى النيل .

وقد كان إستيلاء الصليبيين على البرج وقطع السلسلة بمثابة صدمة عنيفة اصابته الأهالى والايوبيين لدرجة أن الملك العادل حين علم بذلك دق يده على صدره في حسرة وألم ومرض من ساعته ولم يلبث أن توفى في ٣١ أغسطس ١٢١٨ ، ودفن في دمشق .

وقد استقر كل واحد من ابنائه في المملكة التى منحها أياها والده قبل وفاته ، فكان الكامل في مصر ، والمعظم عيسى في دمشق ، والاشرف موسى في حران ، والواحد في ميافارقين .

وكان ذلك من العوامل التي ساعدت على صمودهم في وجه الصليبيين ، لأنه لم تقم بينهم الخلافات التقليدية التي تحدث عادة بين الابناء على الميراث ، فاتفقوا واتحدوا معاً في مواجهة العدو الجاثم على قلب مصر وقتذاك .

وهكذا وقع على الملك الكامل بعد ان صارت مصر ملكاً خالصاً له بعد وفاة والده ، عبء مواجهة الصليبيين وابعادهم عن بلاده . وقد بذل كل جهده في محاولة عرقلة الصليبيين عن الوصول الى القاهرة عن طريق النيل ، فبنى جسراً عظيماً بعرض مجرى النيل وذلك عوضاً عن السلسلة التي حطمها الصليبيون ، ولكنهم نجحوا أيضاً في تحطيم الجسر ، عند ذلك لجأ الى حيلة أخرى وهي أن أغرق بعض السفن عمداً وأيضاً بعرض مجرى النيل حتى تعوق تقدم سفن الصليبيين ، وقد نجحت هذه الحيلة في تحقيق الهدف منها واعاقت سفن الصليبيين عن مواصلة السير في النيل في اتجاه القاهرة ، وكان ذلك مما أعطى للمسلمين فرصة السيطرة على مجرى النيل .

واذا كان الكثير من الصليبيين قد اعتقلوا بعد سقوط برج السلسلة في أيديهم وتحطيمهم للسلسلة انهم قد وفوا بقسمهم وقاموا بمهمتهم خير قيام وان البلاد المصرية لم تلبث ان تسقط في أيدي الصليبيين ، فان احلامهم هذه لم تتحقق وانما كان سقوط برج السلسلة في أيديهم بداية الكوارث التي حاقت بالحملة الصليبية الخامسة ، لأن كثيراً من الصليبيين قد غادروا الاراضي المصرية الى غرب أوروبا وتركوا اخوانهم أمام دمياط ، اعتقاداً منهم ان الأمر صار هيناً بسيطاً وان مصر ستسقط بأسرها في أيدي اخوانهم انه لا ضرورة اذن لتواجدهم . وقد كان ذلك مما عرقل نشاط باقي قوات الحملة الصليبية الخامسة وظلت قواتها في حالة جمود وركود في انتظار وصول امدادات جديدة تصلهم من الغرب الاوروى . وقد اعطت فترة الركود هذه الفرصة للايوبيين لتنظيم قواتهم والتقاط انفاسهم بعد كارثة سقوط برج السلسلة في أيدي الصليبيين . على أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً ، ذلك أن الامدادات العسكرية الصليبية لم تلبث أن وصلت الى جيزة دمياط باعداد كبيرة وكان على رأسها الكاردينال بلاجيوس وهو نائب البابا في الحملة . والواقع أن هذا

الذي سبب له حملة الكثير من المتاعب وسيكون من أهم أسباب
شتمه

ذلك ان بلاجيوس أصبح هناك صراعاً على السلطة بين
قائد الحب ، وكان ذلك الصراع بسبب ما اتصف به بلاجيوس
من التعصب العنصري والتعالي ، وقد أخذ يحقر من شأن حنا دي برين وأعلن
أن الصليبيين هم في لقاء الأول جنود الكنيسة ولذلك يجب عليهم ألا يخضعوا
لأي قائد عثماني . بل أن يخضعوا له فقط باعتباره مثلاً للبابا ونمواً عنه في
الحملة . وقد كسب بلاجيوس تأييد رجال الدين على حين قسم القادة
المسكرين إلى جانب حنا دي برين ، وهكذا لم يكد بلاجيوس يصل إلى جيزة
دمياط حتى بدأ يثير المشاكل ويذر بذور الانقسام في المعسكر الصليبي ، وكان
هذا الانقسام في صالح المسلمين بطبيعة الحال .

وقد جرت بعض الاشتباكات بين القوات الايوبية بقيادة الملك الكامل الذي
كان لا يزال معسكراً عند العادلية ، وبين الصليبيين ، تراوحت بين النصر والهزيمة
لكلا الطرفين .

على أن المعسكر الاسلامي لم يلبث هو الآخر ان تعرض لبعض
الاضطرابات ، ذلك ان الكامل تعرض لمؤامرة من بعض كبار امرائه وعلى
رأسهم عماد الدين بن المشطوب ، الذي أراد خلع الملك الكامل وتصيب
شقيقه الفائز بدلاً منه ، ولاشك في ان ابن المشطوب قد رغب في التخلص من
الكامل واستبداله بشقيقه الفائز لصغر سن الفائز ، وعدم خبرته بالأمور مما
يتيح لابن المشطوب السيطرة على الحكم في ظل الفائز الضعيف .

المهم أن اخبار هذه المؤامرة قد وصلت الى الكامل الذي تأكد منها حين
دخل على المتآمرين فوجدهم مجتمعين وهم يقسمون على مصحف معهم لأخيه
الفائز . ولم يستطع الكامل ان يفعل شيئاً تجاه هؤلاء المتآمرين لخرج مركزه ،
فهم من ناحية من كبار امرائه ولهم اتباعهم ، ومن السهل ان جاهرهم بالعداء
أن يسبوا له الكثير من المتاعب . ومن جهة أخرى أمامه الصليبيون متحفزون
للهجوم على معسكره بالعادلية . لذلك أصبح الكامل في موقف صعب . وقد

دفع خوف الكامل على حياته من هؤلاء المتآمرين ضده ، الى رحيله ليلاً من معسكر العادلية وسار الى قرية أشموم طناح (أشمون) ، وعندما أصبح الجند ولم يجدوا الكامل في خيمته بينهم ، ساد الذعر بينهم وتركوا أسلحتهم وامتعهم بمعسكر العادلية وولوا هارين في أثر الكامل ، وهكذا خلت العادلية من المسلمين وكان ذلك في ٥ فبراير ١٢١٩ .

ولم يخفى اخلاء معسكر المسلمين في العادلية على الصليبيين وقد ظنوا في بادئ الأمر انها خدعة لاستدراجهم الى كمين ، ولكنهم تأكدوا من حقيقة فرار المسلمين وتركهم المعسكر فاستولوا عليه ، وكان استيلائهم على معسكر العادلية خطوة هامة في صالحهم لانه اتيح لهم النزول الى الضفة الشرقية للنيل وبذلك تمكنوا من فرض الحصار على مدينة دمياط . وبذلك وقعت دمياط تحت وطأة الحصار البحري نتيجة لحصار سفن الصليبيين لها من ناحيتها الغربية المواجهة للنيل ، في حين حاصرتها قواتهم البرية من جهاتها الاخرى .

وقد ازداد الأمر سوءاً بالنسبة للملك العادل الايوبي ، نتيجة للكسب الذي احرزه الصليبيين من ناحية ولعدم استطاعته القضاء على ابن المشطوب وجماعته من ناحية اخرى لدرجة أنه أى الكامل فكر في مغادرة مصر وتركها للصليبيين والذهاب الى ابنه الملك المسعود الذى يحكم بلاد اليمن . ولكن الله سبحانه وتعالى لطف بالمسلمين ذلك ان الملك المعظم عيسى وصل الى أخيه الكامل عند اشموم طناح . وبعد أن علم بقصة المتآمرين تعهد لشقيقه الكامل لتخليصه من زعيمهم ابن المشطوب ، وعن طريق الخيلة ، نجح فعلاً في القبض عليه وإرساله الى الشام ، ثم ارسلوا اخيهم الفائز الى الموصل ، وتم لهم بذلك القضاء على هذه المؤامرة التى هددت المعسكر الاسلامى . وبدأ الكامل يستعد من جديد لمواجهة الصليبيين فانتقل من اشموم طناح الى فارسكور وفي نفس الوقت أخذ يطلب النجدة من العالم الاسلامى ، وقد وصلته بالفعل بعض المساعدات العسكرية ، وقد استغل الكامل المساعدات التى وصلته وشن عدة غارات على المعسكر الصليبي المحاصر لدمياط ، لكنه لم يستطع زحزحتها عن مكانها امام دمياط . وهنا حدث تحول في سياسة الكامل تجاه الصليبيين ففتح باب

تفاوضات بينه وبينهم لعلها تنجح في تحقيق ما عجزت القوة العسكرية عن تحقيقه ويتم جلاءهم عن الاراضى المصرية .

ولعل الاسباب التى دفعت الكامل لتحويله هذا ، تتعلق بادراك الكامل حقيقة قوة الصليبيين وكثرة اعدادهم ، خاصة ان الاخبار قد جاءت تؤكد ان الامراطور الالماني فردريك الثانى هو هشتافن يستعد للحاق بالصليبيين امام دمياط ، كذلك ادرك الكامل حقيقة قوته العسكرية وانها بأى حال لن تستطيع القضاء على الصليبيين خاصة وان حركة ابن المشطوب قد احدثت بلبلة بين صفوف قواته وكذلك اضطراب وفوضى . الى جانب الهجمات التى كان يشنها الأعراب على المعسكر الاسلامى في فارسكور حتى ان المؤرخ ابن الأثير يقول بان هؤلاء الأعراب كانوا أشد على المسلمين من الصليبيين أنفسهم . بعد أن نهروا وأفسدوا وبالقوا في الفساد في البلاد المجاورة لدمياط . هذا كله بالإضافة الى انتشار الاخبار عن عزم التار على فتح المشرق الاسلامى وكان لما لاشتهر على أحد أعمال النصف المحمية التى تتصف بها غارات التار .

لذلك كله فقد فضل الملك الكامل ان يتفاوض مع الصليبيين عله ينجح في ابعادهم عن بلاده سلمياً . وقد عرض الكامل على الصليبيين عرضاً سخياً للغاية مضمونه ان يتنازل لهم عن جميع الاراضى التى كانت تابعة لهم قبل معركة حطين في ١١٨٧ وماتلاها من فتوحات قام بها صلاح الدين فيما عدا قلعتى الشوبك والكرك ، وعقد هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثلاثين سنة وذلك مقابل الجلاء عن دمياط .

وقد تشاور الصليبيون بخصوص هذا العرض وقبله حنا دى برين وأيده الفريق العسكرى في الحملة ، ولكن المندوب البابوى بلاجيوس رفض ذلك العرض واتخذ جانبه في هذا الرفض شيعته من رجال الدين وفرسان الداوية والاستتارية ، وقد طالب الفريق الاخير بكافة ممتلكات مملكة بيت المقدس الصليبية بما فيها الكرك والشوبك . فرفض الكامل تحقيق ذلك .

وقد قام الصليبيون بهجوم على معسكر الكامل في فارسكور ، ووقعوا في كمين أعده الملك الكامل ، وكانت النتيجة أن ألحق المسلمون بالصليبيين هزيمة

كبيرة وقتلوا منهم ما يقرب من أربعة آلاف جندي . وعقب هذا الانتصار الذي احرزه المسلمون عاود الملك الكامل عرض الصلح مرة أخرى على الصليبيين ولكنهم رفضوه ، فعادوا العرض للمرة الثالثة وابدى استعدادهم لتعويضهم مالياً عن قلعتي الكرك والشوبك ، واعادة صليب الصلبوت وكذلك اطلاق سراح جميع الاسرى الصليبيين ، وقد تكرر ماسبق فوافق الملك حنا دى برين على هذا العرض ، في حين رفض المنسوب البابوي بلاجيوس وشيعته ، وعلنوا ان انسحابهم من أمام دمياط سيصبح عاراً على كل صليبي وانه لا بد من استعادة مملكة بيت المقدس بحمد السيف .

وقد زادت نتيجة لذلك حدة الخلاف بين الملك حنا دى برين والمنسوب البابوي بلاجيوس ، خاصة بعد ان تمادى بلاجيوس في تجاهل سلطة حنا دى برين وادعى لنفسه الحق كل الحق في تصريف شئون الحملة الصليبية وحده ، وكان لذلك آثاره السيئة على الجانب الصليبي كما سئرى من خلال عرضنا المقبل للاحداث .

اشتد حصار الصليبيين لمدينة دمياط ، وكان من الطبيعي ان تحدث مجاعة داخل البلد بعد أن تعسر وصول الامدادات اليها ، ولم يترك الكامل وسيلة أو حيلة للاتصال بأهالى دمياط وتهريب المؤن اليهم الا واستعملها ، ولكن وباء الطاعون انتشر بين أهاليها وافنى الكثيرين منهم ، لدرجة ان عدد سكانها عند بداية الحصار كان ستون ألف نسمة ، ولم يتبق منهم عند سقوطها في يد الصليبيين سوى ثلاثة آلاف نسمة .

وقد استغل الصليبيون هذه الظروف داخل المدينة وقاموا بهجوم مكثف عليها استعملوا فيه السلام المتحركة والكتل الخشبية ليعبروا الخندق المقام حولها ، ووصلوا الى السور واعتلوه فاصيب الاهالى بالذعر ولم يستطيعوا المقاومة لقلة عددهم ومعاناتهم من طول الحصار . ويقال ان سقوط المدينة كان على مرأى من الملك الكامل الذى لم يكن باستطاعته أن يفعل شئ سوى أن يبكى بشدة هو وشقيقه المعظم ، وكان استيلاء الصليبيين على دمياط الباسلة يوم الثلاثاء الموافق ٥ نوفمبر ١٢١٩ أى بعد حصار استمر تسعة أشهر .

وقد كان حال الاهالى بالداخل يرثى له فمعظمهم قد شفى سحتفه بعد أن نفشى مرض الطاعون بينهم ولم تكن جثث الموتى تملأ الشوارع فقط بل كانت في كل مكان بالمنازل وفوق الأسرة ، وقد وجد الصليبيون الاطفال الجوع داخل المدينة وهم يبكون ويطلبون الطعام من ابائهم وأمهاتهم الاموات . ورغم هذا فلم ترق لهم قلوب هؤلاء الطغاة وانما أعملوا القتل والأسر في كل من صادفوه من البقية الباقية من أهالى هذه المدينة الباسلة ، كما حولوا جاسمها الى كنيسة .

تقدم القوات الصليبية نحو القاهرة وهزيمة الحملة :

اشتد النزاع بين الصليبيين حول ملكية مدينة دمياط ، فان ملك بيت المقدس حنا دى برين كان يرى ان دمياط قد اصبحت جزء من مملكة بيت المقدس الصليبية ، في حين كان رأى بلاجيوس ان المدينة يجب أن تخضع للكنيسة ، وباعتباره ممثلاً للكنيسة ونائباً عن البابا في الحملة ، لذلك يجب ان تخضع المدينة لسلطته . أما الخلاف الثانى فكان حول تقسيم الغنائم على القوات الصليبية لأن الجنود الايطاليين لم يقنعوا بما منحوه لهم من غنائم وطالبوا بالمزيد وشهروا سيوفهم في وجه باقى العناصر المشتركة في الحملة وعلى الاخص الجنود الفرنسيين . أما المشكلة الثالثة التى واجهت الصليبيين فكانت خاصة بتقدمهم نحو القاهرة ، لأن المندوب البابوي بلاجيوس صمم على ضرورة الزحف مباشرة ومطاردة الايوبيين في حين رأى حنا دى برين انه من الواجب زيادة تحصينات مدينة دمياط ومنح الصليبيين قسماً من الراحة بعد كل ماعانوه في الشهور الماضية وقبل سقوط دمياط في أيديهم . وهكذا اشتد الخلاف بين الصليبيين . أما بالنسبة للمشكلة الاولى فتم حلها حين تم عرضها على البابا هونوريوس الثالث وجاء رده بأن تكون دمياط جزءاً من مملكة بيت المقدس وبالتالي تسليمها لحنا دى برين . وأما المشكلة الثانية فتم حلها أيضاً عن طريق إعادة تقسيم الغنائم واعطاء الايطاليون المزيد منها وبذلك عاد الوئام بين عناصر الحملة . أما المشكلة الثالثة فقد كسبها حنا دى برين أيضاً حين تغلب على رأى بلاجيوس . وبطبيعة الحال لم يصر بلاجيوس لحنا دى برين كل ذلك وانما ظل

يتحين الفرص للحط من أرائه وادعاء سلطات لم يخولها له البابا وحاول باستمرار الجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية في الحملة . وقد استاء الملك حنا دى برين من ذلك وانتحل بعض الأعذار وأهمها هجوم المسلمين على الممتلكات الصليبية في الشام وضرورة تواجده هناك ، وغادر دمياط عائداً الى عكا في أواخر مارس ١٢٢٠ .

وهكذا خلا الجو لبلاجيوس ، فأخذ يتصرف في شئون الحملة بمفرده ، وأصدر أوامر مشددة للحد من النشاط البحرى للصليبيين بين دمياط وعكا ، وقد أعطى ذلك الفرصة لسيطرة المسلمين على مياه البحر بين دمياط وعكا وقطع الطريق على السفن الصليبية .

وقد وصلت بعض القوات الصليبية على رأسها دوق بافاريا فتشجع بلاجيوس وقرر في أواخر يونيو ١٢٢١ الزحف على القاهرة ، وأرسل الى الملك حنا دى برين في عكا يطلب منه الحضور للمشاركة في هذا العمل العسكرى . وقد رفض الملك في بادىء الأمر العودة الى دمياط ، ولكنه خشى تعرضه لغضب البابا والصليبيين عامة واتهامه بعرقلة جهودهم العسكرية ضد المسلمين ، ولذلك عاد من جديد الى دمياط في الوقت الذى كان الصليبيون قد بدأوا يتقدمون فعلاً بجذاء النيل نحو القاهرة .

أما عن الملك الكامل ، فكان قد نقل معسكره من فارسكور الى المنطقة المقابلة لطلخا وأقام معسكره هناك وأطلق عليها اسم (المنصورة) . وقد جاءت اليه الامدادات العسكرية من كل مكان كما وصل اليه أخويه المعظم والأشرف ، وهكذا اجتمع الأخوة الثلاثة الكامل والمعظم والأشرف في المعسكر في المنصورة لوضع الخطط لمواجهة الصليبيين . وقد عرض الكامل على الصليبيين للمرة الأخيرة الصلح على الشروط التى سبق أن عرضها عليهم ، ولكنهم أبوا وتكبروا وأصرروا على تسليم الكرك والشوبك مع دفع غرامة قدرها خمسمائة ألف دينار ليعمروا بها ماخربه المسلمون من بلادهم . وقد تقدم الفرنج على الشاطئ الشرقى للنيل وبجوارهم سفنهم تسير في النيل ، وكان وقت تقدمهم في أوائل اغسطس ١٢٢١ ، والمعروف ان ذلك هو الوقت الذى

يكون فيه فيضان النيل في أعلى مستوى له وذلك يدل على جهل تام من جانب الصليبيين بطبيعة أرض مصر وأمر نيلها .

وقد ارسل الكامل بعض السفن عن طريق فرع رشيد ودخلت الى فرع دمياط عن طريق البحر واصبحت خلف سفن الصليبيين وبذلك حالت بينهم وبين الاتصال بقاعدتهم في دمياط عن طريق النيل . كما أنزل الكامل عند شارمساح (شمالى شربين) ألفى فارس مع الآف من العربان ليحولوا بين الصليبيين وبين اتصالهم بدمياط عن طريق البر .

وعندما وصل الصليبيون الى المنطقة المعروفة باسم رأس الجزيرة وهى نقطة تفرع البحر الصغير (بحر اشموم) من فرع دمياط وهى عبارة عن مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات فرع دمياط من جهة والبحر الصغير من جهة وبحيرة المنزلة من جهة ثالثة . عند وصولهم الى هذا المكان أمر الكامل بقطع السدود وفتح الترع عليهم من جميع الجهات ، فلم يدرى الصليبيون إلا والمياه تحيط بهم من كل جانب وقد غرقوا في الطين حتى بلغ ركبهم . ولم يعد امامهم الا شريط ضيق جداً يستطيعون العودة عن طريقه الى دمياط . ولكن الكامل كان قد أنزل به الاعراب والفرسان كما سبقت الاشارة ، ليحول بينهم وبين العودة الى دمياط .

وهكذا اصبح الموقف عسير جداً على الصليبيين ، بعد أن أصبحوا محصورين في هذه المنطقة فلا هم يستطيعون التقدم خطوة واحدة نحو القاهرة ، ولا هم يستطيعون العودة الى دمياط ، ولا هم بإمكانهم القتال في هذا المكان الموحد ، ولا شك أن ذلك كله يرجع الى الخطة التى وضعها الايوبيون وعلى رأسهم الملك الكامل واستغلالهم لفيضان النيل ودرايتهم التامة بطبيعة أرض مصر واختيارهم المكان المناسب لحصر الصليبيين وفتح السدود والقنوات عليهم واغراقهم في المياه على هذا النحو . وبذلك أثبتوا تفوقهم الفكرى والعسكرى على الصليبيين الغربيين .

وقد ادرك الصليبيون أنهم هالكون لا محالة ، وفي محاولة لانقاذ أنفسهم أرسلوا على وجه السرعة الى الملك الكامل الايوبي يعرضون عليه الصلح

واستعدادهم للجلاء عن دمياط وتسليمها له والخروج كلية من مصر ، وبدون أية مقابل سوى انقاذهم من هذا الموقف الذى اصبحوا فيه .

وقد اراد المعظم والاشرف ان يستغلا هذه الورطة التى وقع فيها الصليبيون للقضاء عليهم ، ولكن الكامل رفض ذلك وقبل العرض الذى عرضه عليه الصليبيون . واشترط الكامل على الصليبيين ان يرسلوا اليه رهائن من ملوكهم وأكبر الشخصيات لديهم ، فوافقوا وارسلوا اليه الملك حنا دى برين شخصياً والمندوب البابوى بلاجيوس . ومجموعة من كبار امرائهم بلغوا العشرين . وقد أكرمهم الكامل كعادة المسلمين دائماً وبقوا لديه حتى تم تسليم الصليبيين لدمياط في ٧ سبتمبر ١٢٢١ . وقد دخلها الملك الكامل في اليوم التالى مباشرة ، وابرم اتفاقية مع الصليبيين مدتها ثمان سنوات ١٢٢١ - ١٢٢٩ نصت على اطلاق كل فريق ماعنده من الاسرى . وقد اجر الصليبيون الغربيون الى أوروبا أما الملك حنا دى برين فقد عاد هو ورجاله الى الشام يجرون أذيال الخيبة والفشل ، وقد شبههم أحد المؤرخين المسلمين بالنعامة التى خرجت تبغى أن تطيل ذيلها ، فعادت بلا ذيل على الاطلاق .

وهكذا تم للايوبيين القضاء على الحملة الصليبية الخامسة نتيجة لتعاونهم وخطتهم المحكمة ، في حين أضع الصليبيون جهودهم كلها والانتصارات المبدئية التى احرزوها نتيجة لخلافاتهم المستمرة وعلى وجه الخصوص الخلاف بين بلاجيوس مندوب البابا والملك حنا دى برين . ومن أسباب الهزيمة كذلك جهل الصليبيين التام بطبيعة البلاد المصرية وميعاد فيضان النيل وهذا ماسيحاول تداركه لويس التاسع في حملته الصليبية المعروفة بالحملة الصليبية السابعة ، ولكن ورغم ذلك ستفشل هى الاخرى لاسباب سيتم شرحها فيما بعد وعند تناولنا لهذه الحملة .

الفصل الخامس

بيت المقدس

بين السلطان الكامل والامبراطور فريدريك الثانى

نقد كان الارتباط الذي تم بين أبناء الملك الطاهر غضب وفتنه أحد الأسباب الهامة في القضاء على الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، على أن هذا الارتباط لم يلبث أن انفصلت عراه في نهاية سنة ١٢٢٣ وبداية سنة ١٢٢٤ ، واشتعل الصراع بين الأخوة الثلاثة الكامل والمعظم عيسى والأشرف موسى .

ذلك أن المعظم عيسى قد طمع في أملاك ابن عمه ويدعى الناصر صلاح الدين قليج أرسلان الذي كانت له حماه واعمالها ، فهاجم المعظم حماه واستولى على بعض اعمالها مثل المعرة وسلمية .

على أن الملك الكامل وأخيه الأشرف موسى لم يوافقا أخيهما على تصرفاته تلك ، وكان ذلك مما أثار الخلاف بين الأشقاء الثلاثة الكامل والأشرف من ناحية والمعظم عيسى من ناحية أخرى ، خاصة بعد أن أرسل شقيقه الكامل يأمره برد ما استولى عليه من ابن عمهما ، وقد نفذ المعظم رغبة أخيه الكامل وانصرف عن حماه وهو حائق ومتذمر .

على أن الظروف لم تلبث أن اضطرت الأشرف الى أن يلجأ لأخيه المعظم عيسى طالباً منه المساعدة العسكرية من أجل مواجهة خطر الخوارزمية الذين أخذوا يهددون أراضيهم في الجزيرة وخلاط . ذلك أن ملك التتار جنكيز خان كان قد دمر دولة الأتراك الخوارزمية في ١٢٢٠ - ١٢٢٢ ، وقد فر ملك الخوارزمية جلال الدين منكبرتي الى الهند ، وحين علم بعودة جنكيزخان الى بلاده في جوف آسيا ، عاد جلال الدين منكبرتي الى فارس وأتف حوله الأتراك الخوارزمية من جديد ، ونجح في أحياء دولته مرة أخرى واتخذ من أصفهان عاصمة له . وبدلاً من أن يعمل جلال الدين منكبرتي على توحيد جهود العالم الاسلامي والوقوف في وجه التتار الوثنيين ، أخذ في مهاجمة والاعتداء على أراضي الخليفة العباسي وطارد جيوشه حتى قرب بغداد سنة ١٢٢٥ . ثم أخذ جلال الدين يهاجم إقليم جورجيا القريب من أملاك الأشرف موسى في أعالي الجزيرة ، مما دفع الأشرف الى أن يلتمس المعونة العسكرية من جانب أخيه المعظم عيسى .

وقد انتهز المعظم عيسى هذه الفرصة وقبض على أخيه الأشرف موسى ، واجبره على أن يقسم له أن يتعاونوا معاً في الاستيلاء على حماه وحمص ، ثم

مهاجمة شقيقهما الكامل في مصر .

على أنه ماكاد الأشرف موسى يفلت من يد شقيقه المعظم عيسى حتى رجع عن جميع ماتعهد له به ، متذرعاً بأنه أكره على القسم ، وقد اخبر الملك الكامل بكل ماحدث وأكد له أطماع أخيه المعظم عيسى في ملكه بمصر .

على أن خطورة هذا الصراع كانت تكمن في التجاء كل من الطرفين المتنازعين الى الاستعانة بالقوى الخارجية ، فلجأ المعظم عيسى الى جلال الدين منكبرتي واتفق معه ضد شقيقه الاشرف والكامل .

أما الملك الكامل فقد أرسل الامبراطور الالماني فردريك الثاني هوهنشتاوفن ، وأرسل له مبعوثاً من طرفه هو الامير فخر الدين يوسف ، وتعهد الكامل للامبراطور فردريك بأنه اذا بذل له المساعدة العسكرية ضد أخيه المعظم عيسى ، فان الكامل سيعطيه بيت المقدس وجميع فتوحات صلاح الدين الايوبي بالساحل الشامي .

وقد استجاب السلطان جلال الدين منكبرتي لنداء المعظم عيسى وارسل له خلعة ، لبسها وسار بها في شوارع دمشق وقطع الخطبة لآخيه الكامل ، ولم يسكت الكامل عن هذا فأخذ يستعد للخروج الى الشام لتأديب شقيقه المعظم عيسى .

أما عن الامبراطور فردريك هوهنشتاوفن ، فقد رحب هو الآخر برسول الكامل وتشجع فردريك على الخروج الى الشام ، ورد على سفارة الكامل اليه ، بسفارة مماثلة وارسل للكامل تحفاً وهدايا غريبة ، وقد استقبل الكامل رسول الامبراطور بالحفاوة البالغة وأكرمه كريماً زائداً ، وحمله هدايا نفيسة الى الامبراطور فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم على حد تعبير المؤرخ المقریزی .

وهكذا هيا هذا الخلاف والصراع الذي اشتعل بين الاخوة ابناء العادل الفرصة للامبراطور فردريك الثاني لتحقيق رغبة البابوية والخروج الى المشرق الاسلامي في حملة صليبية جديدة هي الحملة التي عرفت باسم الحملة الصليبية السادسة .

الحملة الصليبية السادسة .

لقد كانت هذه الحملة من أغرب الاحداث في تاريخ الحروب الصليبية ذلك ان الامبراطور الالماني فردريك الثانى هو هشتافن الذى خرج على رأس تلك الحملة قد تعرض لمواقف صعبة خلقتها له البابوية ، في محاولات دائمة ومستمرة من جانبها لحثه على القيام بهذه الحملة الصليبية ضد المسلمين . وقد استطاع الامبراطور فردريك الثانى أن يسترد مدينة بيت المقدس دون أن يريق دماء جندياً واحداً من جنوده ، وكان استعادة تلك المدينة هي حلم البابوية منذ أن استردها صلاح الدين عقب معركة حطين في ١١٨٧ ، وكان استرداد هذه المدينة من يد المسلمين هو هدف الحملة الصليبية الثالثة التى خرج على رأسها أكبر ملوك في العرب الاوروى ، ورغم ما سأل من دماء المسيحيين والمسلمين خلال تلك الحملة ورغم مفاوضات ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا مع صلاح الدين من أجل الحصول على بيت المقدس ، الا أن هذه الجهود كلها العسكرية والسلمية فشلت في استعادة هذه المدينة من يد المسلمين . ورغم أن فردريك الثانى قد نجح في استعادتها الا أن جهوده هذه لم تقابل بالاستحسان أو الشاء لا من جانب البابا ولا من جانب المسيحيين عامة . ولنتناول الموضوع مستعرضين احداث الحملة الصليبية السادسة من البداية .

لقد كانت هذه الحملة الصليبية السادسة ، فريدة من نوعها ، فهي من دون الحملات الصليبية التى لم تباركها البابوية ، بل صبت عليها لعنتها ، وهى الوحيدة من بين الحملات الصليبية التى جرى توجيهها دون أن تقوم بأى عمل عدائى ضد المسلمين . والواقع أن ذلك كله يرجع الى شخصية فردريك الثانى هو هشتافن الذى كان شيئاً فريداً من نوعه ، بل لقد اطلق عليه معاصروه اسم (اعجوبة الدنيا) .

فقد ولد فردريك من أب ألماني هو هنرى السادس ملك ألمانيا وأم نصف ايطالية ونشأ وترى في صقلية على مقربة من المؤثرات الاسلامية والبيزنطية ، فنشأ فيلسوفاً محباً للجدل والرياضيات ، وأحاد ست لغات من بينها اللغة العربية ، وعظم الشعر ، وأغدق من ماله وعنايته لتشجيع العمارة والنحت . تعلم ، وهو الى جانب ذلك حنّى ناع ، وسيى حق الى أقصى درجات

اللباقة ، مع الحرأة التي لا حسي سيند . و سرعه الفكرية الحاجة الى ميادين
لفلسفة والفنك . هندسه و حبر و نص . البرج . وألف فردريك في البيرة
(علم تربية الطيور الجوارح وتدريبها على الصيد والقص) كتاباً يعتبر أصلاً
من أصول العلوم التجريبية في غرب أوروبا . واصطحب في أسفاره مجموعة
من الفيلة والهجائن وعجائب المناطق الاستوائية الحارة من أنواع الحيوان . ولم
تكن التقاليد المسيحية التي التزمها الناس في ذلك العصر مما يأبه له فردريك
الثاني . وفي الوقت الذي كان للبابا في الغرب الاوروي المكانة الرفيعة السامية
باعتباره خليفة القديس بطرس ، نجد فردريك ينعت بالدجال ، فيروى أن
الامبراطور فردريك قد سأل أحد المسلمين عن الخليفة وماهية الخلافة ، فأجابه
بان الخليفة ينحدر من نسل الرسول محمد ﷺ وانه ورث عنه حقوقه في حكم
المسلمين . وعندئذ رد عليه فردريك قائلاً ان ذلك هو المنطق السليم ، لا مثل
البابا الدجال الذي لا تربطه صلة قرنى بالمسيح ومع ذلك يدعى الحق المطلق في
حكم المسيحيين .

وقد عرف عن فردريك الثاني حبه للمسلمين الذين شأ بهم في صقلية ، وقد
دفع ذلك بعض الكتاب الى اتهام فردريك بمحاباة الاسلام على حساب
المسيحية ، في حين ذهب البعض الآخر مثل فواتير ومونتسكيو ، الى القول بان
كراهية فردريك الثاني للبابوية والكنيسة الغربية هي التي دفعته الى حب
الاسلام والمسلمين .

وعلى الرغم من أن فردريك الثاني قد بدأ حياته السياسية بتحالفه مع البابوية
وهو التحالف الذي أفاده الى حد كبير ضد خصومه ومنافسيه في ألمانيا ، الا أن
الامور لم تلبث أن تعقدت بين الطرفين ، بعد أن تأكدت البابوية ان فردريك
غير قانع بصقلية وجنوب ايطاليا ، وانما أخذ يعمل على توطيد نفوذه في شمال
ايطاليا ، أى في إقليم لمبارديا ، وانه اتخذ ايطاليا وصقلية مسرحاً أساسياً لجهوده
والتمكن لنفسه حقيقة ان فردريك قد حرص آنذاك على احترام مركز البابوية
في ايطاليا ، ولكن سيطرته على جنوب ايطاليا وشمالها كان نديراً بوقوع الاملاك
لبابوية في وسط ايطاليا بين فكى الكماشة ، مما جعل البابا يرتاب في سياسة

فردريك وينظر اليها بعين ملؤها الشك والخوف .

وفي سنة ١٢١٥ أقسم فردريك للبابا اينوسنت الثالث ان يقوم بحملة صليبية ضد المسلمين ، ولما كان فردريك الثانى يميل للمسلمين ويعطيهم حقهم من الاحترام والتقدير ، لذلك لم يجد الدافع الذى يدفعه للخروج من بلاده على رأس حملة صليبية ضدهم ، ومن ثمة فقد أخذ يعتذر للبابا مرة بعد مرة ، والبابا يقبل عذره ، وبعدما أصاب الحملة الصليبية الخامسة من الفشل ، حاول البابا هونوريوس الثالث ان يوجد الدافع لدى فردريك للخروج في حملة صليبية ضد المسلمين ، وان يزيد في توطيد صلة فردريك بالاراضى المقدسة في فلسطين ، فرتب البابا زواج فردريك من يولاند ابنة حنا دى برين ، وورثة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ، واشترط البابا ان يتم الزواج في الشام ، وقد نفذ فردريك رغبة البابا وتم زواجه من يولاند ، ولكن بدلاً من أن يذهب فردريك الى الشام ويتم الزواج هناك ، استدعى عروسه الى صقلية . وعقب هذا الزواج اتخذ فردريك لقب ملك بيت المقدس باعتباره من حقوق زوجته .

وعلى الرغم من أن البابا جرينجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) كان طاعناً في السن ، الا انه امتاز بارادة حديدية لا تقبل فلم يقبل الاعذار التى دأب فردريك الثانى على ابتكارها من أجل تأجيل حملته الصليبية ، واصر على ضرورة رحيل الامبراطور الى الشرق فوراً ، والا تعرض لعقوبة الحرمان . ولم يجد الامبراطور فردريك الثانى مفرأ من الخروج في خريف سنة ١٢٢٧ قاصداً بلاد الشام . خصوصاً بعد ان اتصل به الملك الكامل الايوبي وارسل له سفارة على النحو الذى سبق توضيحه ، ووعدته بتسليمه مدينة بيت المقدس مقابل بذل المساعدة العسكرية له ضد شقيقه المعظم عيسى . وبذلك أوجد للامبراطور الدافع الذى يخرج من أجل تحقيقه وفي نفس الوقت لا يتعارض مع ما يشعر به من محبة وود نحو المسلمين . فهو لا يخرج راء لهم ، وانما كصديق وحليف للمسلطان الملك الكامل الايوبي .

على ان الامبراطور ماكاد يبحر من برنديزى ، حتى خر . أيضاً ، نتيجة الحمى التى تفشت فترة من الزمن في صفوف جيشه أثناء انتظارهم عبور البحر

الى بلاد الشام . وكان من نتيجة ذلك ان عاد فردريك الى اوترانتو حتى يستعيد صحته . لكن البابا جريجورى التاسع اعتقد ان فردريك عاد من جديد الى التسويف والتأجيل ، واعتبر مرضه تمارضاً واصدر ضده قرار الحرمان بالفعل .

ورغم ذلك فان فردريك قد خرج على رأس حملته الصليبية في صيف عام ١٢٢٨ ، فعرض بذلك على اوروبا التي استبدت بها الدهشة ، صورة محارب قطعته الكنيسة ، خلف وراءه املاكه التي تعرضت لغزو جند البابا الذين أعلن البابا جريجورى التاسع اعتبارهم محاربين صليبيين يقاتلون ملكاً غير مسيحي . ومن أجل ذلك جبي ضريبة العشر من سائر كنائس أوروبا . والواقع ان ما اشتهرت به حملة فردريك من التناقض كان موضع الدهشة ، اذ أننا ازاء محارب صليبي ، تقرر اعلان الحرب الصليبية على املاكه ومهما يكن فحين وصول الامبراطور فردريك الثانى الى عكا في سبتمبر ١٢٢٨ ، كان الموقف بين أفراد البيت الايوبي قد تغير . ذلك أن المعظم عيسى كان قد توفى في نوفمبر ١٢٢٧ ، وخلفه ابنه الناصر داود ، وهو شاب صغير السن في العشرين من عمره ليست له خبرة ولا قوة ولم يلبث ان اشتغل باللهو وأعرض عن مصالح الدولة ، وبذلك زال الخطر عن الملك الكامل ولم يعد في حاجة الى مساعدة الامبراطور فردريك الثانى ، بعد ان اقتسم الكامل والاشرف موسى املاك شقيقهما المعظم عيسى ، وقد احتل الكامل بيت المقدس و نابلس في صيف عام ١٢٥٨ .

وهكذا اصبح الموقف حرجاً ، لأن الملك الكامل هو الذى استدعى الامبراطور فردريك الى الشام لمساعدته ، حقيقة ان هناك عوامل خاصة بالغرب الاوروبى والبابوية التى دأبت على حث فردريك على الخروج في حملة صليبية ضد المسلمين ، ولكن لا نستطيع اغفال استدعاء الكامل للامبراطور ووعدته بتسليم بيت المقدس له وهو ما شجع الامبراطور على الخروج الى الشرق على رأس خمسمائة فارس فقط معتمداً على وعد الكامل بتسليمه بيت المقدس سلمياً . لذلك فقد شعر الملك الكامل بالحرج ويصور المقرئى الموقف أصدق

تصوير حين يقول : « تحير الملك الكامل ، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ، فراسله ولاطفه » .

أما عن موقف الامبراطور فردريك الثاني فلم يقل حرصاً عن موقف الكامل ، لأنه خرج من بلاده وهو محروم من رحمة الكنيسة ومغضوباً عليه من البابوية ، معتمداً على وعد الكامل له ولو كان فردريك يعلم أن الكامل سينكث بوعده لاستعد استعداداً طيباً واحضر معه جيشاً كبيراً يساعده على حماية مصالح الصليبيين بالاراضى الشامية ، خاصة وأنه لا يمكنه الاعتماد على تعاون الصليبيين بالشام معه لأن أى مسيحي مخلص يرفض التعاون مع شخص محروم من الكنيسة ومن رعاية القديس بطرس .

ولو عاد فردريك الى الغرب الاوروى دون أن يحصل على بيت المقدس ، ازدادت الامور سوءاً بالنسبة له ، وسيكون ذلك سلاحاً جديداً في يد البابوية تحاربه وتشنع عليه . فالموضوع بالنسبة لفردريك كان موضوع مستقبل عرشه في الغرب ومصير المعركة بينه وبين البابا ، وليس موضوع استرداد بيت المقدس من يد المسلمين في حد ذاته . والدليل على ذلك ماقاله فردريك للملك الكامل من انه « ماله غرض في القدس ولا غيره ، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج » وكان البابا يدرك كل ذلك جيداً ، لذلك فقد أخذ يرسل الملك الكامل ويحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور فردريك ، لأنه لو قدر له استرداد بيت المقدس فان ذلك سيكون انتصاراً له على البابوية وسيعتبره المعاصرون حكم الله العادل لصالح الامبراطور فردريك . ومن ذلك يتضح تناقض موقف البابوية التي ملأت العالم الغربى صراخاً وعويلأ على ضياع بيت المقدس ودعت للنخلة تلو الحملة لاسترجاعها من يد المسلمين ، وهامى ذى الآن تحت الملك الكامل وتحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور فردريك وهذا يوضح ان البابوية لم يكن يهمها استرجاع المسيحيين لبيت المقدس بقدر ما يهمها مصالحها الخاصة في حربها ضد الامبراطور فردريك ورغبتها في عدم احرازه لأى نصر يعزز موقفه أمام العالم الغربى المسيحي .

على أية حال ، فبمجرد وصول الامبراطور فردريك الى عكا ارسل سفارة

الى الملك الكامل الابوين تحمل له الهدايا النفيسة من المنسوجات الحريرية والالوان الذهبية والفضية وتلتبس منه تحقيق وعده وتسليم الامبراطور بيت المقدس .

لكن الملك الكامل اعتذر عن عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور مما دفع الامبراطور لفتح باب المفاوضات بعد أن علم ان البابا اصدر ضده قرار الحرمان للمرة الثانية وانه أباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته ، كما أخذ البابا في نشر الاشاعات ضد الامبراطور وكان آخرها أن الامبراطور قد مات وادعى البابا لنفسه حق الوصاية على الامبراطورية .

وقد أثرت هذه الأخبار تأثيراً سيئاً على نفسية الامبراطور ، وقد دفعه كل ذلك الى ارسال رسالة للملك الكامل أوضح فيها موقفه توضيحاً تاماً فقال : « أنا مملوكك وعتيقك ، وليس لي عما تأمره خروج وأنت تعلم اني أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي ، فان رجعت خائياً انكسرت حرمتي بينهم .. وهذا القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم والمسلمون قد اخربوها فليس لها دخل طائل ، فان رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزبارة فيكون صدقة منه ، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر » وقد تأثر الملك الكامل تأثراً بالغاً بنعمة الاستعطاف هذه التي سار عليها الامبراطور ، بالاضافة الى ما سبق توضيحه من انه خشى ان رفض تسليم القدس واتفق الامبراطور مع الصليبيين بالشام ضد الكامل فان موقفه سيكون سيئاً للغاية . أضف لذلك ان الملك الكامل بطبيعته كان متساهلاً أكثر من اللازم ولعل ذلك يبدو واضحاً في عرضه على الصليبيين - أثناء الحملة الصليبية الخامسة على مصر أكثر من مرة تسليمهم بيت المقدس - وكذلك ارساله السفارة الى الامبراطور فردريك في الغرب الاوروى ووعده بتسليمه بيت القدس ، وهذا يدل على تسامح بل واستهتار من جانب الكامل في حق هذه المدينة المقدسة التي عانى عمه صلاح الدين أشد المعاناة وأقصاها حتى تم له استردادها من يد الصليبيين . على أية حال انتهت المفاوضات بين الطرفين بعقد اتفاقية يافا في ١٨ فبراير ١٢٢٩ ، التي نصت على أن يأخذ الصليبيون بيت

المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا . واشترط أن تظل بيت المقدس على ما هي عليه من الخراب ولا يجدد سورها وان يكون للمسلمين سائر قرى القدس ، وكذلك يكون للمسلمين المسجد الأقصى يقيمون فيه شعائر الاسلام من الأذان والصلاة ولا يدخله الصليبيون الا للزيارة فقط . كذلك نص على ان تكون مدة الهدنة بين الطرفين عشر سنين . وقد كان لهذه الاتفاقية صدى عميق عند كلا الطرفين ، المسلمين والصليبيين . أما بالنسبة للمسلمين فقد آلمهم كثيراً ان يفرض الملك الكامل بهذه السهولة في تلك المدينة المقدسة ويصور لمؤرخ المقرئى صدى ذلك عند المسلمين بقوله : « فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعيويل ، وحضر الائمة والمؤذنون من القدس ، الى مخيم الكامل أذنوا على بابه في غير وقت الأذان .. فعظم على أهل الاسلام هذا البلاء ، اشتد الانكار على الملك الكامل ، وكثرت الشناعات عليه في سائر لأقطار » .

والغريب أن الصليبيين أيضاً لم يعجبهم استرداد الامبراطور فردريك الثاني لمدينة بيت المقدس وأخذوا يعبرون عن غضبهم بشتى الصور ، فقال البعض منهم ان كرامة المسيحية كانت تحتم ان تؤخذ بيت المقدس بحمد السيف وليس بطريق الاستجداء والبكاء كما فعل فردريك الثاني . أما البعض الآخر فأخذ يوضح ان لا أهمية لبيت المقدس بدون حصنى الكرك والشوبك وهذا ما جعل الصليبيين يرفضون عرض الملك الكامل عليهم بتسليمهم القدس أثناء الحملة الصليبية الخامسة على مصر . أما البعض الثالث فقال بانه لا قيمة لأى كسب أو انتصار يحققه امبراطور محروم من الكنيسة ومن رعاية القديس بطرس . وقد أوقع بطريك مملكة بيت المقدس قرار الحرمان على مدينة بيت المقدس نفسها وعلى كل من فيها من المسيحيين اذا استقبلوا الامبراطور فردريك الثاني في مدينتهم .

وقد سارع الامبراطور فردريك بالتوجه الى بيت المقدس عقب ابرام اتفاقية يافا ، ودخلها يوم السبت ١٧ مارس ١٢٢٩ وتسلمها من يد القاضي شمس الدين قاضى نابلس الذى خصصه الكامل لخدمة الامبراطور . وقد دخل

فردريك كنيسة القيامة وتوج نفسه بيده ، وقد فسر المؤرخون تصرفه هذا عدة تفسيرات ، فمن قائل انه فعل ذلك بعد أن رفض رجال الدين تتويج امبراطور محروم من الكنيسة ، وقال البعض بانه فعل ذلك عن قصد حتى يثبت للبابا ولرجال الدين انه تسلم التاج في هذا المكان البالغ الاهمية وهو كنيسة القيامة ، من الله مباشرة دون حاجة لرجال الدين أو البابا ، وهو الذى ملأ الدنيا صياحاً بأن التاج الامبراطورى ماهو الا منحة من البابا للامبراطور ، أو اقطاع يمنحه للامبراطور ، وعلى الامبراطور أن يكون فصلاً تابعاً للبابا يؤدي له ما للفصل من واجبات نحو سيده .

وقد قام الامبراطور وهو في بيت المقدس بزيارة المسجد الاقصى وكان الملك الكامل قد منع اقامة الأذان به طيلة وجود الامبراطور بالمدينة اعظماً واحتراماً له ، ولكن فردريك غضب لذلك التصرف من جانب الكامل واوضح بأنه كان يود أن يسمع آذان المسلمين وتسييحهم في الليل . وقد دعى ذلك بعض المؤرخين الى الاعتقاد بان فردريك كان مسلماً ويتلاعب بالنصرانية على حد تعبير المؤرخ العيني .

وأثناء وجود الامبراطور داخل بيت المقدس وصلها بطرس اسقف قيسارية ليوقع قرار الحرمان على المدينة ، وقد استاء الامبراطور لذلك واعتبرها اهانة كبيرة لحقت بشخصه ، وغادر القدس الى يافا ، ثم الى عكا فوصلها يوم ٢٣ مارس ١٢٢٩ ، وقد غادرها في أول مايو ١٢٢٩ بحراً الى قبرص حيث قضى بها عدة أيام ثم تركها الى ايطاليا فوصلها يوم ١٠ يونيو ١٢٢٩ .

وهكذا انتهت هذه الحملة التى اتسمت بالغرابة من بدايتها حتى نهايتها . ويعقب المؤرخ أرنست باركر على هذه الحملة بقوله :

« لم تتخذ الحملة السادسة صفة الحرب المقدسة ، انما الذى حدث فعلاً ، هو نوع من المساومة الحقيرة ، مثلما يجرى عادة في أى سوق من أسواق الشرق ، بين ملك صقلية المشهور بحريته الفكرية وميله نحو الشرق ، وبين سلطان مصر . والواقع ان فردريك انما تصرف بروح ملك صقلية لا بروح ملك بيت المقدس . و ما كان لابد ان يقوم به . فمن اسلافه الصقليين ،

الذين عقدوا معاهدات تجارية مع مصر ، تعلم فردريك ان يجعل من الحرب ، وان كانت صليبية ، مسألة معاهدة ، فعلى الرغم من أن الفرع النرمانى الذى انحدر منه ملوك صقلية كاد يختفى ، فأن سياسته بقيت من بعدهم ، عند من خلفهم من ملوك أسرة هوهنشتاوفن ، تلك السياسة التى اسهمت فى تحول الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية هدف النورمان من قديم الزمن ، والتى امكننت فى أن تجعل للحملة السادسة مظهرها الدنيوى والدبلوماسى ، المجرد من المجد .

أما المؤرخ فيشر فانه يختلف فى نظره للحملة الصليبية السادسة عن نظرة باركر ، حين يقول :

« عقد فردريك البعيد النظر مع صديقه السلطان الكامل ابن العادل الايوى معاهدة تبيح للحجاج المسيحيين زيارة الاماكن المقدسة مدة عشر سنوات ، وذلك دون ان يضيع وقتاً ، أو ينفق مالاً أو يهدر دماً . تلك هى ثمار المهارة السياسية ، حين تحل الانسانية والادراك السليم محل الحقد الاعمى الذى ينجم عن انتعصب الذنى والكراهية بين اجناس البشر » .

ومهما كان حكم المؤرخين على الحملة الصليبية السادسة وما حققته من استعادة بيت المقدس دون اراقة دماء . فالذى لاشك فيه ان الملك الكامل الايوى قد فرط تفريطاً كبيراً بالتنازل عن بيت المقدس هكذا وببساطة . وكان الواجب يقتضى منه أن يحارب الصليبيين ويدافع دفاع المستميت عن هذه المدينة المقدسة ، وكان من الخير له وللمسلمين ان تقع بيت المقدس فى يد الصليبيين بعد حرب وقتال ، لا ان يسلمها لهم دون اراقة دماء . لذلك فقد استعحق الملك الكامل غضب المسلمين وثورتهم عليه ، أو كما قال المؤرخون المسلمون : « قامت القيامة فى جميع بلاد الاسلام ، واشتدت العظام ، بحيث ان اقيمت المآتم » . وقد كان من نتيجة ذلك ان ادرك الكامل مدى الورطة التى وقع فيها وندم على تسليم بيت المقدس ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان » .

الفصل السادس

مصر

والحملة الصليبية السابعة

وأينا كيف تنازل الملك الكامل عن بيت المقدس الى الامبراطور فردريك الثاني هوهنشتاوفن وصدى ذلك عند كل من المسلمين والصليبيين ، على أن هذه المدينة لم تلبث أن خرجت من يد الصليبيين والى الأبد هذه المرة .

وتتلخص ظروف ذلك في أنه بعد وفاة الكامل في أوائل مارس ١٢٣٨ ، خلفه ابنه العادل الثاني ، الذى صارت له السلطنة والسلطة العليا في الدولة الأيوبية ، على أن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، استولى على دمشق سنة ١٢٣٩ ، مما أوقعه في نزاع مع شقيقه العادل ، وقد استعان كل من الشقيقين بأنصار من أبناء البيت الأيوبي نفسه ، فضلاً عن استعانتهم بالجموع الخوارزمية الذين تفرقوا في بلاد الشام وآسيا الصغرى بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتي .

على أن كبار الامراء بالدولة الايوبية بمصر قد استاءوا من الملك العادل الثاني لانشغاله باللهو عن تدبير مصالح الدولة فقبضوا عليه في نهاية مايو ١٢٤٠ وعزلوه واستدعوا شقيقه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فدخل القاهرة في ١٩ يونيو ١٢٤٠ واصبح سلطان مصر (١٢٤٠ - ١٢٤٩) . على أن الخلاف الذى كان بين الصالح نجم الدين وبين عمه الصالح اسماعيل ، الذى سبق له طرد نجم الدين أيوب من دمشق واستولى عليها ، لم يلبث هذا النزاع أن أشد وتطور بصورة خطيرة بعد أن استعان الصالح اسماعيل بالصليبيين واتفق معهم على غزو مصر ، ولم يجد الصالح نجم الدين أيوب عندئذ بداً من الاستعانة بالخوارزمية ، الذين لم تكف تصلهم دعوته حتى اندفع عشرة آلاف منهم في فرحة كبرى نحو بلاد الشام فاغاروا على المدن والقلاع الصليبية حتى وصلوا الى بيت المقدس ، التى كانت بدون ملك أو قائد يحميها ويدافع عنها ، فاستنجد الصليبيين الموجودين بها بأمر انطاكية . ملك قبرص وحلفائهم من لحكام المسلمين أمثال ملكا دمشق وحمص . ولكن أحداً منهم لم ينجدهم . نشغالهم بمشاكلهم الخاصة .

وهكذا اندفع الخوارزمية واقتحموا بيت المقدس في ١١ يوليو ١٢٤٤ .

واستولوا عليها في سهولة ، وقد اعملوا السلب والنهب والتدمير في المدينة وخاصة ضد اهلها من الصليبيين ، وعلى هذا النحو عادت بيت المقدس الى قبضة المسلمين ولم يقدر لجيش مسيحي ان يقترب منها بعد ذلك حتى الحرب العالمية الاولى .

وبعد أن قام الخوارزمية بعمليات نهب واسعة النطاق في بيت المقدس وضواحيها ، اتجهوا صوب غزة للاجتماع بالجيش الذي أرسله السلطان نجم الدين أيوب في اكتوبر ١٢٤٤ وكان هذا الجيش بقيادة المملوك ركن الدين بيبرس وفي ذلك الوقت كانت قوات الحلف الشامي - الصليبي قد اتجهت هي الاخرى الى غزة في طريقها الى مصر للاستيلاء عليها واخراج الصالح نجم الدين أيوب منها ، وقد التقى الطرفان الجيش المصري والخوارزمية من جهة وجيش الصليبيين وجيوش حمص ودمشق والاردن من جهة اخرى . وفي ١٧ اكتوبر ١٢٤٤ اشتعل القتال بين الطرفين في موقعة غزة ، وفيها حلت الهزيمة الساحقة بجيوش الصليبيين وحلفائهم حتى قدر عدد قتلاهم بأكثر من ثلاثين ألفا ، غير الأسرى الذين سيقوا الى مصر وكان عددهم يقارب الألف .

وقد كانت هذه المعركة أعظم كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين ١١٨٧ ، حتى اطلق المؤرخون المسلمون على معركة غزة هذه اسم (حطين الثانية) .

وقد أدت كل هذه الظروف التي احاطت بالصليبيين في الشام وفلسطين وما ترتب عليها من ضياع بيت المقدس من جهة والكارثة التي حاقت بهم في معركة غزة من جهة اخرى الى قلق الغرب الاوروي وخوفه من ضياع البقية الباقية من الممتلكات الصليبية في الشام وبالتالي التفكير في ارسال حملة صليبية كبيرة لتأثر مما نزل بالصليبيين وتستعيد بيت المقدس لقبضتهم مرة أخرى . وكان أكثر الذين تأثروا بأوضاع الصليبيين في الشام ملك فرنسا لويس التاسع الذي عرف باسم القديس لويس .

وكان عرش فرنسا قد آل اليه في ٢٩ نوفمبر ١٢٢٦ بعد وفاة والده لويس الثامن ، وكانت والدته هي الملكة بلانش ابنة الفوس التاسع ملك قشتاله ،

التي عزفت بالتقوى والتفانى في خدمة الكنيسة المسيحية ، والتي عنيت بتنشئة
ابنها نشأة دينية صارمة .

وقد دعا الملك لويس التاسع الى حملة صليبية ضد مصر^(١) من أجل
الاستيلاء عليها ثم عن طريقها يمكنه استخلاص بيت المقدس . وكانت دعوته
تلك اثر مرض خطير ألم به في أواخر عام ١٢٤٤ ، أشرف فيه على الموت كما
يذكر مؤرخ حياة القديس لويس وهو جوانفيل ، ويستطرد جوانفيل قائلاً ان
حدى السيدات اللاتي كن يمرضنه ظنت ذات مرة انه قد قضى عليه فإرادت
تغطية وجهه بغطاء ، فعارضتها سيدة أخرى كانت تقوم على الجانب الآخر من
الفراش ، لم تحمل رؤية هذا المنظر فقالت انه لا يزال حياً .

وبينا هاتان السيدتان في جدلهما حول فراشه ، اسبغ عليه الله عز وجل
الصحة وانطقه بعد سكون ، وبث فيه القدرة على الكلام ، فطلب اليهما أن
تأتياه بالصليب ففعلتا ماطلب .

وقد تعهد لويس منذ ذلك الحين ان يحمل الصليب ويذهب الى الاراضي
المقدسة ويستعيد بيت المقدس ليد الصليبيين من جديد ، ايماناً منه ان الله من
عليه بالشفاء من مرضه لكي يقوم بهذه المهمة التي كرس حياته من أجلها .

اذن فهذه الحملة الجديدة كان ملك فرنسا هو أول من دعا اليها ولم يلبث
البابا اينوسنت الرابع ان دعا مضطراً لهذه الحملة بعد أن أرسل بطريرك بيت
المقدس الى الغرب الاوروي سفارة على رأسها واليران اسقف بيروت ، وقد
عقد البابا اينوسنت الرابع مجمع ديني في مدينة ليون في الفترة من ٢٨ يونيو
وحتى ١٧ يوليو ١٢٤٥ . وبعد ان اتخذت قرارات هامة في هذا المجمع سمح
لواليران بالتحدث فأخذ يفيض في وصف الحالة السيئة التي اضحى فيها

(١) هذه الحملة هي المعروفة بالحملة الصليبية السابعة ، ومن أحسن الكتب التي تناولتها كتاب الاستاذ
الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، وهو دراسة قيمة مفيدة قائمة على اساس الدراسة التحليلية المتعمقة
المتميزة بالاصالة العلمية ، انظر جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ، هزيمة لويس
التاسع في المنصورة وفارسكور ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٩ .

الصلبيون بالشام وكيف فقدوا بيت المقدس ، وكيف سقطت زهرة فرسانهم في معركة غزة ، كما أفاض أيضاً في وصف الفظائع التي ارتكبتها ضدهم الخوارزمية . وقد تأثر الحاضرون أيما تأثر ، ولم يجد البابا اينوسنت الرابع بداً من الاشتراك في الدعوة للحرب الصليبية وبذل الامتيازات الروحية للمشاركين فيها ، وهو ما جرى عليه عادة البابوات فوعد كل من يشترك في هذه الحملة الجديدة بالغفران التام عن خطاياهم وذنوبهم بمجرد اتخاذهم شارة الصليب . من الامة بمكان ان نشير هنا الى ان البابا اينوسنت الرابع قد اضطر للدعوة لهذه الحملة على عكس البابوات الذين سبقوه ونادوا بالحروب الصليبية ضد المسلمين ، أما هذا البابا فقد كان الخلاف بينه وبين الامبراطور فردريك الثاني هو هشتافن مشتعل على أشده في الغرب الاوروي وذلك في حلقة من حلقات الصراع المرير الذي قام بين البابوات من ناحية والاباطرة الالمان من ناحية أخرى حول المبدأ الذي ينادى بسمو البابوية وسيادتها على الاباطرة والملوك وكافة الحكام العلمانيين والذي استمر لمدة قرنين من الزمان . وكان البابا اينوسنت لايهمه ارسال حملة صليبية ضد المسلمين ولا استرداد بيت المقدس بقدر مايهمه انتصاره على الامبراطور فردريك الثاني ، وقد عقد البابا مجمع ليون من أجل توقيع قرار الحرمان على الامبراطور فردريك الثاني أولاً وقبل كل شيء . وقد حاول مندوب الامبراطور فردريك الثاني في مجمع ليون ان يوفق بين البابا والامبراطور ووعد البابا ان الامبراطور سوف يساهم بجهوده في توحيد الكنيستين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية وهو الحلم الذي ظل يراود البابوية ، وكذلك استعداد الامبراطور لمحاربة الخوارزمية والمسلمين واعادة الاستقرار والأمن الى ربوع الممتلكات الصليبية في الاراضي المقدسة ، ولكن البابا رفض ذلك كله . وقد توسط القديس لويس ملك فرنسا بين الطرفين أكثر من مرة والتمس من البابا رفع قرار الحرمان عن الامبراطور فردريك ، ولكن جهوده باءت بالفشل ورفض البابا رفضاً باتاً التماس لويس .

ولذلك كله فان البابا اينوسنت الرابع لم يترك وسيلة إلا واستخدمها من أجل احباط مشروع الحملة الصليبية أو على الأقل العمل على تعطيلها وتأخير قيامها حتى يتسنى له استخدام القوات الصليبية ضد عدوه اللدود فردريك

الثانى الذى كرس البابا جهوده كلها من أجل القضاء عليه ولم يترك سلاحاً دينياً كان أم دنيوياً إلا واستعمله لخدمة هدفه هذا

وهكذا يمكن القول بأن البابا اينوسنت الرابع اضطر للدعوة للحملة الصليبية الجديدة حتى لا يثير ضده شعور المسيحيين فى الغرب الأوروبى بعد أن أوضح واليران مدى حاجة الصليبيين فى الأراضى المقدسة إلى نجده عاجلة . ان كان البابا فى قراره نفسه لا يريد قيام هذه الحملة .

وقد أخذ لويس التاسع ملك فرنسا يحث البابا اينوسنت على ارسال مندوبين عنه للتبشير بالحملة فى ربوع اوروبا ، فأرسل البابا مندوبا عنه يدعى ادون دى شارتر للتبشير بالحملة فى فرنسا ، كذلك انتشر بعض الدعاة للحملة فى مختلف انحاء أوروبا داعين لها . وقد كانت الاستجابة فى فرنسا أكثر من أى بلد أوربى آخر . خاصة وأن ملكها لويس أخذ يدعو بنفسه لهذه الحملة ، وكان أول من أدرج اسمه فى سجل الحرب الصليبية الجديدة . وحذا حذوه أشقائه الثلاثة وهم روبرت كونت أرتوا والفونس كون بواتيه ، وشارل أنجو . وكذلك اشترك فى هذه الحملة جون لورد جوانفيل الذى أرخ لهذه الحملة . وكان أحد فرسانها .

ويقال أن الملك لويس قد لجأ إلى حيلة طريفة من أجل أن يكسب فى هذه الحملة أكبر عدد ممكن من نبلاء وبارونات مملكته . فقد كان من عادة لويس أن يقدم الهدايا إلى كبار رجال دولته فى عيد الميلاد من كل عام . وفى ليلة عيد الميلاد لسنة ١٢٤٥ دعاهم كعادته فى كل عام واهدى كلا منهم وشاحاً كان قد أمر أن يحاك عليه علامة الصليب ، وحين ارتدوا هذه الاوشحة شاهد كل منهم علامة الصليب على كتف زميله ، فغمرهم السرور ولم يجدوا بدا من تنفيذ رغبة ملكهم وانخرطوا جميعهم فى سلك الحملة الصليبية الجديدة .

وقد أخذ لويس فى توفير احتياجات الحملة من السفن البحرية ، ولما كان لا يملك شيئاً منها فقد استعان فى ذلك بسفن جنوا ومرسيليا التى تم استئجارها منها ، اما البندقية فقد رفضت أن تمدّه باية سفن نظراً لعلاقتها الطيبة بمصر .

كذلك ارسل لويس قبل خروجه على رأس الحملة بحوالى عامين جماعة من رجاله إلى قبرص لشراء واعداد ما يحتاجه جيشه من المؤن والنبذ وغيرها مما يحتاجون اليه ، وكانت قبرص قد اتخذت كنقطة تجمع للصليبيين المتوجهين إلى مصر .

أما عن توفير المال اللازم للاتفاق على الحملة فقد تم جمعه من الضرائب التي فرضت على الاكليركيين والعلمانيين الذين لم يشتركوا بشخصهم في الحملة .

وبعد أن نظم لويس أمور الحملة من حيث النفقات اللازمة لها ومن حيث المؤن ، قام بتنظيم شئون مملكته وأتاب عنه والدته الملكة بلانش صاحبة قشتالة لتدير شئون المملكة أثناء فترة غيابه ، كما اقسم له كبار رجال مملكته بيمين الولاء ومراعاة حقوقه والاخلاص له ولابنائ الصغار وعدم القيام بمحاولات لاغتصاب ملكة اثناء تغيه في مهمته المقدسة في الشرق .

وبعد ثلاث سنوات منذ الدعوة لهذه الحملة في عام ١٢٤٥ ، وبعد أن تم اعداد كل شيء ، غادر لويس باريس في ١٢ يونيو ١٢٤٨ وكان بصحبته زوجته مرجريت وشقيقه شارل وروبرت ، أما شقيقة الثالث الفونس فقد ظل بفرنسا يقوم بجمع جموع أخرى ووعد باللاحاق بالحملة فيما بعد على رأس هذه الجموع .

وقد مر لويس بمدينة ليون حيث كان البابا اينوسنت الرابع موجودا بها ، فافضى اليه لويس باعترافه وحصل منه على صك الغفران التام من خطاياها ، ولم ينس لويس أن يتوسل إلى البابا من أجل الصفح عن فردريك الثاني هوهنشتاوفن ولكن البابا رفض . ومن ليون اتخذ لويس طريقه إلى ميناء أجمورت في جنوب فرنسا ، ومنه ركب السفن ومن معه في ٢٥ أغسطس ١٢٤٨ متخذين طريقهم إلى قبرص . وفي ١٧ سبتمبر ١٢٤٨ وصلوا إلى ميناء ليماسول في قبرص حيث نزل الملك لويس ومن معه إلى أرض الجزيرة التي اتخذت نقطة تجمع للجيش الصليبية المشتركة في هذه الحملة كما سبقت الإشارة إلى ذلك

وكان الرجال الذين ارسلهم لويس إلى قبرص قبل وصوله إليها بعامين قد نجحوا في تكديس المؤن التي سوف تحتاج إليها الحملة . ويصف جوفيل ذلك فيقول « حين وصلنا قبرص الفينا الملك بها ، ووجدنا كميات ضخمة من الذخيرة الرائعة ، وأعنى بها ما نحتاجه من المشونة والطعام والمخازن ، وكانت حوائج الملك موضوعة وسط الحقول وعلى ساحل البحر ، حيث كدس رجاله براميل كبيرة من الخمر (دأبوا على شرائها مدة عامين قبل وصول الملك ، وكانت البراميل تعلو الواحدة الأخرى ، فاذا ما نظرت إليها من بعد خيل اليك انها بيوت كبيرة . وكدسوا أكوام القمح والشعير وسط الحقول ، فاذا نظرت إليها خيل اليك أنك ترى جبالا ، ذلك لأن الأمطار التي طال سقوطها عليها جعلتها تفتح فتبدو جوانبها لمطالعها كأنها الحشائش الخضراء ، فلما عمدوا إلى أخذ ما يحتاجونه منها في مصر ، قطعوا الطبقة العليا المعشوشبه ، ووجدوا الحنطة والشعير جديدين ، كما لو كان قد جمعاً منذ أمد قريب » .

وكانت جزيرة قبرص تخضع وقتئذ لاسرة لوزجنان منذ أن باعها الملك ريتشارد ملك إنجلترا إلى جاي لوزجنان ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك وفي ذلك الوقت كان حاكمها يدعى هنرى الأول لوزجنان الذي تلقى لويس وحملته بالترحاب في عاصمته نيقوسيا ، وقد امضت الحملة في قبرص مدة ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨ - مايو ١٢٤٩) والواقع أن هذه الشهور الثمانية التي قضتها الحملة في قبرص قد اساءت إليها أكثر مما أفادتها ، ذلك ان الصليبيين قد استهلكوا معظم المؤن التي تم جمعها لتزويد الحملة اثناء هجومها على مصر ، لذلك استدعى الأمر تدبير مؤن جديدة لامدادها بها ، كذلك فان الصليبيين أخذوا في انفاق الأموال التي كانوا قد تزودوا بها من أجل الانفاق على فرسانهم اثناء الحرب مع المسلمين ، وقد أخذ الفرسان يهددونهم بالعودة إلى الغرب الأوروى إذا لم يستمروا في دفع رواتبهم ، وكان أن اضطر الملك لويس إلى تزويد بعضهم بالمال اللازم للاتفاق على فرسانهم . أضف إلى ذلك أن اخبار الحملة وصلت إلى سلطان مصر واعطت فترة الثمانية أشهر التي قضتها الصليبيين في قبرص الفرصة له لمواجهة الحملة الصليبية وتحصين مدينة دمياط وتزويدها بالمقاتلة والمؤن نظراً لتوقعه أن تكون دمياط هي المدينة التي سيبدأ

الصلبيون بالمهجوم عليها .

وكان يجلس على عرش مصر في تلك الفترة الملك نجم الدين أيوب ، الذى كان سياسيا محنكا ، وأمتاز بأشرافه الدقيق على جميع شئون الدولة والبت بنفسه في جميع أمورها وقد تهيأ لمصر خلال حكمة الأمن والاستقرار الداخلى .

وساعد ذلك على ازدهار التجارة ، التى أمدت خزينة السلطان بمورد لا ينضب من المال ، أنفق معظمه على البحرية والجيش وبناء الإستحكامات والقلاع مما كان له أبعد الأثر في دفع عدوان الصليبيين عن أرض مصر .

ويوضح لنا بعض المؤرخين المسلمين أن أخبار حملة لويس التاسع كانت تصل إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب عن طريق الإمبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، الذى ظل على علاقات الود والصداقة مع الصالح نجم الدين أيوب كما كان من قبل مع والده الكامل . وكما يذكر المقرئى والعينى أرسل الإمبراطور فردريك إلى الصالح نجم الدين برسول متكر فى زى تاجر يخبره أن لويس التاسع عازم على السير بجحافلة إلى أرض مصر لامتلاكها . وكان الصالح نجم الدين أيوب موجودا بدمشق ، فأسرع بالعودة إلى مصر ، ونزل باشموم طناح فى ١٨ مايو ١٢٤٩ . وأخذ فى العمل على تحصين مدينة دمياط لعلمه إنها كانت هدف الصليبيين فى حملتهم السابقة (الحملة الخامسة) وخوفه من أن يجرى عليها مثل ما جرى أيام والده الملك الكامل وقد زود دمياط بالموث والذخيرة وآلات الحرب ، كما عهد إلى طائفة من عرب بنى كنانة وهم قوم مشهورون بالشجاعة والاقدام ، بحماية المدينة من الداخل والدفاع عنها ضد الصليبيين . وقد عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ وكان مقدم العساكر بالدفاع عن دمياط ، فنزل الأمير فخر الدين بعساكره على البر الغربى لدمياط حتى يقابل الصليبيين عند وصولهم ويحول بينهم وبين النزول على أرض مصر .

وفى يوم السبت ٢٢ مايو ١٢٤٩ أبحر الملك لويس من ليماسول بقيرص ميمما

وجهه شطر مصر ويصف جوانفيل منظر إقلاع الملك وجيوشه التي بلغ عددها ٥٠,٠٠٠ جندي فيقول : « فكانت سفرته يوم السبت وصحبته الجميع ، وما كان أبعد منظر البحر وهو يبدو للعيان على أمداد البصر ، مغطى بقلاع السفن التي بلغ عددها ألفا وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة » .

على أن ربحا عنيفة هبت من ناحية مصر شتت السفن الصليبية ودفعتها دفعا نحو عكا وغيرها من البلاد القريبة من قبرص ، وكان من نتيجة ذلك إنه لم يبق مع الملك لويس من فرسانه البالغ عددهم الألفين والثمانمائة سوى سبعمائة فارس فقط .

وبعد سكون العاصفة تابعت الحملة رحلتها صوب مصر ، ووصلت أمام الشاطئ الغربي لفرع دمياط يوم الخميس ٣ يونيو ١٢٤٩ وهو الشاطئ المعروف باسم جيزة دمياط . وقد ابصر الصليبيون أمامهم على الشاطئ كائب السلطان . ويقول جوانفيل عنها انها « كائب يستحب النظر اليها ، فقد كانت اسلحتها من الذهب إذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة في سامعيها » .

وقد بادر الملك لويس بمجرد رسوهم امام شاطئ جيزة دمياط بارسال رسول إلى السلطان الصالح نجم الدين ايوب ليسلمه رسالة من الملك لويس يطلب فيها من السلطان الاستسلام ويستعرض فيها قوته من قبيل التخويف والارهاب وكانت رسالة لويس إلى السلطان كما يلي :

« بسم الله الفصيح صاحب الدين الصحيح عيسى بن مريم المسيح ، أما بعد ، فانه لم يخف عليك ولا على كل ذي عقل ثاقب انك امين هذه الملة الخنيفية ، وأنا أمين هذه الملة النصرانية وليس يخفى - عنك ما فتحنا من بلاد الاندلس ، وأخذنا النساء والعذارى وفرقناهم على ملة النصارى ، وجعلنا رجالهم أسارى ، ونساءهم عليهم حيارى . وقد علمت ما نحن فيه من حق الرعية لما فتحنا بلاد المهدية وعتونا على ثغر الاسكندرية فلا تلجئ العالم إلى العسف ولا يسمهم بسماء السخنة ، نقتل العباد ، ونندوس البلاد ، ونظهر الأرض من الفساد فان

قابلتنا بالقتال فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال ورميتهم في أسر الوبال ،
ويكثر فيهم العويل ولا يرم عزير ولا ذليل ، ولا تجد إلى نصرتهم من سبيل ، ونحن
شرحنا لك ما فيه الكفاية ، وبذلنا لك غاية النصيحة والهداية ، ان تنقل إلى عندنا
ما عندك من الرهبان ، وتحلف لنا بعظام الإيمان ، أن تكون لنا نائباً على مر
الازمان . وتعجل لنا بما عندك من مراكب وطرائد وشوان ولا تكون فيك فترة ولا
توان لتكون قلوبنا راضية عليك ، ولا تسوق حتفك اليك ، وتكون على نفسك
وجيشك قد جنيت ، وتعود تقول باليت ، وتضع الحرب اوزارها وتشعل نارها ،
وتتعالى شرارها وتقتم فنارها ، وتأخذ منكم بنارها ، فسيوفنا حداد ، ورماحنا مداد
وقلوبنا شداد ، وبحكم بيننا وبينكم رب العباد . فان كانت البلاد لك فهدية
ألقيت بين يديك ، وان كانت لنا فيدنا العليا عليك ، إذا استحققنا امارة الملتين
وحكم الشريعتين وبيد الله تعالى السعادة وهو الموفى للارادة .

فلما وصلت هذه الرسالة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب لم يأبه لتهديد
لويس له ورد عليه برسالة استخف فيها بتهديداته ونعته بالمغرور ، وأخذ يستعرض
بمشيد بيطولات المسلمين وقوة بأسهم ، وكان رد السلطان على رسالة لويس كما
يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
أجمعين ، والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على القوم
الظالمين ، من عند الزائد عن حرم المسلمين ، والقارىء كتاب رب العالمين المنزل
على خير المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه
الانصار والمهاجرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين . أما بعد فقد وصل كتابك ،
وفهمنا لفظك وخطابك ، وما أنا قد آتيتك بالخيال والرجال ، والخزائن والأموال ،
والعساكر والاتقال ، والقيود والإغلال ، فان كانت لك فانت الساعى وقد آمنت
الناعى ، وان كانت عليك فانت الباغى لحتفك والجادى انفك بظلفك ، فان
رأيت الا تقيم بين الفتنين ضغنا ، فلذلك من الله علينا وعليك منا ، وان غير
ذلك فقد قال الله تعالى « افمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » ولا وصل الينا
كتابك أعطيناك جوابك ، ومن يهديه الله فهو المهتدى ومن يضل فلن يجد له ولما

مرشدا . وفي كتابك تهددنا بجيوشك ، وابطالك وخيلك ورجالك، أو ما تعلم انا
حن ارباب الخوف وفضلات السيوف ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ولا عدم منا
فارس إلا جددناه ، ولا طغى علينا طاغ إلا دمرناه ، فلو نظرت - أيها المغرور -
حد قلوبنا وجد حروبنا ، لرأيت فرسانا استهم لا تمل وسيوفهم لا تكل وقلوبهم
لا تذلل ، ولعفيت عن يدك بسن الندم ولأحزرت تخزيك قدم عن قدم ، فلا
تعجبك العساكر التي بين يديك ، فهو يوم اوله لنا وآخره عليك ، إذا اتاك كتابي
هذا فلتكن منه بالمرصاد على أول سورة التمل وآخر سورة ص : « اتى أمر الله فلا
تستعجلوه » « ولتعلمن نبأه بعد حين » . هنالك تتناول نخوك الاعناق ،
وتشخص صوبك العيون ، ويشوبك الويل وتسوء بك الظنون « وسيعلم الذين
ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وهكذا يتضح من هذا الرد أن الملك الصالح نجم الدين ايوب لم يهاب الجيوش
الصليبية وعلى رأسها ملك فرنسا كما أنه لم يأبه لتهديداته .

وبعد أن وصل هذا الرد للملك لويس جمع ملروياته للتشاور فيما يفعلون ،
فأشار عليه الكثيرون منهم بوجوب الانتظار حتى يعود جميع رجاله الذين شتهم
العاصفة ، لا سيما وأنه لم يبق منهم معه إلا الثلث فقط . لكن هذه المشورة لم
تصادف قبولا عند الملك لويس ، وقد رفض رأيهم هذا وكانت حجته في ذلك أن
كل تأخير من جهتهم يقوى ساعد المسلمين ، كما أنه لا يوجد ميناء آخر قبل
دمياط يستطيع الملك أن ينتظر فيه رجاله ، وبناء عليه فإن أية رياح قوية تهب
قد تدفع سفنهم إلى بلاد أخرى كما حدث لهم من قبل أمام قبرص . وقد تغلب
رأى لويس وتقرر أن يبدأ الصليبيون في النزول على الأرض المصرية يوم السبت
٥ يونيو ١٢٤٩ .

أما عن المسلمين بمصر فإن قواتهم كانت مرابطة على شاطئ جزيرة دمياط
تحت قيادة الأمير فخر الدين كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وحينما رأوا سفن
الصليبيين تقترب من الشاطئ أرسلوا أربعة سفن حربية من أجل الاستكشاف
ومعرفة مدى استعدادات الصليبيين ، وقد اشتبك معها الانطول الصليبي
ونمكن من عراق ثلاثة منها أما الرابعة فنجحت في الافلات وعادت إلى

الشاطيء لتخبر الامير فخر الدين بضخامة استعدادات هذه الحملة الصليبية .

ووفقا لما تم الاتفاق عليه بين الملك لويس وقواته فقد بدأوا ينزلون على الشاطيء ولما كان الشاطيء ضحلا لم تتمكن السفن الكبيرة من الاقتراب منه وظلت في عرض البحر وركب الصليبيون الزوارق الصغيرة كما خاض بعضهم في المياه بنفسه ومن بينهم الملك لويس واشتبكوا مع المسلمين في القتال ، وقد حاول الفرسان المسلمين اعاقه نزول الصليبيين على الشاطيء واستماتوا في القتال . ورغم ذلك تمكن الصليبيون من النزول على الساحل ونصبوا خيامهم .

وقد حدثت بعض الاشتباكات بين الطرفين الإسلامي والصليبي استمرت من الصباح الباكر حتى الظهر ، وانتهت بانتصار الصليبيين وقتلوا عدد من الامة المسلمين البارزين .

وقد حدث حادث عادي بأسوأ النتائج على الجانب الإسلامي وان كان نفس الحادث قد افاد الصليبيين وكسبوا عن طريقه امتلاك مدينة دمياط بلا ادنى حصار أو ادنى قتال ، ويتلخص ذلك الحادث في أن الأمير فخر الدين مقدم العساكر الإسلامية قد أرسل ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذي كان معسكرا عند اشموم طناح ، يخبره نبأ نزول الصليبيين على ساحل جزيرة دمياط ، ولما لم يتلق الأمير فخر الدين جوابا على رسائله الثلاث ، ولما كان يعلم ان السلطان مريضا ، فقد اعتقد أنه مات ، ويقال ان الأمير فخر الدين كانت له اطماع في الملك فخشى ان يختار الممالك سلطانا آخر غيره ، فبادر بالانسحاب من جزيرة دمياط هو وقواته حتى لا تفوته الفرصة لتحقيق اطماعه وكان انسحابهم اشبه بالفرار وعبروا جسرا كان يصل بين جزيرة دمياط ومدينة دمياط ذاتها ، وفي عجلتهم نسوا أن يقطعوا ذلك الجسر ، وحين رأى أهالي دمياط أن الأمير فخر الدين قد فر ، تركوا هم الآخرون مدينتهم وفروا ، وجنبا حذوهم بنى كنانة الذين وكل اليهم السلطان مهمة الدفاع عن دمياط ، وقد اشعلوا النيران في سوقها حتى لا يقع في يد الصليبيين ما يحتويه السوق من بضائع ونفائس يفيدون منها واتجهوا

جميعهم إلى اشموم طناح حيث المعسكر الإسلامى .

وهكذا صارت دمياط مدينة مفتوحة ، وقد شعر الصليبيون بخلو المدينة من الأهالى ووسائل الدفاع ، وفكروا فى أنها ربما تكون خدعة ، فارسل لويس بأحد فرسانه لاستطلاع الأمر ، فعاد الفارس مؤكدا له خلوها من أهلها ، وقال انه جاس خلال بيوتها .

وقد دخلت جيوش لويس التاسع مدينة دمياط فى سهولة بالغة فى ٦ يونيو ١٢٤٩ . وقد وجدوا المدينة خالية من البضائع ويقول جوانفيل فى هذا الصدد أن المسلمين « كبدونا خسارة جمة باشعالهم النار فى سوق المدينة الذى كانوا قد جمعوا به كل أنواع البضائع وكل ما خف وزنه وغلا ثمنه ، وكانت الخسارة التى نجمت عن هذا العمل كبيرة لا تعادها - لا قدر الله - سوى أن يقوم أحدهم باشعال النار فى الجسر الصغير بباريس » .

وقد ألقى المؤرخون المسلمون مسئولية دخول الصليبيين دمياط على عاتق الأمير فخر الدين واتهموه بالخيانة والجبن وسوء التصرف ، وكان تصرفه هذا سببا فى تحقيق الحملة الصليبية السابعة نجاحا كبيرا باستيلائها على دمياط دون أن تراق دم جندى ، واحد من جنودها أو كما قال المؤرخ المسلم المقرئى أن استيلاء الصليبيين على دمياط كان « صفوا عقوا » « بغير كلفة ولا مؤنة حصار » . وإذا قارنا سقوط دمياط على هذا النحو بعد يوم واحد من نزول الحملة إلى الشاطئ وما حدث أثناء الحملة الصليبية الخامسة التى لم تستطع الاستيلاء على دمياط الباسلة إلا بعد حصار دام اشهر طويلة ، رغم أن دمياط وقتها لم تكن على نفس الدرجة من الحصانة والاستعداد للحصار مثل ما كانت عليه وقت استيلاء الحملة الصليبية السابعة عليها ، أدركنا على الفور مدى الجرم الذى ارتكبه الأمير فخر الدين الذى اعتبر بعض المؤرخين تصرفه هذا وصمة عار فى تاريخ حياته .

ولم تغب هذه المقارنة عن المؤرخ المقرئى الذى يعجب من ذلك ويقول « وقد كانت دمياط بآاء الملك الكامل لما نازها الفرنج أقل دخائر وعددا منها و

هذه النوبة ، ومع ذلك لم يقدر الفرخ على أخذها إلا بعد سنة ، وعندما فنى أهلها بالوباء والجوع ، وكان فيها هذه المرة أيضاً جماعة من شجعان بنى كنانة فلم يغن ذلك شيئاً .

أما المؤرخ أبو المحاسن فقد اعتبر سقوط دمياط فى يد الصليبيين بهذه السهولة « مصيبة لم يجر مثلها » وقد كانت كذلك بالفعل ، وقد اشتد حزن وغضب الملك الصالح نجم الدين ايوب ورغم مرضه إلا أنه أمر بشنق كبار أمراء بنى كنانة ، وعبثاً حاولوا الدفاع عن انفسهم وتبرير فرارهم والقاء المسئولية على الأمير فخر الدين . ولكن الملك الصالح أصر على تنفيذ الشنق فيهم وكان عددهم حوالى الخمسين أميراً . وقد عزز عقابه هذا بفتوى من العلماء ورجال الدين . وبعد أن تم شنق هؤلاء الأمراء أمر بصلبهم على النخل كما هم بشياهم ومناطقهم ، أما المماليك والأمير فخر الدين فقد أخذ الملك الصالح يؤنبهم على فعلتهم هذه وقال لهم « ما قدرتم تقضون ساعة بين يدي الفرخ » . ويقال أن الملك الصالح اراد أن يقتل الأمير فخر الدين ولكنه خشى من ثورة المماليك خاصة وأنه فى موقف حرج والعدو يهدد بالترحل صوب القاهرة وامتلاك كافة الديار المصرية وقد كتم غيظه وحنقه فى انتظار انتهاء الغمة وتناوله الفرصة لعقابه . وقد تخوف منه المماليك وارانوا القضاء عليه ولكن الأمير فخر الدين نهاهم عن ذلك وقال لهم أن السلطان على وشك الموت ، فان مات فقد استراحوا منه وان لم يميت فهو بين ايديهم يفعلوا به ما يشاؤون .

وقد أخذ المرض يشتد على الملك الصالح يوماً بعد يوم ، وبعد سقوط دمياط فى يد الصليبيين نقل معسكره من اشموم طناح إلى المنصورة ، ونزل بقصر كان للملك الكامل يطل على النيل ، وأخذ الجند يعملون على زيادة تحصينات المدينة وأقاموا الأسواق بها . كما جاءت سفن الاسطول المصرى وعليها المقاتلين وعسكرت فى النيل أمام المنصورة كذلك اجتمع بالمدينة اعداد كبيرة من المتطوعة والعربان وعامة الناس للجهاد ضد الصليبيين والحنولة بينهم وبين الوصول إلى القاهرة

أما الصليبيون في دمياط فانهم قد استولوا على كل ما وجدوه في المدينة من الاسلاب والغنائم كما حولوا جامعها إلى كنيسة اطلقوا عليها اسم كنيسة العذراء ، وعينوا لها بطريركا كاثوليكيا . والملاحظ أن الصليبيين لم يستغلوا انتصارهم هذا ويواصلون فتح باقى البلاد المصرية خاصة بعد أن أصيب المسلمون في مصر بالذهول والارتباك نتيجة لضياع دمياط ، ولكنهم ظلوا حوالى الخمسة أشهر في حالة جمود عسكري بدمياط ، وكان السبب في ذلك كما يذكر جوانفيل أن الملك لويس اراد الانتظار حتى وصول أخيه كونت بواتيه على رأس النجدة التى أخذ في جمعها من فرنسا ، وربما ارادوا بهذا الانتظار ألا يقعوا في نفس الخطأ الذى ارتكبته الحملة الخامسة عندما زحفت وقت فيضان النيل ، ولما كان الفيضان وشيكاً فقد آثروا الانتظار حتى ينتهى .

على أن هذه الأشهر التى قضاها الصليبيون بدمياط في حالة خمول وركود عسكري ، قد افادت المسلمين ، الذين عملوا على تنظيم انفسهم وتقوية استحكامات مدينهم ، كما أخذوا يشنون الغارات الليلية ويتخطفون الجند الصليبيين ، هذا في الوقت الذى أخذ فيه الصليبيون يفرطون في اللهو سواء الأمراء منهم أو البارونات أو عامة الجيش ، ويصف جوانفيل هذه الأمور فيقول :

« أما البارونات الذين كان عليهم واجب الاحتفاظ بما لهم للتصرف فيه في الوقت المناسب والمكان الملائم فقد أقاموا احتفالات ضخمة ، وأفرطوا افراطاً جما في تقديم اللحوم .

أما العامة فراحوا يراقصون النسوة الخليعات ، حتى لقد حدث بعد عودتنا من الأسر ، ان عزل الملك الكثيرين من رجاله ، فلما سأله عن الدافع الذى حمله على ذلك أنبأنى أنه وجد - بالتأكيد - أن الذين عزلهم قد أقاموا اماكن اجتماعهم الخبيثة على رمية حجر من فسطاطة ، وأن ذلك العمل منهم كان في الوقت الذى كان فيه الجيش يكابد أشد ضروب الشقاء والألم » .

ولم يكن هذا فقط ما عانت منه الحملة في دمياط ، ولكنها عانت كذلك من المشاحنات العديدة التي قامت بين العناصر المختلفة في الحملة وعلى سبيل المثال كان الفرنسيون يعادون الانجليز ، وكانت جماعات الرهيان المسلمين المشتركين في الحملة مثل جماعات الداوية والاستبارية دائمي النزاع والاختلاف في الرأي .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل لقد أخذت المؤن تنفذ ، كما أخذت العواصف العنيفة تجتاح الوجه البحري ، وتسببت في تحطيم ٢٤٠ سفينة للصليبيين .

وأخيرا وفي يوم ٢٤ أكتوبر ١٢٤٩ وصل كونت بواتيه مع باقي الجيش وقد اجتمع الملك لويس مع كبار رجال الحملة للتشاور في موضوع الطريق الذي ستسلكه الحملة ، وهل سيكون طريقهم إلى القاهرة عاصمة البلاد المصرية ، أم إلى الاسكندرية ، وكاد الاجتماع أن يكون تاما بينهم على سلك الطريق إلى الاسكندرية ، ولكن روبرت كونت ارتوا عارضهم وأصر على الزحف على القاهرة أولا على اعتبار ان سقوط العاصمة يعني سقوط مصر كلها في يدهم ، وعزز رأيه بقوله أن من يريد أن يقتل الأفعى لابد له أن يبدأ برأسها . وقد لقي هذا الرأي تأييد الملك لويس . وفي يوم السبت ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ غادر الصليبيون دمياط في طريقهم إلى القاهرة سالكين نفس الطريق الذي سبق أن سلكته الحملة الصليبية الخامسة على مصر . وتركوا مدينة دمياط في ظل حراسة قوية ، وبقيت بها الملكة مرجريت زوجة لويس التاسع .

في ذلك الوقت أخذ المرض يشتد على السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وفي ليلة الاثنين ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩ توفي السلطان . وكان للسلطان أربعة أبناء توفوا جميعا في حياة والدهم فيما عدا واحدا فقط هو الملك المعظم غياث الدين توران شاه ، وكان وقتذاك خارج البلاد المصرية يحكم نائبا عن ابيه في حصن كيفا ، وهنا برزت زوجة السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، لتقوم بدور بلرز سجله لها التاريخ ، وكانت من الممالك اعتقها نجم الدين وتزوجها ونصحت له

ابنا يدعى خليلا مات في حياة أبيه ، واصبح يطلق عليها اسم خليل » ،
وان كان اسمها الاصلى هو شجر الدر

لقد اظهرت شجر الدر حكمه ومقدرة كبيرة وبعد نظر ، إذ ادركت انه
إذا تم اعلان نبأ وفاة زوجها سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب فان ذلك
سيحدث بلبلة وتشتيتا لقوة الجند وربما صراعا بين الأمراء على الحكم ، لذلك
فقد اخفت هذا النبأ إلا عن اثنين من الرجال كانا موضع ثقتها وهما الأمير فخر
الدين يوسف ابن الشيخ والطواشى جمال الدين محسن وكان اقرب الناس إلى
السلطان نجم الدين أيوب . وقد وضعت جثة السلطان في تابوت وتم نقله في
سفينة نيلية من المنصورة إلى القاهرة حيث تم دفنه في القلعة القائمة في جزيرة
الروضة حيث توجد ثكنات المماليك البحرية . وحرصت شجر الدر على أن
يستمر كل شيء على ما هو عليه وكأن السلطان حي يرزق ، فاستمر الاطباء
موجودين بقصر السلطان حتى يظن الناس أن السلطان لا يزال مريضا ،
وظلت المكاتبات الرسمية تصدر باسم السلطان وتوقيعه ، ويقال أن شجر الدر
كانت بارعة في تقليد توقيع السلطان .

كذلك فان شجر الدر أبدت مروءة واخلاصا يفوق الحد لابن زوجها
المعظم توران شاه ، فقد جمعت الأمراء وطلبت منهم باسم الصالح نجم الدين
أيوب ان يحلفوا له ثم من بعده لأبنه المعظم توران شاه المقيم بمحصر كيفا ،
وكتب إلى نائب السلطان بالقاهرة تخبره بذلك . وقد نفذ الأمراء والجند رغبة
السلطان وحلفوا له ولابنه المعظم توران شاه ، واصبح يخطب له على المنابر بعد
ايه ونقش اسمه على سكة الدراهم والدنانير بعد ايه . وبعد ذلك اسرعت
شجر الدر إلى مكاتبة توران شاه وارسال الرسل واحدا تلو الآخر لاستدعائه
إلى مصر . لكن الاحداث اثبتت أن المعظم توران شاه كان شخصا سيئا
الاخلاق بدلا من أن يحفظ لزوجته ايه هذا الجميل ويكرمها ، فانه أخذ يسيء
اليها كما سنرى فيما بعد .

ترك السلطان الجديد الملك المعظم توران شاه في طريقه إلى مصر ، ونرى

ما فعله الصليبيون بعد مغادرتهم دمياط قاصدين القاهرة ، فقد وصلوا إلى قرية فارسكو يوم الخميس ٢ ديسمبر ١٢٤٩ دون أن يواجهوا بمقاومة تذكر من جانب المسلمين . وواصل الصليبيون زحفهم مسرعين تاراه ومتباطئين تاره أخرى وقد حدث اشتباك عنيف بين مقدمتهم وكانت من الفرسان الداوية ومع قوات المسلمين في منطقة تقع بين فارسكور وشارمساح ، وقد انتهى هذا الاشتباك بانتصار الصليبيين الذين واصلوا تقدمهم حتى وصلوا إلى شارمساح ثم إلى البرامون ومنها وقفوا عند منطقة شمالي بحر اشمون واصبح لا يفصل بينهم وبين القوات الإسلامية غير بحر اشمون . وقد استقر الصليبيون في هذه المنطقة وأقاموا معسكرهم فيها وحصنوه عن طريق بناء المتاريس والخنادق ، واستعدوا لمنازلة المسلمين .

أما القوات الإسلامية فكانت تحت قيادة الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ وهو نفسه الذي تسبب في الكارثة التي حلت بدمياط ورغم ذلك ، فانه ظل محبوبا من الناس فعهد اليه بقيادة الجيوش ومواجهة الصليبيين إلى أن يصل المعظم تورااه شاه .

وقد عسكرت القوات الإسلامية على الضفة الأخرى المواجهة للصليبيين وأصبح يفصل بينهما بحر اشمون ، وكان من الطبيعي أن يحدث مناوشات واشتباكات بين الطرفين ، وحاول الصليبيون أن يردموا مجرى بحر اشمون ويقيموا جسرا يتمكنوا عن طريقه من العبور للضفة الأخرى والاتحام مع المسلمين وجها لوجه ، وقد امضوا ثلاثة اسابيع وهم يعملون في اقامة هذا الجسر حتى انتهوا منه ، وبمجرد انتهائهم قام المسلمون بتخريبه في يوم واحد ، ويصف جوانفيل هذه الحادثة بقوله :

« ورأى الشرقيون افساد الجسر الذي أمر الملك ببناؤه ، فعمدوا إلى حفر فتحات أمام معسكرهم لا تكاد تصلها المياه حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه ، وبذلك أفسدوا في يوم واحد ما أجهدنا انفسنا ثلاثة اسابيع في عمله ، وذلك أنه كلما رد منا قسما من المجرى من ناحيتنا كلما زادوه من

جانبهم بواسطة الفتحات التى يحدثونها » وقد فاجأ المسلمون الصليبيون بسلاح جديد لم يعرفه الغرب الأوروبى فى تلك الفترة وأن كان البيزنطيون قد عرفوه منذ زمن بعيد منذ القرن السابع الميلادى ومنهم انتقل إلى المسلمين ، وكان هذا السلاح هو النار الاغريقية ، وهى عبارة عن مركب من النفط والزيت والكبريت المجدد بنوع من الصمغ قابل للاشتعال يدفع فى ماسورة المدفع فى اتجاه المكان المراد احراقه وعند سقوطه ينتشر فى انحاء المكان فلا يتركه إلا بعد أن يصبح رميما ، وأول من اخترع هذه النار هو مهندس اغريقى اسمه كالينيكس من مدينة هليوبوليس بالشام .

وقد انزعج الصليبيون أيما انزعاج عند رؤيتهم لهذا السلاح الجديد الذى فاجأهم المسلمون به ، ولنرجع إلى جوانفيل ايضا لنستقى منه المعلومات عن مدى الفزع الذى أصاب معسكرهم وعلى رأسهم الملك لويس من جراء الخسائر التى انزلتها بهم هذه النيران يقول جوانفيل :

« حدث فى ذات ليلة من ليالى حراستنا الابراج المشرفة على الطرق المقفلة أن جلب المسلمون آلة تعرف « بالمقلع » لم تكن لديهم قبل ذلك الحين ، ووضعوا النار الاغريقية فى حمالة الآلة ، فلما طالع لورد وولتر الفارس الطيب الذى كان معى قال : أيها اللوردات : اننا فى أخطر وضع تعرضنا له حتى الآن ، ذلك انهم إذا اضرموا النيران فى ابراجنا وبقينا حيث نحن فلا بد اننا هالكون بالحريق ، وإذا غادرنا اماكن دفاعنا هذه التى وكلت حراستها الينا فقدنا شرفنا ، ولن يدفع عنا الخطر سوى الله وحده ، لذلك فان النصيحة والرأى عندى ان ننطرح على ايدينا وركبنا كلما قدفونا بالنيران ، وندعو مخلصنا ان يقينا شر هذا الخطر .

فلما أخذ وافى اطلاق النار انطرحنا ارضا على معاصمنا وركبنا كما علمنا ، وسقطت القذيفة الأولى بين برجينا القائمين بحراسة الطرق المقفلة ، واستقرت امامنا فى الحفرة التى كان الجيش يعمل على اطفاء النار بها ، وكان المسلمون لا يستطيعون اصابة هدفهم مباشرة لوجود جناحى الجيش اللذين أمر بهما الملك ،

فكانوا يطلقون قذائفهم نحو السحاب فتسقط القذائف على رأس رجال المطافئ.

وكانت النار الأغريقية تأتي من الأمام أشبه ما تكون ببرميل كبير من النار ، ذات ذنب يقارب الرمح طولا ، وكان يصحبها صوت هائل كدوى الرعد ، وكأنها طائر في الجو تشع بنور كبير يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شيء وكأنه في وضوح النهار ، وقد أطلق المسلمون النيران علينا من مدافعهم ثلاث مرات تلك الليلة وأربع مرات بواسطة الأقواس المتحركة .

وكان ملكنا القديس كلما سمع صوت قذائف النار الاغريقية جلس في فراشه ورفع يديه وعينه إلى مخلصنا وهتف باكيا « أيها الرب السيد الحنون احفظ لى شعبى » . واننى لمعتقد حقا أن صلواته قد اسعفتنا في شدتنا وكان كلما وقعت قذيفة بالليل أرسل إلينا أحد حجابيه يسألنا كيف أصبحنا وعمّا إذا كانت النار اصابتنا بضرر ما » .

وازاء هذا السلاح الجديد الذى انزل ابلغ الضرر بالمعسكر الصليبي ، بعد أن راح المسلمون يستعملونه في الليل وفي النهار ، احتار الصليبيون ماذا يفعلون وراح الملك لويس يجتمع مع امرائه وباروناته للتشاور فيما ينبغي أن يفعلون ، دون أن يصلوا لحل لهذه المشكلة .

لكن بعض الخونة من الأعراب وربما كانوا من غير المسلمين قد دلوا الصليبيين على مخاضة سرية يستطيعون عن طريقها عبور بحر اشموم والوصول إلى معسكر المسلمين خارج المنصورة ، وقد رحب الصليبيون بهذا العرض وبالفعل اتفقوا على خوضها وكانت أول فرقة من الفرسان تخوض تلك المخاضة وتصل إلى معسكر المسلمين في يوم الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠ تتألف من الداوية ورئيسهم وفرقة اخرى بقيادة روبرت كونت ارتوا شقيق الملك لويس وفرقة انجليزية صغيرة ، وقد هجمت هذه الفرقة على معسكر المسلمين على حين غرة ففوجئ المسلمون بهم وتشتت شملهم ولكن الاسير فخر الدين قائد القوات

الإسلامية اندفع بين صفوف الصليبيين مستميتا في الدفاع ، ولما كان قد نسي في عجلته أن يرتدى درعه ، فقد أصيب في جنبه وتلقفته سيوف الصليبيين واجهزوا عليه ، وهكذا سقط هذا الأمير شهيدا في ميدان القتال ومحي عن نفسه العار الذي لحقه بعد فراره وتسببه في سقوط دمياط في يد الصليبيين .

وهكذا تم للصليبيين احراز هذا الانتصار على المسلمين الذين فروا إلى المنصورة ، واحتتموا في داخلها . وقد اصر روبرت كونت ارتوا على اقتحام مدينة المنصورة مع قواته وعدم انتظار وصول قوات باقى الجيش الصليبي ومعهم الملك لويس . وقد نصحه من معه بالتمهل دون جدوى ، وهكذا سعى لحتفه ، ذلك أنه اقتحم المنصورة مع قواته مطارداً القوات المسلمين وتوغلوا داخل شوارع وازقة المنصورة ، وكان الجيش الإسلامى قد استرد شجاعته واستجمع قواه خارج المدينة وكان من حسن الحظ أن وجد في شخصية ركن الدين بيبرس البندقدراى رئيسا قديرا ، جمع القوات الإسلامية المشتتة وتعقب الصليبيين داخل المنصورة منزلا بهم اشد أنواع القتل ، فلما لاذوا بالبيوت يريدون الاحتماء بها انهار عليهم سكانها بالضرب والرمى بالحجارة والطوب . وقد وصف هذه المعركة أحد المؤرخين المسلمين فصورها تصويرا دقيقا فقال : « قال بعض من حضر هذه الواقعة : والله كنت اسمع زعقات الترك كالرعد القاصف ، ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف ، فله درهم لقد احيوا في ذلك اليوم الإسلامى من جديد بكل أسد من الترك قلبه أقوى من الجهد . فلم تكن الا ساعة واذا بالفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين وأسود الترك لأكتاف خنازير الفرنج ملتزمين » .

وهكذا انتهت معركة المنصورة هذه بانتصار المسلمين والقضاء على افراد هذه القوة التى كانت بمثابة مقدمة للجيش الصليبي الزاحف صوب المنصورة . وكان بين القتلى روبرت كونت ارتوا شقيق الملك لويس . ولم يعلم الملك لويس بأمر هذه الهزيمة التى لحقت بمقدمة قواته ، وقد عبر هو وباقى الجيش مخاضة بحر اشموم وانتقلوا على الضفة الجنوبية التى يربط فيها المسلمون ، وقد وقع اشتباك عنيف بين الطرفين وكان القتال يدور وجهها لوجه بحيث انه

اشتبكت الاجساد واختلطت السيوف بعضها ببعض . وقد احرز المسلمون انتصاراً كبيراً ، وان كان القتلى من كلا الجانبين عددهم كبيراً . وقد انسحب الصليبيون بقيادة الملك لويس وكانوا في طريقهم إلى معسكرهم شمال بحر اشموم حين جاءته الانباء بان شقيقه كونت ارتوا يقاتل المسلمين داخل المنصورة وحده وانه في حاجة إلى نجدة سريعة ، فعاد الملك وحول اتجاهه قاصدا المنصورة ولكن فرسان المسلمين لم يمكنوه من ذلك واشتبكوا مع جيشه في القتال من جديد مما زاد في كثرة الخسائر في الارواح في الجانب الصليبي ولما وجد الملك لويس استحالة ذلك ، عاد بالبقية الباقية من رجاله إلى معسكرهم شمال بحر اشموم ، واثناء عبورهم هذا البحر في طريق عودتهم طاردهم المسلمون وقتلوا منهم عددا كبيرا كما سقط عدد آخر غرق في البحر . ورغم هذا كله إلا أن الصليبيين نجحوا في الاحتفاظ بمعسكر المسلمين جنوبى بحر اشموم وسيطروا عليه .

ثم حدث اشتباك آخر بين الصليبيين والمسلمين في يوم الجمعة ١١ فبراير ، وقاد المعركة من الجانب الإسلامى بيرس البندقدارى ومن الجانب الصليبي الملك لويس ، وقد الحق المسلمون بالصليبيين خسائر فادحة في الأرواح ، ولم يجد الصليبيون طريقه يتخلصون فيها من جثث قتلاهم سوى أن يلقوا بها في مياه بحر اشموم وفي نهر النيل ، ولكن بعد وقت قصير بدأت الجثث تطفوا على سطح الماء ، فأمر الملك لويس بجمعها ودفنها في باطن الأرض . وقد ادى كل ذلك إلى تفشى الوباء في المعسكر الصليبي بشكل خطير حتى كان موتاهم يوميا لا يقلون على العشرين شخصا .

وفي يوم ٢٥ فبراير وصل الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة وبعد أن درس الموقف وعلم بموقع معسكر الصليبيين ، لجأ إلى نفس الخطة التى سبق أن لجأ اليها جده الملك الكامل وكانت سببا في القضاء على الحملة الصليبية الخامسة ، فأصدر أوامره بان تقطع السفن الاسلامية الاتصال البحرى بين سفن الاسطول الصليبي وقاعدتهم في دمياط . وقد اتيح لهذه السفن الإسلامية أن تشتبك مع سفن الصليبيين المملووعة بالموثن والتي كانت في طريقها من دمياط

إلى معسكر الصليبيين شمال بحر اشموم ، وتمكنت سفن المسلمين أن تستولى على ٥٢ سفينة منها . بينما وقع قرابة الألف صليبي بين قتيل واسير ، واقتيد الأسرى على الجمال إلى القاهرة .

وفي يوم الثلاثاء ١٥ مارس ١٢٥٠ حدث اشتباك آخر بين سفن الفريقين واستولى المسلمون على اثنتين وثلاثين سفينة من السفن الصليبية .

وكان من نتيجة قطع المسلمين الطريق على السفن الصليبية ومنع وصولها بالموثون إلى المعسكر الصليبي شمالى بحر اشموم ان كاد الصليبيون ان يموتوا جوعا . ويقول جوفانفيل « أدت هذه الأمور جميعا إلى أن عم الغلاء المعسكر ، فما وافى عيد الفصح حتى بيع الثور بثمانين جنيها ورأس الغنم بثلاثين والخنزير بثلاثين ، وبلغ ثمن البيضة الواحدة عشرة دينة ، وبيع كأس الخمر بعشرة جنيها » .

ومع ادراك الملك لويس للظروف السيئة التى اضحوا فيها ، بعد أن نفذت مؤونتهم وتحطمت عدتهم ونقص عددهم ، فتح باب المفاوضات مع المسلمين وعرض عليهم تسليمهم دمياط ومغادرة البلاد المصرية مقابل تنازلهم عن بيت المقدس وبعض المدن الساحلية فى فلسطين للصليبيين . وكان من الطبيعى أن يرفض المسلمون ذلك العرض لأنه لم يكن يخفى عليهم الموقف السيء الذى امسى فيه الصليبيون .

وهكذا أصبح أمام الصليبيين أحد أمرين ، فأما أن يظلوا فى معسكراتهم شمالى وجنوى بحر اشموم وفى هذا هلاكهم بعد أن نفذت المؤن وتفشت الامراض بينهم ، بما فيهم الملك لويس نفسه الذى اصاب بالوباء الذى تفشى فى الجيش إلى جانب اصابته بمرض الدوسنتاريا الحادة ، حتى كان يغمى عليه فى الليلة الواحدة عدة مرات . وبين أن يعودوا ادراجهم إلى مدينة دمياط للتحصن بها . وقد اختار لويس الحل الثانى للمشكلة التى امسوا فيها ، واصدر أوامره بانسحاب قواته من معسكر المسلمين الذى احتلوه جنوى بحر اشموم وافت نظرهم إلى ضرورة تدمير الجسر الذى يصل بين شمالى وجنوى بحر اشموم بعد

أن يعبروا عليه ، ولكنهم في عجلتهم وارتباكهم نسوا قطع ذلك الجسر ، فعبّر المسلمون عليه وركبوا اقفيتهم واخذوا في مطاردتهم مكبدين اياهم خسائر فادحة في الأرواح حتى وصلوا إلى قرية فارسكور هناك كانت خاتمة المطاف والكارثة الأخيرة التي حلت بالصليبيين على يد المسلمين ، فقد أوسع المسلمون الصليبيين قتلًا وذبحًا وأسرا ، وقيل أن خسارة الصليبيين عند فارسكور وحدها بلغت ثلاثين ألف رجل ، في حين لم يستشهد من المسلمين سوى عددا ضئيلا لا يربو على المائة نفس .

وبعد هذه الكارثة التي حلت بالحملة الصليبية ، وبعد أن هلك معظم افراد الفرقة التي كان يقودها الملك لويس ، انضم هذا الملك إلى فرقة عسكرية أخرى من جيشه وانتهى المطاف عند قرية تدعى منية أنى عبد الله . « فوضعه في منزل وسجوه كأنه ميت ، بعد أن وضعوه في حجر امرأة من باريس وظنوا انه لن يبقى حياً حتى الليل » .

وذلك على حد تعبير مؤرخ الحملة جوافيل .

وحين تاب الملك لويس إلى رشده ، ارسل رسولا من قبله إلى أقرب قائد مسلم يخبره برغبة الملك في ايقاف القتال واقرار الصلح . وفي الحال أصدق المسلمون بالملك لويس ومن كان معه من الفرسان الصليبيين ، الذين ارادوا مقاومة المسلمين دفاعا عن الملك ، ولكن المسلمين قاتلوهم واشتدوا في قتالهم حتى ابادوهم عن آخرهم ، ثم القوا القبض على لويس واقتادوه اسيرا إلى مدينة المنصورة . حيث انزلوه هو وشقيقه كونت انجو وكونت بواتيه ، في دار القاضي فخر الدين بن لقمان . وقد اكرمهم السلطان توران شاه ورتب للملك من يقوم على خدمته . وقد اشد المؤرخون الصليبيون الذين اشتركوا في هذه الحملة بالمعاملة الطيبة التي عومل بها الملك لويس من جانب المسلمين وقد ارسل له السلطان خلعه نفيسه ودعاه لحضور حفل كبير اقامه له ، ولكن لويس رفض الخلعه كما رفض حضور الحفل ظنا منه أن السلطان ما دعاه لهذا الحفل إلا لكي يسخر منه ويمتن كرامته على مرأى من الجميع .

ولم تمضى اياما قليلة على وقوع الصليبيين فى الأسر حتى طلب السلطان المعظم توران شاه فتح باب المفاوضات مع الملك الفرنسى ، وقد حاول المعظم توران شاه أن يجبر الملك لويس على الموافقة على تخلى الصليبيين عن بعض ممتلكاتهم فى فلسطين أو الشام ولكن لويس رفض ذلك موضحا انها ليست فى قبضته ولا تخضع لسلطته وبالتالى ليس له الحق فى التنازل عنها ، وفى النهاية تم عقد الهدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات وكانت شروطها تتضمن النصوص التالية :

- ١ - تسليم مدينة دمياط للمسلمين فدية عن الملك لويس .
 - ٢ - يدفع الملك لويس مبلغ ثمانمائة ألف بيزنط (وهى عملة ذهبية بيزنطية وهذا المبلغ يساوى ٣٦٠,٠٠٠ جنيه مصرى) . فداء عن باقى الاسرى الصليبيين .
 - ٣ - اطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين الموجودين فى أسر الصليبيين .
 - ٤ - أن يعمل المسيحيون على حفظ الأمن وإقرار السلام فى جميع البلاد التى يحتلونها فى فلسطين .
 - ٥ - اطلاق سراح الاسرى الصليبيين الموجودين فى أسر المسلمين .
 - ٦ - أن يقوم السلطان بالعمل على حماية وحراسة عتاد الصليبيين واثقالهم الموجودة بمدينة دمياط بعد رحيلهم عنها إلى أن تسنح الفرصة لنقلها إلى البلاد المسيحية .
 - ٧ - أن يمنح المرضى المسيحيين وغيرهم ممن سيقون فى دمياط الأمان حتى يبيعون ما يملكونه ، إلى أن يرحلوا عن البلاد المصرية .
- وقد اقسم الطرفان على احترام شروط هذه الهدنة والمحافظة عليها وعدم الإخلال بها .

وعقب التصديق على هذه الهدنة ، رحل لويس عن الأراضى المصرية متخذا طريقه إلى الشام وعلى هذا النحو انتهت أحداث الحملة الصليبية السابعة على

مصر ، بعد أن أصيبت بكوارث وتعرضت لمحن شديدة ، انتهت بوقوع زعيمها وقائدها ملك فرنسا لويس التاسع اسيرا في يد المسلمين ، ولم تحقق هذه الحملة سوى الفشل الذريع الذي أكد مهارة المسلمين العسكرية وبلاءهم الحسن في القتال ورد المعتدين عن أراضيهم وتكبيدهم الخسائر الجمة في المعدات والأرواح على النحو الذي تم عرضه خلال سرد أحداث هذه الحملة .

نهاية الدولة الايوبية :

لقد مر بنا كيف حافظت شجر الدر على ملك زوجها الصالح نجم الدين ايوب بعد وفاته وأرسلت في طلب ابنه توران شاه الذى كان مقيماً في حصن كيفا ، الذى أسرع بإتخاذ طريقة إلى مصر ووصل إلى المنصورة ، والاجراءات التى اتخذها وكان لها أثرها في فشل حملة لويس التاسع على مصر وأسر الملك الفرنسى .

على أن توران شاه لم يحفظ هذا الجميل لزوجته أبيه شجر الدر التى كانت قد غادرت البلاد بعد وصوله إليها وذهبت إلى بيت المقدس ، فأرسل إليها مهددا متوعدا يطالبها بأموال أبيه ، فأرسلت شجر الدر إلى زعماء المماليك البحرية وأخبرتهم بتهديد توران شاه لها وكيف أنه لم يحفظ جميلها ويطالبها بما ليس عندها . ولم يكن زعماء المماليك البحرية في حاجة إلى تحريض ، بعد ما أساء إليهم جميعا توران شاه وتنكر لهم ، وقد أساء السيرة وأخذ ينصرف إلى الفساد ، وقد رأوه وهو سكران بالليل يجمع الشموع بين يديه ويضرب رؤوسها بالسيف واحده بعد أخرى حتى تنقطع ويقول « هكذا أفعل بالبحرية » ، ويسمى كل واحد من زعماء المماليك البحرية بأسمه .

أضف إلى ذلك أن الفارس أقطاي الذى كانت شجر الدر أرسلته لاحتضار توران شاه من حصن كيفا ، قد أخذ وعدا من توران شاه بأن يؤمره ، ولكن توران شاه تنكر لوعده له ، فأضمر له أقطاي الشر .

وفي يوم الاثنين ٢٨ المحرم ٦٤٨ هـ / ٢ مايو ١٢٥٠ م ، مد السباط للمعظم توران شاه في سرادقه المقام على ضفة النيل في فارسكور ، وبعد أن تناول الطعام مع بعض أمرائه ذهب إلى خيمته ، فدخل عليه أحد الامراء وهو بيبرس البندقدارى ، وضربه بالسيف ، فتلقى توران شاه الضربة بيده مما تسبب في قطع بعض اصابعه ، فثار واتهم المماليك البحرية بمحاولة قتله وأقسم على أن يفتنيهم ولا يبقى لهم أثرا . عند ذلك اجتمع رأيهم على التخلص منه قبل ان يتخلص هو منهم . وقد ذهب توران شاه إلى برج خشبي نصب له في فارسكور ليضمد جرحه ، ولكن المماليك أحاطوا بالبرج وطلبوا منه النزول

إليهم فرفض واحتذى بأعلى البرج فرموا البرج بالنار الاغريقية ، وكان البرج مصنوعاً من خشب الشربين والقطن وسرعان ما احترق البرج ، ويقول جوانفيل الذى كان شاهد عيان لكل ما حدث أنه لم ير في حياته قط لهباً أجمل مرآى وأقوى شدة من هذا اللهب .

عند ذلك رمى توران شاه بنفسه من أعلى البرج إلى النيل فرموه بالسهم ولحقوا به في النيل حيث قتله الفارس أقطاي وأنتزع قلبه من بين ضلوعه ، وحسب رواية جوانفيل ، فإن أقطاي دخل على الملك لويس ويدها ملوثتان بالدماء وقال له : « ترى ماذا تعطينى إذ قتلت عدوك الذى لو عاش لقتلك ؟ » فلم يجبه لويس بأية كلمة ، وربما ارتعد من الخوف ، لئلا يجرى عليه مثل ذلك .

وقد بقيت جثة توران شاه ملقاه على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يجرؤ أحد على دفنها حتى شفع فيه رسول خليفة بغداد ، فحمل إلى الجانب الآخر من النيل ودفن هناك .

وبمقتل توران شاه في ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) إنتهت الدولة الايوبية بعد حكم استمر لمدة ~~ثمانين~~ ^{ثمانين} عاماً ، حققت خلال هذه الحقبة الزمنية الكثير من المجد والانتصار على العدو الصليبي الذى جثم على أنفاس الوطن الإسلامى في الشرق الادنى والذى أضطلعت هذه الدولة بعبء مكافحته والنضال ضده مسجلة بذلك أروع صفحات الجهاد التى حفظها لها التاريخ .

الفصل السابع
مظاهر الحضارة في العصر الايوبي

القوة العسكرية

لقد سبقت الإشارة إلى أن الدولة الأيوبية قد عاصرت اشد مراحل الحروب الصليبية ضراوة وعنفا ، وقد تعرضنا في الصفحات السابقة لنضال صلاح الدين ضد الصليبيين وكفاح خلفائه من البيت الأيوبي من أجل البقاء واستمرار ملكهم في مصر ، ضد جحافل القوات الصليبية المغيرة على الديار المصرية في حملتين يعتبران من أكبر الحملات الصليبية ولا شك في أن الفضل يعود في نضال الأيوبيين ضد الصليبيين واحرازهم هذه الانتصارات عليهم إلى القوة العسكرية ممثلة في الجيش والاسطول الذي وقع عليهما عبء هذا النضال الطويل .

وقد أولى صلاح الدين اهتماما كبيرا للقوة العسكرية في دولته في مصر والشام ، وبث روح الحرب والجهاد في نفوس المسلمين وتهيئة عقولهم لهذا الواجب المقدس عن طريق المدارس العديدة التي أنشأها في مصر والشام . وكان مجلسه لا يخلو من ذوى الفضل الذين كانوا يتجادبون أطراف الفوائد وفضائل الجهاد وفرائض التأهب والاستعداد له . وكان الرجل الذي يرغب في كسب ود صلاح الدين يرى أن أقصر طريق للوصول لغرضه هو في حثه على الجهاد أو أن يروى له شيئا من أخبار الجهاد وقد ألقت كتب عديدة لصلاح الدين في موضوع الجهاد ، ويقول القاضي الفاضل في هذا الشأن : « أنا من جمع له في الجهاد كتابا جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فيه ، وشرحت غريبها ، وكان رحمه الله كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل » .

وكان الجيش يتكون من جنود نظاميين دائمين وآخرين مساعدين يتقاضون اجرا مقابل ما يقدمونه من خدمات عسكرية أى بمعنى آخر جنود مرتزقة ، من التركمان والاكراذ والعربان .

وقد أعاد صلاح الدين تنظيم الجيش الأيوبي عدة مرات ، وفي عام ٥٧٧ هـ

(١١٨١ م) بلغ تعداد الجيش الايوى فى مصر ٨٢٤٠ فارسا ، وبلغت النفقة عليهم ٣,٦٧٠,٦٠٠ دينار .

ولم يظل الجيش طوال العصر الايوى على حال واحدة من الكثرة العددية ، إذ لم يلبث أن انخفض عدده بعد وفاة صلاح الدين ، ثم ازداد عدده وارتفعت نفقاته أيام السلطان الكامل عندما هددت مصر الحملة الصليبية الخامسة .

أما عن نظام الجيش فكان ينقسم إلى « اطلاب » وهو عبارة عن كتيبة يتراوح عدد افرادها بين ٧٠ إلى ٢٠٠ جنديا . وكان على رأس كل طلب منها أمير أى ضابط . وعند السير للقتال كانت توزع الاسلحة والزرذ والنفقات على الجنود ، على أن يحضر كل منهم ما يلزمه من كميات المؤن طوال الفترة التى يستغرقها القتال ، وكانت تقام الأسواق خصيصا لذلك .

وكان الفارس الواحد النظامى ، يتقاضى مرتبا يتراوح بين ٧٠٠ ، ١٢٠٠ دينارا ، لذلك كان الاحتفاظ بجيش نظامى دائم يثقل كاهل خزينة الدولة ، فلجأ صلاح الدين إلى تعميم نظام الاقطاع الحرى ، بمعنى أن ينهض امراء الاجناد بما يوزع عليهم من اقطاعات بالانفاق على كتائبهم التى تدخل ضمن الجيش العام زمن الحرب .

كان ذلك فيما يتعلق بالجيش أما عن الاسطول ، فقد تعهد صلاح الدين بالاهتمام والرعاية وأفراد له ديوانا خاصا للانفاق عليه عرف باسم « ديوان الاسطول » وفى سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) عين صلاح الدين أخاه العادل رئيسا عاما لديوان الاسطول .

وقد تولى هذا الديوان الانفاق على دور الصناعات المختلفة وامدادها بكل ما تحتاج اليه من اخشاب وآلات .

وخصص صلاح الدين لديوان الاسطول اموالا ضخمة هى متحصلات اقليم الفيوم وحصيلة النطرون التى بلغت وقتذاك ثمانية آلاف دينار وايراد ديوان الزكاة وقدره أكثر من خمسين ألف دينار .

وقد استعان صلاح الدين في بناء الاسطول بالاعشاب المحلية الموجودة في مصر ، وكذلك أخشاب الصنوبر والأرز التي تنبت في الشام (لبنان) فضلا عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبل بالقرب من بيروت ، هذا إلى جانب الاستعانة في هذا الأمر بالجمهوريات الإيطالية وخاصة البندقية ، فتم عقد معاهدات تجارية من أجل الحصول على الحديد والأخشاب . شمع اللازم لصناعة السفن . وكثيرا ما حرم البابوات على هذه الجمهوريات التعامل مع المسلمين وامدادهم بهذه المواد الأساسية ، ولكن ذهبت جهودهم ادراج الرياح ، نظرا للكسب المادي الوفير الذي كان يعود على هذه الجمهوريات من هذه التجارة الراجعة .

وكان يوجد بالاسكندرية ديوان يسمى المتجر السلطاني ، كان يقوم بشراء مختلف انواع البضائع المستوردة من الخارج واللازمة للجيش والاسطول كالأخشاب والحديد والأقمشة الصوفية .

وبفضل هذه الجهود ، استطاع صلاح الدين أن يكون اسطولا قوامه ثمانون قطعه بحرية ، منها ستون من الشواني وهي سفن ضخمة مزودة بالابراج والقلاع وتحمل الواحدة منها ١٥٠ رجلا وتستعمل هذه السفن في حالات الهجوم والدفاع .

ومن السفن التي استخدمت في هذا الاسطول ، الطرادات ، ومفردها طراة وهي سفينة سريعة الحركة تحمل الخيل .

وقد قسم صلاح الدين هذا الاسطول إلى قسمين قسم كان يقوم بالهجوم ضد العدو ، والقسم الآخر كانت مهمته حماية شواطئ مصر والشام ضد هجمات الأعداء .

هذا وقد بذل صلاح الدين جهده في سبيل تقوية اجهزة الدفاع وتحصين الثغور المصرية المطللة على البحر مثل الاسكندرية ودمياط وتيس ، فأمر بعمارة أسوارها وأربراجها وحفر الخنادق حولها .

وقد حرص صلاح الدين على رفع أجور رجال الاسطول لتحسين أحوالهم وقرر بأن يكون دينار الاسطول $\frac{2}{3}$ الدينار العام بعد أن كان $\frac{5}{8}$ ذلك الدينار ، أى بزيادة قدرها عشرين فى المائة تقريبا ، كذلك استخدم الملاحين من المغاربة فى اساطيله نظرا لمهارتهم الكبيرة فى ميدان القتال البحرى .

وقد كان من نتيجة اهتمام صلاح الدين بالاسطول أن تمكن من احراز الانتصارات البحرية على الصليبيين على النحو الذى جرى ذكره فيما سبق ، مثل مطاردة الاسطول المصرى بقيادة حسام الدين بن لؤلؤ سفن ارناط وافساده لمشروعه الخاص بغزو الحجاز ، وكذلك الدور الذى لعبه الاسطول اثناء حصار الصليبيين لعكا .

على أنه بعد وفاة صلاح الدين لم يهتم خلفاؤه من البيت الأيوبي بشأن الاسطول ، ولذلك فقد اصابه الضعف والاهمال ، ويصور المؤرخ المقرئى ما صار اليه حال الاسطول والعاملين به فيقول :

« فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب ، استمر الحال فى الاسطول قليلا ثم قل الاهتمام به ، وصار لا يفكر فى أمره إلا عند الحاجة اليه ، فاذا دعت الضرورة إلى تجهيزه ، طلب له الرجال وقبض عليهم فى الطرقات ، وقيدوا فى السلاسل نهارا ، وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا ، ولا يصرف لهم إلا شئ قليل من الخبز ونحوه ، وربما أقاموا الايام بغير شئ كما يفعل بالأسرى من العدو ، فصارت خدمة الاسطول عارا يسب به الرجل ، وإذا قيل لرجل فى مصر يا أسطولى ، غضب غضبا شديدا بعد ما كان خدام الاسطول يقال لهم المجاهدون فى سبيل الله والغزاة فى اعداء الله ، ويتبرك الناس بدعائهم » .

على انه عندما تعرضت مصر للغزو من جانب الصليبيين عاد الايوبيون من جديد للاهتمام بالاسطول ، وظهر ذلك بوضوح فى الوصية الشهيرة التى كتبها السلطان الايوبي الصالح نجم الدين ايوب لابنه المعظم توران شاه ، والتى جاء بها « ... فالاسطول أحد جناحي الإسلام ، فينبغى رجاله أن يكونوا شباعا ، ورجال الاسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة راتبه ، جاؤا من كل فج عميق .. » .

الحياة الدينية :

تجدر الإشارة هنا إلى أن الدولة الأيوبية قد خلفت الدولة الفاطمية الشيعية ، فلما أصبحت البلاد في يد صلاح الدين الأيوبي ، حاول جاهدا القضاء على المذهب الشيعي وإقامة المذهب السني ، وقد لجأ صلاح الدين أثناء ذلك إلى القتل والعنف ، كما لجأ أيضا إلى الأساليب السلمية والسياسية وإنشاء المدارس ، وقد مر بنا كيف أن الشيعة بمصر لم يستسلموا لذلك وقاموا بعدة فتن وثورات واستعانوا بالقوى الخارجية لمساعدتهم ، غير أن صلاح الدين نجح في القضاء على هذه الفتن وعلى اتباع المذهب الشيعي .

وقد أخذت ظاهرة التصوف تزداد وضوحا في عصر الأيوبيين وأكثر الأيوبيون من بناء منازل للصوفية عرفت باسم الخنقاوات وكان يخصص للصوفية بها في كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، كما خصص لهم الحمامات . والمؤرخ المقرئ أيضا يمدنا بصورة عن حياة أولئك الصوفية فيقول أن الناس اعتادوا أن يشاهدوا صوفية خانقاة سعيد السعداء وهي أول دار للصوفية بناها السلطان صلاح الدين بالقاهرة ، فكان هؤلاء الصوفية يخرجون من دارهم إلى جامع الحاكم لصلاة الجمعة ، في موكب جميل ، ويؤدون فريضة الصلاة في موضع أعد خصيصا لهم ، ثم يدعون للسلطان صلاح الدين بعد تأديتهم للصلاة ، ويعودون إلى الخانقاة بنظام .

النظام الإداري :

لقد أصبح صلاح الدين سيد البلاد المصرية وحاكمها الأوحده ، وكان على رأس الجهاز الإداري للبلاد . ولما كان كثير التغيب عن مصر بسبب حروبه وجهاده ضد الأعداء ، لذلك فقد استحدث صلاح الدين وظيفة « نائب السلطنة » ، وهو الشخص الذي ينوب عن السلطان أثناء غيابه ، واستمرت هذه الوظيفة قائمة في عصرى الأيوبيين والمماليك .

والثابت تاريخيا أن صلاح الدين لم يتخذ لقب « سلطان » رسميا ، وإن

كان خلفاؤه قد تمسكوا به حتى نهاية العصر الأيوبي ، وكذلك تمسك به من حكم البلاد من المماليك .

وكان هناك عدة وظائف هامة منها وظيفة (الحاجب) الذى يقوم بادخال الناس على السلطان ، ووظيفة (الأستاذار) الذى ينظر فى إدارة البيوت السلطانية ، ووظيفة (الداودار) الذى يقوم بإبلاغ الرسائل للسلطان والحصول على توقيعهم على المراسيم ، ووظيفة (ناظر الخاص) وهو المكلف برعاية شئون السلطان المالية .

وكان هناك مجموعة كبيرة من الدواوين ، منها ديوان الانشا ، وديوان بيت المال ، وديوان الجيش ، وغيرها ، وكان لكل ديوان ناظر وميزانية خاصة وعدد من الموظفين يتبعون الناظر وينفذون أوامره .

نظام الزراعة والاقطاع :

كان النظام المتبع فى الزراعة فى ذلك الوقت هو المعروف برى الحياض بمعنى أن تقسم الأرض إلى حياض كبيرة تغمرها مياه النيل وقت الفيضان مدة كافية ، ثم تصرف تلك المياه وتبذر البذور . والواقع أن هذه الطريقة كانت السبب فيما أصاب البلاد من ارتفاع فى أسعار المحاصيل الزراعية ، وفى بعض الأحيان المعاناة ، لأن اتباع هذه الطريقة جعلت البلاد تعيش تحت رحمة الفيضان ، فإذا جاء طبيعيا لم تحدث مشكلة ما ، أما المشكلة الكبرى فكانت حين يأت الفيضان منخفضا مما لا يساعد على غمر الأحواض بمياهه وبالتالي تعطل الزراعة ، وتنتشر المجاعات بالبلاد ، مثلما حدث فى عصر الفاطميين ولعل أشهر المجاعات التى حدثت آنذاك تلك التى حدثت فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، والتى تسببت فى خراب البلاد ، وفرار معظم أهلها إلى الشام والمغرب .

ويتحدث المؤرخون أيضا عن المجاعة التى حدثت فى عهد السلطان العادل الأيوبي فى عام ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) ، إذ هبط مستوى الفيضان وأشدّ العلاء

بمصر مما أدى إلى فرار الناس إلى المغرب واليمن والحجاز . ويسوق أبو الحسن ابن تغرى بردى نصا عن الأوضاع في مصر خلال تلك الأزمة وكيف أن الناس كانت تأكل لحوم أبنائهم بدافع الجوع فيذبح الرجل ولده وتساعدته أمه على طبخه وشيه .

ولاشك أن في ذلك الكثير من المبالغة وربما الخيال ، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على شدة الأزمة وقسوتها على الناس .

وقد ظلت البلاد تحت رحمة الفيضان حتى تم تغيير نظام رى الحياض إلى الرى الدائم الذى استخدمته مصر لأول مرة في القرن التاسع عشر الميلادى .

والجدير بالذكر أن الأيوبيين قد أخذوا بنظام الاقطاع الحرنى الذى عرفه الغرب الأورنى في العصور الوسطى ، ذلك أن الحكام والملوك كانوا يجدون أنفسهم في حاجة إلى محاربين وفرسان مرودين بالسلاح والخيول ، مما يتطلب أموالا ونفقات تعجز مواردهم المالية عن تحملها ، فكانوا يعمدون إلى توزيع الأراضي الزراعية في صورة اقطاعات على الأمراء وكبار رجال الجيش ، مقابل ما يقدمونه من خدمات عسكرية . ولم يكن هذا الاقطاع وراثيا ، حقيقة أن الأرض يسهل تقسيمها بين الورثة ، ولكن الاقطاع كان أساسا وظيفة والوظيفة لا تقسم . وهكذا ظل المقطع يتمتع بالأرض المقطعة له طالما يؤدي الخدمة العسكرية المتفق عليها في شروط عقد الاقطاع .

وقد تضمن هذا العقد خدمات يؤديها المقطع ، منها ما هو مالى مثل ضرائب الزكاة وغيرها ، ومنها ما هو على شكل خدمات مدنية ، مثل رعاية شؤون الأمن في الاقطاع والاهتمام بالزراعة وصيانة الجسور ، ومنها ما هو عسكرى وهو الأساس بالطبع ، فكان على المقطع أن يقتنى العدد المقرر عليه من الجند الذين يدفع لهم مرتباتهم نقدا أو عن طريق منحهم جزاء من أقطاعه .

وقد سارت الدولة الأيوبية من بدايتها حتى نهايتها على هذا النظام الاقطاعى ، فقام صلاح الدين في عام ٥٧٧ هـ ثم في سنة ٥٨١ هـ (١١٨٠ م ، ١١٨٥ م) بتوزيع الاقطاعات على الأجناد ، كما قسم دولته بين

ابنائه وأخوته على أسس اقطاعية ، كذلك فعل شقيقه الملك العادل ، وأيضاً الصالح نجم الدين أيوب الذى وزع الاقطاعات الكبيرة على أهل بيته ومماليكه والخوانزمية الذين قدموا له الكثير من الخدمات العسكرية

التعليم والحياة الفكرية :

لقد أكثر الأيوبيون من بناء المدارس وكان ذلك فى حد ذاته مظهراً قوياً لرقى الحياة الفكرية فى ذلك العصر . وقد بدأ صلاح الدين ببناء مدرستين فى حياة الخليفة العاضد الفاطمى ، هى المدرسة الناصرية ، والمدرسة القمحية نسبة إلى القمح الذى كانت تحصل عليه من الوقف الذى وقفه عليها صلاح الدين .

وبعد سقوط الخلافة الفاطمية انشأ صلاح الدين ثلاث مدارس أخرى وبذلك صار عدد المدارس التى أنشأها بمصر خمس ، بخلاف المدارس التى أنشأها بالقدس ودمشق . ومن أشهر المدارس التى أنشأها السلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين ، المدرسة الكاملية التى أنشأها السلطان الكامل ، والمدرسة الصالحية نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب الذى بناها فى عام ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) .

وكانت المدارس فى ذلك العصر أشبه بالجامعات ، فهى كليات للتعليم العالى ، ولكل مدرسة مذهبها الذى تتبعه ، وإن كان بعضها يشمل أربع كليات للمذاهب الأربعة . وفى البداية كانت المدرسة مركزاً للعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وغيرها ، ثم تطورت المدارس فصار يدرس بها النحو والفلسفة والعلوم الطبيعية .

أما عن نظام التدريس بهذه المدارس فكان يقوم على أساس اختيار مدرس يكون من كبار العلماء فى عصره وأوسعهم علماً وأعمدهم صيتاً لأنه على أساس مكانته وشهرته تتوقف سمعة المدرسة وأهميتها ، وكان يساعد المدرس معيد مهمته أن يعيد على الطلبة ما القاه عليهم المدرس ، ويرجع إليه الطلبة ليشرح لهم ما صعب عليهم فهمه من العلم ، واعتمد التدريس عادة على الالتقاء والتلقين

والاملاء ، وبعض المناقشات العلمية التى كانت تدور بين المدرس وطلابه
ومن الأمور التى حرص عليها الأيوبيون ، هو إنشاء المكتبات الصالحة التى
يرجع إليها المدرسون والمعيدون والطلبة ليستزيدوا منها العلم والتحصيل . هذا
ولم تقتصر المكتبات فى ذلك العصر على المدارس فقط وإنما وجدت كذلك
بالجوامع ، فضلا عن المكتبات الخاصة التى اقتناها محبى العلم والبحث من
رجال الدولة .

وكان للمكتبات عدد من الموظفين مهمتهم تنظيم الكتب والمحافظة عليها ،
وخدمة المترددين على المكتبة ، وأهم موظفى المكتبة هم الخازن (أى أمين
المكتبة) والنساخ ، والمجلدون والمناولون .

وإلى جانب المدارس ، وجدت فى العصر الأيوبي الكتاتيب ، لتعليم الصغار
القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن . وقد لجأ السلاطين الأيوبيون إلى وقف
الأوقاف على المدارس والكتاتيب سواء كانت هذه الأوقاف أراضي زراعية أو
حوانيت وافران وحمامات .

وقد اشتهر سلاطين الأيوبيون بحبهم للعلم والعلماء ، فكان صلاح الدين
يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم ويشاركهم فى أبحاثهم ،
وقد نحا نحوه فى حب العلم خلفاءه من السلاطين وخاصة السلطان الكامل
الذى قال عنه المقرئى : « وكان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم وعنده شغف
بسماع الحديث النبوى ، .. وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه
ونحو يمتحن بها ، فمن اجاب عنها قدمه وحظى عنده . وكان يبيت عنده
بالقلعة جماعة من أهل العلم .. فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره
ليسامروه .. » .

الحياة الاجتماعية :

المعروف كما سبق الإشارة إلى ذلك مرارا أن الدولة الأيوبية عاصرت فترة
من أشد الفترات صعوبة على المسلمين . بعد أن أتى الصليبيون العربيون

واحتلوا أراضي المسلمين في منطقة الشرق الأدنى وهددوا البلاد الإسلامية وخاصة مصر أكثر من مرة ، لذلك فان السلاطين الايوبيون وخاصة صلاح الدين لم يبالغ في الاحتفالات ولم ينفق عليها بيدخ واسراف كما كان يفعل الفاطميين أو المماليك . لأن الجهاد والنفقات التي استلزمها لم تترك لصلاح الدين لا من الوقت ولا من المال ما ينفقه في اقامة الحفلات والانفاق عليها ويكفى أن نعلم في هذا المجال أنه عند وفاة صلاح الدين وجدوا أن كل ما في خزائنه من المال ما يتعدى سبعة واربعين درهما من الفضة وجراما واحدا من الذهب ، لأن الجهاد في سبيل الله قد استنفذ كل دينار في خزائنه .

وهكذا اقتصد الايوبيون في الحفلات والغوا بعض ما ارتبط منها بأعياد الشيعة ، في حين حوروا البعض الآخر بما يتفق وتحويل البلاد من المذهب الشيعي إلى المذهب السني مثل ذلك يوم عاشوراء ، فقد كان هذا اليوم يوم حزن عند الفاطميين تغلق فيه الحوانيت والاسواق ، فجعله الايوبيون يوم فرح يصنعون فيه الحلوى ويطبخون الحبوب .

كذلك فقد اهتم الايوبيون ببناء الحمامات المتقنة الصنع . والتي امتازت بارضها المكسوة بالرخام الجميل ، والاحواض الواسعة التي يجري فيها الماء الساخن والبارد ومقاصير بابواب للمستحمين ، مما دفع الرحالة عبد اللطيف البغدادي الذي زار القاهرة في العصر الايوبي إلى القول بأنه لم يرى مثلها في كل ما زاره من البلاد .

كذلك افاض الرحالة ابن جبير في وصف عناية السلطان صلاح الدين بالأغراب الذين يفتنون إلى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لطلب العلم ، فأمر « بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم اطباء يتفقدون أحوالهم .. » .

أما أبناء السبيل من المغاربة فكانت تصرف لهم جرايات من الخبز وغيره اثناء مرورهم بمصر في طريقهم إلى الحج .

هذا وقد بلغت مدن الصعيد ايضا درجة كبيرة من الرفق في ذلك العصر ،
 وقد ذكر ابن جبير الذي زار بعض مدنها ، انها كانت ممتازة « حسنا ونظافة واتقان
 وصنع » .

وهكذا نهض الايوبيون^(١) بالبلاد نهضة مباركة كان لها اثرها فيما احرزوه من انتصارات على الأعداء .

(١) للمريد عن موصى : مطاهر الحضارة في عصر الايوبيين جمع
سعيد عسو مصر . الشتاء في عصر الايوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت .
١٩٧٢ . ص ١٥

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية

- ابن أبي الفضائل

: مفضل

النهج السديد والدرر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ،
جزءان باريس ، ١٩١٢ .

- ابن الأثير

: عز الدين علي بن محمد الجزري

(أ) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل حققه
ونشره عبد القادر احمد طليمات « القاهرة » ، ١٩٦٣ ،
(ب) الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءاً ، القاهرة
١٣٥٧ هـ

- ابن اياس

: ابو البركات محمد بن احمد

بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ٣ أجزاء بولاق ،
١٣١١ - ١٣١٢ هـ .

- ابن ابيك

: الدرر المطلوب في اخبار بني أيوب ، مخطوط مصور بدار
الكتب المصرية .

- ابن بطوطة

: محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي

تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ،
باريس ١٩٢٢

- ابن جبير

: محمد بن احمد الاندلسي

رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٤٩

- ابن خلدون

: عبد الرحمن بن محمد

العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء بولاق ،
١٢٨٤ هـ

- ابن خلكان

: شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم الشافعي ، وفیات

- الاعيان وانباء ابناء الزمان ، نشره محي الدين عبد الحميد ، ٦ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ابن دقماق : ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلاني
الانتصار بواسطة عقد الامصار ، بولاق ١٨٩٣ م .
- ابن شداد : بهاء الدين يوسف
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، نشر د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ .
- ابن شداد : محمد
الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، جزاءان ، نشر سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥٦ .
- ابن واصل : جمال الدين ابو عبد الله محمد بن سليم الشافعي
مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، نشر د. جمال الدين الشيال
- ابن ممانى : الأسعد
قوانين الدواوين ، نشر عزيز سوريال عطية القاهرة ١٩٤٣
- ابن منقذ : اسامة
كتاب الاعتبار ، نشر فيليب حتى
- ابو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم شهاب الدين
(أ) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزاءان ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .
- (ب) الذيل على الروضتين ، نشر عزت العطار الحسيني الدمشقي ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ابو الفداء : اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه
المختصر في اخبار البشر ، ع أجزاء القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .

- ابو المحاسن : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى .
(أ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نشر
دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٣
(ب) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي
محفوظ بدار الكتب المصرية ، ٣ أجزاء .
- المقرئى : تقى الدين احمد بن على
(أ) اللام باخبار من بأرض مصر من ملوك
الاسلام ، ليدن ١٧٩٠ .
(ب) السلوك لمعرفة دول الملوك
حققه ونشره محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ،
١٩٣٤ - ١٩٥٨ .
(ج) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ،
جزءان ، بولاق ١٢٧٠ .
- النويرى : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب
نهاية الارب في فنون الادب ، اجزاء من ٢٥ - ٣٠
مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .
- النويرى : محمد بن قاسم الاسكندرى
الامام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية
في واقعة الاسكندرية ، مخطوطة في جزءين بدار الكتب
المصرية .
- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم
مفرج الكروب في اخبار بنى ايوب
حققه ونشره جمال الشيال في ثلاثة أجزاء
- ابن الوردى : ابو جعفر زين الدين عمر
تتمة المختصر في اخبار البشر ، المعروف بتاريخ ابن
الوردى ، القاهرة ، ١٢٨٥ هـ
- ياقوت : شهاب الدين ابو عبد الله الحموى

معجم البلدان ، ٥ مجلدات ، بيروت ١٩٥٥ .

- يحيى بن سعيد

: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جزآن ،

الانطاكي

بيروت ، ١٩٠٩ .

ثانياً - المراجع العربية

- احمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم : دكتوران
تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، بيروت ١٩٧٢ .
- جمال الدين الشيال : دكتور
مجموعة الوثائق الفاطمية ، المجلد الاول ، الطبعة الثانية ، دار
المعارف ، ١٩٦٥ .
- جوزيف نسيم يوسف : دكتور
(أ) العدوان الصليبي على مصر ، هزيمة لويس التاسع في
المنصورة وفارسكور ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٦٩ .
(ب) تاريخ العصور الوسطى الاوروبية وحضارتها ،
الاسكندرية ١٩٨٤ .
(ج) تاريخ الدولة البيزنطية ، الاسكندرية ١٩٨٤ .
- حسن ابراهيم حسن : دكتور
(أ) تاريخ الاسلام السياسى ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
(ب) تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- حسن حبشى : دكتور
(أ) الحرب الصليبية ، الاولى ، القاهرة ، ١٩٤٧ .
(ب) نور الدين والصليبيون ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
- حسنين محمد ربيع : دكتور
النظم المالية في مصر زمن الايوبيين .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : دكتور
(أ) اوروبا العصور الوسطى ، جزءان ، الطبعة الثانية ،
١٩٦١ - ١٩٦٣ .
(ب) قبرس والحروب الصليبية ، ١٩٥٧ .

(ج) الحركة الصليبية ، جزآن ، الطبعة الثانية ، ١٩٧١
(د) مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، بيروت ،
١٩٧٢ .

- محمد مصطفى زيادة : دكتور
حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، القاهرة ،
١٩٦١ .

- محمد جمال الدين سرور : دكتور
مصر في عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٦٠

- محمود سعيد عمران : دكتور
الحملة الصليبية الخامسة ، حملة جان دي برين على مصر ،
الاسكندرية ، ١٩٧٨ .

ثالثاً - المصادر والمراجع الاجنبية

- **Besant & Palmer** : Jerusalem, The City of Herod and Salhdin, London 1899.
- **Brehier (L.)** : L'Eglise et L'Orient au Moyen Age, Les Gosades, Paris 1928.
: Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947.
- **Cahen (C.)** : La Syzie du Norde à L'E Poque des Croisades, paris 1940.
- **Cambridge Medieval History** Cambridge 1957,
- **Chalandon (F.)** : Histoire de la Première croisade, paris, 1900)
: Les Comnenes.
- **Gibbon (E.)** : Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1957.
- **Grousset (R.)** : Histoire des croisades et du Royaume France de Jerusalem, (3 Vols) Paris 1943 - 46.
- **Iorga (N.)** : Histoire de croisades Paris, 1924.
: L'Armenie Cilicienne
- **Joinville** : Histoire de Saint louis ed.de wailly, Paris, 1874.
- **La Monte (J.)** : Feudal Monarchy in the latin kingdom of Jerusalem, Cambridge 1932.
- **Laurent (J.)** : L'Armenie entre Byzance et L'Islam, Paris, 1919.
- **Mas latrie** : Histoire de L'ile de Chypre, (3 Vols), Paris 1851.
- **Michaud (J.F.)** : Histoire de croisades 5 Vols, Paris, 1817-22.
- **Munro (D.C.)** : The Kingdomm of the Grusades .
New York, 1936.
- **Norgate** : Richard the Lion Heart London 1924.
- **Ostrogorsky (G.)** : History of the Byzantine State, Oxford 1956.
- **Richard** : Le Royaume latin de Jerusalem, Paris, 1953.
- **Schlumberger (G.)** : Campagnes du Rai Amaury de Jerusalem in E gypte, Paris, 1906.
- **Schlumberger (G.)** : La Numismatique de L'orient Latin, Paris, 1878.
- **Schlumberger (G.)** : Recits de Byzance et des croisades, 2 Vols, Paris 1917 - 22.
- **Schlumberger (G.)** : Renauld de chatillon. Paris, 1898.

الحملة الطليبية الرابعة

ملاحق

الحملة الصليبية الرابعة وبداية انحرافها

- البابا اينوسنت الثالث والدعوة للحملة .
- الاستعانة بأسطول البنادقة لتكمل الحملة للشرق .
- تولى بونيفيس أوف مونتفرات قيادة الحملة .
- انحراف الحملة ضد مدينة زارا المسيحية .

في سنة ١١٩٨ . تولى كرسي البابوية واحد من المع البابوات الذين تولوا هذا المنصب في العصور الوسطى ، وهو لوثر أوف سيجني Lothar of Segni الذي عرف باسم البابا اينوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) وهو ينتمي إلى عائلة رومانية عريقة هي عائلة Conti سادة مقاطعة سيجني . وكان يبلغ السابعة والثلاثون من العمر حين تولى منصب البابوية (١) .

وقد درس اللاهوت في باريس على يد Peter of Corbeil وهو واحد من الرجال اللامعين في هذا العلم . كما درس أيضا القانون في بولونا على يد واحد من أشهر رجال القانون في ايطاليا وهو Uguccio of Ferrara

وقد ظهر البابا اينوسنت الثالث في هذه الفترة ليسترد النفوذ السياسي للبابوية في ايطاليا وعبر جبال الالب ، وليحمي السلطة الاكليريكية من جور السلطة العلمانية . وفي ظل هذا البابا نظمت الحياة الدينية في الغرب الاوروبي وادبرت بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، فبينما خلف البابا جريجوري السابع «مرارة الحزن وعظيم القلق» نجد ان اينوسنت الثالث جعل من البابوية «المركز الأكثر تمجيدا على وجه الأرض» وذلك لأن البابا نائب المسيح . وخليفة بطرس . الذي ليس له نظير بين البشر ، فهو بصفته نائب المسيح يعتبر «ملك الملوك وسيد السادة» ، وهو يجمع في شخصه بين السلطين الدينية والدنيوية ، لأن كلاهما أتت من نفس المصدر الألهي . وهكذا أصبح البابا على عهد اينوسنت الثالث صاحب السلطة المطلقة في كل شيء وهو ما يعرف باسم ... Plenitudo Potestatis

وكان من رأيه ان البابا هو القاضي الأعلى في الشئون الدينية والدنيوية على حد سواء . فهو يمثل القانون الجنائي في الأمور المدنية . كما يمثل القانون

(١) أنظر الصورة رقم (١) للبابا اينوسنت الثالث

الكنسى فى الأمور الدينية . ولذلك أصبح البابا هو الفيصل الأعلى للمجتمع المسيحى ، والمصدر الذى تنبع منه العدالة ، والمحكمة العليا التى يرفع اليها الناس شكواهم وأصبحت روما على عهده الملجأ لكل صاحب شكوى مهما كان مصدرها .

أما الابريشة المقدسة لروما فهى من وجهة نظره «تجلس فى مكان متوسط بين الله والبشر ، هى أدنى من الله ، ولكنها أعلى من البشر» .

ومن اقواله عنها «الابريشة ، انا املك ذلك اليوم الذى تجلس فيه فوق الامم والممالك ، ترفع وتخفض ، تقهر وتخرب ، تزرع وتشيد» .

وادعى البابا اينوسنت الثالث ، ان الامبراطورية الرومانية قد اختصت

البابوية بشيئين هما :- Principaliter et finaliter

Principaliter لأن البابوية هى الأصل ، finaliter لأن الامبراطور يتسلم سلطاته العلمانية من الخبر الاعظم ، البابا .

وبناء على سلطة البابا المطلقة فى كل شىء التى نادى بها اينوسنت الثالث . كان أول بابا يدعى الحق فى انفاق ايرادات الكنيسة بالصورة التى يراها هو فقط ، وقد أصبح للبابوية على عهده موارد مالية ضخمة ، هى الضرائب التى اشترك فى دفعها العالم المسيحى الغربى بوجه عام ، وقد ارتبطت هذه الضرائب فى تطورها بالحروب الصليبية ، بعد أن فرضها الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك انجلترا على رعاياهم العلمانيين والاكليركيين من أجل الغرض الصليبي . وقد خطا البابا اينوسنت خطوة جديدة فى هذا الشأن عندما اصدر أمرا سنة ١١٩٩ إلى جميع الاساقفة بأن يرسلوا إلى البابوية جزءا من اربعين ($\frac{1}{4}$) من دخل الاسقفية السنوى المتحصل من جميع ممتلكاتها

واقطاعاتها . هذا غير مجموع الضرائب الأخرى التي ظلت البابوية تجسدها عن طريق مباشر عند تعيين الاساقفة وغيرهم من كبار رجال الدين في مناصبهم . أو عن طريق غير مباشر مثل بيع صكوك الغفران . ونتيجة لذلك أصبحت البابوية في القرن الثالث عشر تمتلك من الموارد المالية ما يعادل دخل كل ملوك أوروبا مجتمعين .

وهكذا تمكن البابا اينوسنت الثالث من تحقيق كل ما كانت تطمح فيه البابوية من سمو في ضوء مبادئ جريجورى السابع واسكندر الثالث . وقد شبه البابوية بالشمس والامبراطورية بالقمر الذي يستمد ضوءه من الشمس وبذلك عاد إلى نعمة سيادة البابوية على الامبراطورية .

والمعروف ان البابا اينوسنت الثالث قد اصدر قرار الحرمان على يوحنا الثانى ملك إنجلترا . ولما اعترف الملك بخطيئته وأعلن خضوعه ، التفت اينوسنت إلى البارونات الانجليز الذين ثاروا ضد يوحنا واجبروه على كتابة العهد الأعظم ، فضرب بهذا العهد عرض الحائط ، ثم اصدر قرار الحرمان على هؤلاء البارونات . وهو الذى حافظ على حقوق فردريك الثانى فى مملكة صقلية ، واشعل حرباً مروعة فى المانيا ونادى بأنه من حق البابا تعيين الاباطرة بها أو عزلهم وفقاً لمشئته الكنيسة ولصالحها (١) . وحاول جاهدا القضاء على

(١) بخصوص البابا اينوسنت الثالث والبابوية فى عهده أنظر المراجع التالية :-

Jacob (E) : Innocent III, in C.M.H. ed Hussey, London, 1975, Vol. VI, pp. 1 — 6.

Barrachough (g) : The Medieval Papacy, London, 1975, pp. 112 — 114.

سميد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٢ ، ج ٢ ،

ص ٩ - ٠

فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢

الشراسة الأليبيجنسية التي انتشرت في جنوب فرنسا حتى قضى عليها وعلى
أتباعها (١) .

قد وضع البابا اينوسنت الثالث نصب عينيه عو اثار الانتصارات التي
حققتها صلاح الدين على الصليبيين في الشرق . تلك الانتصارات التي توجت
بمعركة حطين في ١١٨٧ م . والعمل على استرجاع بيت المقدس من يد
المسلمين . وبعد أن تولى اينوسنت منصب البابوية بوقت قصير ، دعا في
منتصف سنة ١١٩١ إلى الزحف لحملة صليبية جديدة هي الحملة التي عرفت
باسم الحملة الصليبية الرابعة .

(١) الأليبيجنسية حركة دينية ظهرت في جنوب فرنسا في أوائل القرن
الحادي عشر الميلادي ، وأصحابها ينسبون إلى مدينة البسي Albi في كونتيه
تولوز فعرفوا باسم الأليبيجنس Albigenians وأطلق عليهم
كذلك اسم الكاثاريين Cathari أي أنطهرين ، كانت تعاليمهم ذات أصل
شرقي وعلى صلة بتعاليم المانويين ونادوا بتحريم ذبح الحيوانات وأكل لحومها ، وتحريم
الزواج وانكار الثلوث المقدس ، إلى غير ذلك من الآراء التي خالفت تعاليم الكنيسة ،
مما جعل الموقف بينها وبينهم مسألة حياة أو موت ، قد حاول البابا اينوسنت الثالث
إقناع هؤلاء البراطقة في أول الأمر بالعودة إلى تعاليم المسيحية وطاعة الكنيسة
فأرسل بعض الوعاظ إلى رأسهم مقدم ديرسيستر و مندوب من قبل البابا نفسه إلى جنوب
فرنسا لتحقيق ذلك ولكن هؤلاء الميوثين لم يوافقوا في مهمتهم ، لذلك أخذ البابا يدعو
لحملة صليبية ضد هؤلاء البراطقة وقامت هذه الحملة بالفعل في سنة ١٢٠٩ ونجحت في
مهمتها ، مما دفع البابا إلى عقد مجمع دى في ١٢١٧ قرر منح قائد هذه الحملة وهو
سيمون دى مونتفورت أحد أمراء فرنسا ، دوقية تولوز وغيرها من اللوقيات المجاورة
مكافأة له على نجاحه في القضاء على هذه الحركة . عن ذلك المراجع التالية :

Lavise : Histoire de France, Paris. 1911. Tome 3, Première Partie, p.
262 — 277.

Painter (s) : A History of the Middle Ages. New York. 1954. p. 306.

محمد محمود : تاريخ أوروبا في عصور الوسطى ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ج ١ ،

وقد أرسل البابا إلى ايمار Aymar بطريرك مملكة بيت المقدس يأمره
بارسال تقرير مفصل إلى روما عن الموقف في بلاد الشام وبصفة خاصة مدى
قوة حكام المسلمين (١) .

وقام البابا على الفور باتصالات واسعة مع البابطرة والملوك المسيحيين من
أجل دعوتهم للاشتراك في هذه الحرب الجديدة ضد المسلمين فأرسل إلى
الامبراطور البيزنطي اليكسيوس الثالث انجيلوس يدعوه للمساهمة في هذه الحملة وأكد
البابا للامبراطور على ضرورة ترك الأمور الأخرى جانبا والاسراع للاشتراك
في هذه الحملة خاصة وان قرب الدولة البيزنطية من ميدان المعركة مع المسلمين
مما ييسر لها هذه المهمة ومما جاء في خطاب البابا اينوسنت إلى الامبراطور
اليكسيوس الثالث قوله : «من يستطيع أن يفعل أكثر منك ؟ أنظر قربك من
الميدان حيث يجب أن تشتعل المعركة ، ثروتك وقوتك ، ضع كل الاعتبارات
الأخرى جانبا ، وحيء لمساعدة يسوع المسيح ، ووطنه الذي فاز بدمه . أن
المسلمين سيفرون أمامك وأمام جيشك ، وأنت يجب أن تشارك مع الآخرين
في مساعدة البابوية» .

وقد أرسل البابا رسلا من طرفه إلى القسطنطينية من أجل التفاوض على
موضوعين ، احدهما موضوع اشتراك البيزنطيين في هذه الحملة الجديدة، أما
الموضوع الآخر فهو اتحاد الكنيستين . وقد استقبل البيزنطيون رسل البابا
باحترام بالغ . لكن اللهجة المتعالية لخطاب البابا لم تجد صداطيا لدى الامبراطور

(1) Luchaire : Innocent III : La question d'Orient, p. 15.

كما أن تجربة البيزنطيين مع الحملة الصليبية السابقة وهى الحملة الثالثة جعلتهم لا يرحبون بالتعاون الفعال مع الصليبيين .

وقد رد الامبراطور على البابا بخطاب أوضح فيه أن الامبراطور فردريك بربروسا أثناء مروره بالأراضي البيزنطية منذ سنوات قليلة . أقسم على عبور تلك الأراضي بسلام وعلى ألا يرتكب أى فعل ضد رعايا الامبراطور ، ولكنه نقض قسمه ، وقاتل المسيحيين مثلما قاتل المسلمين . وأن الصليبيين منذ بداية الحروب الصليبية وهم يعتقدون على الأراضي البيزنطية . ويرفعون السلاح على المسيحيين بها ، ويدنسون أيديهم بدمائهم ويحلبون على أنفسهم بذلك غضب الله ، وأن من صميم اختصاص البابا أن يثنيهم عن اتيان مثل هذه الأفعال (١) .

وقد وعد الامبراطور البابا بأنه سيبذل كل جهده من أجل العمل على استرجاع الأراضي المقدسة ، إذا سمحت ظروف الامبراطورية بذلك .

أما فيما يتعلق باتحاد الكنيستين ، فلم تسفر المفاوضات عن شيء ، وقد أوضح الامبراطور للبابا رأيه فى هذا الموضوع ، وهو أن الاتحاد الأفضل لابد وأن تكون لإحدى الكنيستين فيه السيادة على الأخرى ، وأن كنيسة روما تطمح فى أن تكون لها هذه السيادة بما تدعيه من أنها الكنيسة العالمية ، الكنيسة الأم لكل الكنائس المسيحية . لكن الامبراطور أوضح أن هذا الأمر لا يخص

(١) أشار البابا اينوسنت الثالث فى خطابه إلى الإمبراطور اليكسيوس الثالث فى

فى ١٦ نوفمبر ١٢٠٢ إلى ما جاء فى خطاب الامبراطور للبابا ، أنظر عن ذلك . :

Innocentii III : Epistolae, in Patrologia Latina, ed Paris, 1855, Vol. CCXIV, Cols. 1123 — 1124.

كنيسة روما . ولكنه خاص بكنيسة أورشليم . وبالتالي لا يحق لروما ادعاء السيادة على كنيسة القسطنطينية (١) .

وهكذا لم تحقق دعوة البابا اينوسنت الثالث للامبراطور البيزنطي للاشتراك في الحملة الصليبية نجاح يذكر . أما في الغرب الأوروبي فقد صادفت الدعوة نجاحا أكثر ، وأخذ رجال الدين يدعون للحملة . كما وضع صندوق في كل كنيسة لتلقى الهبات المالية من أجل الاعداد لها .

والجدير بالذكر أن أحدا من ملوك أوروبا لم يشترك في هذه الحملة . فقد شغل كل من فيليب أوجسطس ملك فرنسا ويوحنا الثاني ملك إنجلترا بالصراع الذي اشتعل بينهما من جهة وبمشاكلهما الداخلية من جهة أخرى (٢) . أما فيليب السوابي ملك المانيا فقد كان يخوض نضالا مريرا مع منافسه على العرش الالمانى أوتو اوف برنسويك ابن هنرى الأسد (٣) .

على أن ذلك لم يمنع الأمراء والفرسان الغربيين من تقبل الدعوة فأشترك في هذه الحملة نخبة من أفضل البارونات والفرسان في فرنسا مما جعل الطابع الفرنسى بطغى على الحملة كذلك اشترك فيها فرسان من إنجلترا ومانيا ،

(1) Pears : The Fall of Constantinople, Being The Story of the Fourth Crusade, pp. 226 — 227.

(2) Lavise ; Histoire de France, Paris 1911, Tome 3, Premiere partie , pp. 112 — 290.

Painter (s) ; A History of the Middle Ages, New York , 1954, p. 253.

(3) Austin Lane'Poole ; Philip of Swabia and Otto IV , in C.M.H. ed Hussey, London, 1975, Vol, VI, Part 1, pp , 44 — 71.

والخلاصة وحشية (١) . وتولى قيادة الحملة ثيبوت كونت شامبني وبري
Thibout Count of Champagne and Brie. الذي كان في الثانية
والعشرين من عمره آنذاك ، كما يذكر مؤرخ الحملة الماريشال جيوفري
فيلهاردوين (٢) .

وكانت الخطوة الأولى أمام الصليبيين هي تحديد وجهة الحملة . وقد
انقسموا إلى فريقين ، فريق يطالب بأن تتوجه إلى بيت المقدس مباشرة للاستيلاء
عليها ، وفريق آخر رأى أن تكون وجهتهم هي مصر . على أساس أنها الخطر
الحقيقي الذي يهدد الصليبيين في الشام ، بما لها من امكانيات مادية وبشرية
ضخمة استعان بها الايوبيون على محاربة الصليبيين . هذا بالإضافة إلى أن إعادة
توحيد الدولة الأيوبية تحت حكم الملك العادل جعل الخطر يتزايد على الصليبيين
فيما لو اتجهوا لحصار بيت المقدس أولاً لأنهم عندئذ سيقعون بين فكي الكماشة
حين تخرج الجيوش من مصر ومن دمشق في نفس الوقت للقضاء عليهم .

هذا فضلا عن وجود عدد كبير من التجار الايطاليين في موانئ دلتا
النيل وبصفة خاصة في مدينتي دمياط والاسكندرية ولاشك أن هؤلاء
التجار سيتعرضون للانتقام من جانب السلطات المصرية ، في حالة حصار
الصليبيين لبيت المقدس ، فالأفضل أن يبدأ الصليبيون الهجوم على شواطئ
مصر الشمالية لحماية هؤلاء التجار وتأمين الجبهة الجنوبية لفلسطين ، ثم بعد
ذلك يصبح من السهل عليهم الاستيلاء على بيت المقدس . أما عن طريق
القوة ، أو عن طريق المساومة .

(١) ذكر فيلهاردوين بالتفصيل أسماء كبار الشخصيات التي اشتركت في هذه الحملة .
أنظر عن ذلك :

Villehardouin : op. cit., pp. 2 — 3.

(2) Ibid : p. 2.

ولهذه الاسباب كلها ، تم الاتفاق على أن تكون مصر هي مقصد الحملة الصليبية الجديدة (١) .

على أن الصليبيين لم يلبثوا أن واجهوا مشكلة خاصة بكيفية حصولهم على السفن اللازمة لنقلهم إلى مصر . وقد وقع اختيارهم على البندقية لإمدادهم بما يلزمهم من أسطول ، وذلك نظرا للمركز الكبير والهام الذي كان للبندقية في هذه الفترة . فقد كانت آنذاك في أوج قوتها ومجدها و ثرائها . وكان هذا الثراء ناتج عن نشاط أسطولها الضخم في عمليات النقل التجارى بين الشرق والغرب . وبعد قيام الحروب الصليبية أخذ هذا الاسطول يقوم بدور هام في نقل الصليبيين إلى الشرق وكذلك نقل المعدات الحربية لهم وللمسلمين على حد سواء لأن ما يهتم البندقية كان هو الكسب المادى الذى تحصل عليه نتيجة لعمليات النقل ، أما الصالح الصليبي والبابوية والأراضي المقدسة فهذه كلها الفاظ جوفاء في نظر البنادقة لن ينجوا من ورائها الا فساد تجارتهم وكساد نشاطهم ، لذلك لم يكونوا ليتأخروا عن التعامل مع المسلمين والمسيحيين ، وتقديم خدماتهم للجميع ، على الرغم من المنشورات الصريحة التى كان يصدرها بابوات روما بتحريم الاتجار فى المعدات الحربية مع المسلمين والتهديد بتوقيع عقوبة الحرمان على كل من يشتغل بهذه التجارة المحرمة ومصادرة ممتلكاته .

(1)Grousset (R). : Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris 1946, Vol. III p. 171.

Nicol : The Fourth Crusade and the greek and Latin Empires, 1204 — 1261, in C.M.H. ed Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, Part 1, p. 276.

Runciman (S) : A History of the Crusades, Cambridge University Press, 1966, Vol. 3, p. 113.

وكان للبندقية دار لصناعة السفن ، وقد روعي في بناء سفنها التجارية
امكان تحويلها إلى سفن حربية وقت الحرب . وكانت أساطيلها التجارية
تجتمع في شكل قوافل وتغادر البندقية مرتين في العام في مواعيد محددة ثابتة
تحت اشراف أحد كبار موظفي الحكومة .

وكان هناك خمس قوافل رئيسية ، قافلة القسطنطينية وقافلة الاسكندرية
وقافلة الشام ، وقافلة طانا Tana على سواحل البحر الاسود . وقافلة
الفلاندرز في شمال أوروبا .

وفيما يتعلق بقافلة الاسكندرية فانها كانت تتخذ طريقها من البندقية إلى
الاسكندرية مرتين في السنة ، واحدة في الحريف والثانية في شهر يناير ،
وتتكون كل قافلة من ثمانى إلى ثلاث عشرة سفينة . وكانت جالية البنادقة
بالاسكندرية من أكبر الجاليات عددا وأكثرها ثراء . وكان لهم حى خاص
ينزلون به واشتمل هذا الحى على عدد من الخانات وهى عبارة عن مباني فخمة
مربعة على شكل حصون ، ولها فناء داخلى تجتمع حوله الحوانيت في الدور
الأرضى وأعلىها مساكن التجار .

أما عن التنظيم السياسى للبندقية ، فقد كانت تأخذ بالنظام الجمهورى ،
وكان الاسم الرسمى لها هو «جمهورية سانت مارك» نسبة إلى القديس مرقس .
والمعروف أن رفات هذا القديس كانت موجودة بكنيسة الاسكندرية، لكن
اثنين من التجار البنادقة قاموا بسرقتها في سنة ٨٢٨ م . ونقلوها إلى البندقية ،
وشيد دوقها آنذاك ويدعى جستنيان مارتشياكو Justinian Particiaco
كنيسة فخمة أودع فيها رفات هذا القديس ، وعرفت باسم كنيسة سانت
مارك ، وأصبحت مركزا للحياة الدينية في البندقية .

وكان على رأس الجيما: الحكومى للبندقية الدوق Doge الذى يلى

منصبه مدى الحياة ، وهو رمزا للسلطة أكثر منه مصدرا لها . وكان إلى جانبه هيئات سياسية أخرى ، مثل مجلس العشرة ، والمجلس الكبير ، ومجلس الشيوخ والمجمع . ومجلس الدولة . وكان لهذه المجالس سلطات كبيرة واختص كل منها باختصاصات معينة ، حتى يتسنى تنفيذ الأمور في سرعة وحسم بعيدا عن التعقيدات الروتينية والروح البيروقراطية .

وقد تمتع شعب البندقية بحياة ثرية مرفهة ، ودأب على الاحتفال بمختلف الأعياد الدينية والقومية . وأقامت الحكومة للشعب مسرحا عظيما شغف به الأهالي شغفا كبيرا ، وشهدت البندقية الحفلات الفاخرة والولائم والمواكب والاستقبالات الرائعة التي كانت تبهر بها أوروبا بأسرها .

وكانت البندقية على درجة كبيرة من الحضارة وتميزت مبانيها بالفخامة وقد تأثرت في ذلك إلى حد كبير بالحضارة البيزنطية . حتى أن البندقية كانت أقرب البلدان الأوربية للطابع البيزنطي . وقد تجلّى ذلك بوضوح في كنيستها الشهيرة سانت مارك St. Mark التي كانت من نفس طراز كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية ، وكذلك في غيرها من المنشآت والمباني . وقد تمتعت البندقية بمركز خاص في القسطنطينية نتيجة للامتيازات التجارية التي حصلت عليها هناك . ولهذا فكثيرا ما كانت تدين بالولاء للقسطنطينية أكثر مما تدين لروما .

على أنها بدأت تعاني من المشاكل مع القسطنطينية في السنوات الأخيرة ، وذلك بسبب تغلب نفوذ منافستها جنوا وبيزا في العاصمة البيزنطية ، وعلى الأخص في عصر الامبراطور مانويل كومنينوس ، الذي شهد صراعا عنيفا بين الطرفين (١) .

(١) أنظر تفاصيل هذا الصراع في المصدر التالي :-

Kinnamos (Y) : Deeds of John and Manuel Comnenus, Trans- =

على أن الامبراطور اسحاق انجيلوس عقد تحالف جديد مع البندقية في ١١٨٧ ومرة أخرى في ١١٨٩ أعاد لها امتيازاتها السابقة مع دفع تعويض مناسب مقابل أن تضع البندقية أسطولها تحت تصرف البيزنطيين في حالة نشوب الحرب بينهم وبين أعدائهم .

لكن البنادقة بدأوا يشعرون بأن البيزنطة لقوا الخطوة على حسابهم وذلك في عهد الامبراطور اليكسيوس الثالث ، وقد أرسل دوق البندقية خلال صيف ١٢٠٠ سفارة إلى الامبراطور البيزنطي يطلب دفع الأموال المتأخرة وتجديد الامتيازات التجارية ، وبعد ستة أشهر أرسل سفارة ثانية لنفس الغرض وطالت المفاوضات بين الطرفين دون الوصول إلى اتفاق .

وقد بلغت كراهية البنادقة للقسطنطينية ذروتها عندما علموا أن الامبراطور اليكسيوس استقبل في مايو ١٢٠١ سفارة من جنوا وأنه يتفاوض مع زعيمها الذي يدعى Ottobone della Croce من أجل الامتيازات التجارية التي كانت البندقية تعتبرها مقتصرة عليها (١) .

في ذلك الوقت كان دوق البندقية هو انريكو داندولو Enerico Dandolo الذي كان من أشهر الرجال في عصره وكان رجلا مسنا تخطى الستين من

=
sated to English by Chales M, Brand, Colombia University Press, New York, 1976, Book VI, pp. 209 — 213.

(1) Diehi : Une Republique patricienne, venise ,different places.

Chcnlates : Historia, P. 712.

Cessi (R) : Venice to the Eve of The Fourth Crusade ,in C.M.H. ed.

Hussey, Cambridge. 1975, Vol. VI, Part 1, pp. 251 — 273.

Pears : The Fall of Constantinople, Being of the Fourth Crusade, pp. 231 — 233.

عمره لكنه كان مليء بالنشاط والحيوية ، طموح إلى المجد ، كرس نفسه من أجل العمل لمصلحة جمهوريته ، ويقال أنه رغم فقدانه لبصره إلا أنه كان بإمكانه أن يقود جيشا كبيرا بنفس الكفاءة التي يقود بها أسطولا ضخما (١) .

وهكذا فقد أرسل الصليبيون رسالتهم إلى البندقية للاتفاق على الاستعانة بأسطولها لنقلهم إلى مصر ، وكان هؤلاء الرسل ستة أشخاص أحدهم هو فيلهاردوين أما الخمسة الآخرون فكانوا :

Miles The Barbatn, Conon of Bethune,
Alard Maquereau, John of Friaise and
Walter of Gawdonville.

ووصل هؤلاء الرسل إلى البندقية في الأسبوع الأول من فبراير ١٢٠١ ، وبعد أن قضى الرسل بالبندقية أربعة أيام حان موعد لقاءهم بالدوق ، الذي استقبلهم بتقصيره هو ومستشاريه وعرض عليهم الرسل طلبهم قائلين : «لقد جئنا من طرف بارونات فرنسا الذين اتخذوا الصليب والذين يرغبون في خدمة المسيح واستعادة أورشليم — إذا أراد الله — ولأنهم يعلمون أنه لا يوجد من يمتلك قوة أكبر من قوتك وقوة رجالك لكي يساعدونهم في هذه المهمة ، لذلك نستحنفك بالله أن تأخذك الشفقة على الأرض المقدسة ، وعار المسيح ، وتجب حاجة لورداتنا إلى سفن النقل والقتال» (٢) .

وبعد مرور ثمانية أيام تشاور خلالها الدوق مع رجاله ، عرض على الرسل شروطه وكانت تشمل على أن تقدم البندقية سفنا لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فرس . وتسعة آلاف مقاتل ، وسفنا أخرى لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فارس وعشرون ألف من المشاة ، وتعهدت البندقية كذلك بتقديم المؤن لرجال

(1) Gibbon (E) The Decline and Fall of the Roman Empire, New York, 1976, Vol 6, pp. 149 — 150.

(2) Villehardouin : op. cit., pp. 4 — 5.

الحملة وخبولهم لمدة تسعة أشهر ، كل ذلك مقابل أن يدفع لها الصليبيون ماركان عن كل رجل ، وأربعة ماركات عن كل فرس وبذلك يصبح مجموع ما يؤديه الصليبيون للبندقية ٨٥ ألف مارك .

واستطرد الدوق قائلا لرسل الصليبيين : «وحبا في الله سنضرب إلى الأسطول خمسين غاليا Galleys حربية ، بشرط أن نكون شركاء في كل المكاسب التي تحققها الحملة من فتوحات أو أموال في البر أو في البحر بحيث تأخذون النصف ونأخذ نحن النصف الآخر» .

وبعد أن تشاور الرسل ، أجابوا بأنهم قبلوا شروطه ، وتم عقد الاتفاق بين الطرفين ، وقد دفع الرسل مبلغ خمسة آلاف مارك فضة إلى الدوق للبدء في تنفيذ الاتفاق ، وأرسلوا رسلا إلى البابا اينوسنت الثالث في روما ليخبروه بهذا الاتفاق ثم عادوا لبلادهم (١) .

في ذلك الوقت توفي تيبوت كونت شامبني وقائد الحملة ، وكان على الصليبيين أن يختاروا قائدا آخر يحل محله وقد وقع اختيارهم على الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات الذي كان قريبا لفيليب السوابي ملك المانيا ، فقد كان ولیم أوف مونتفرات والد بونيفيس متزوجا من صوفيا Sophia ابنة فردريك بربروسا وهي أخت (غير شقيقة) لفيليب السوابي وقد ساهمت عائلة مونتفرات بنصيب كبير في الحروب الصليبية وكان لولیم أربعة أبناء، تركوا بصماتهم على تاريخ الحروب الصليبية ، فأكبرهم وهو ولیم واسم الشهرة له هو Longsword تزوج في ١١٧٥ ابنة بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، وتسلم باثنة مدينتي يافا وعسقلان ولكنه توفي بعد شهرين من الزواج . أما

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 6 — 8.

الابن الثانى كونراد الذى أصبح ماركيز أوف مونتفرات عند موت ولیم ،
فقد ذهب إلى الشرق وساعد الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس على مقاومة
حصار القائد البيزنطى التائر براناس للقسطنطينية عام ١١٨٦ وهزم باراناس
وأرسل رأسه للامبراطور . وتزوج من ثيودورا شقيقة الامبراطور اسحاق ،
ثم ذهب إلى فلسطين فى ١١٨٧ حيث لعب دورا هاما خلال الأربع سنوات
التالية ، وقاوم حصار صلاح الدين والمسلمين لمدينة عكا ، وبعد زواجه من
ايزابيلا Isabella وريثة مملكة بيت المقدس وبعد مصادمات مع ريتشارد
ملك إنجلترا ، اتخذ لقب ملك بيت المقدس ، ولكنه قتل فى ١١٩٢ قتله أحد
أفراد فرقه الاسماعيلية .

أما رينيه وهو الابن الثالث ، فقد تزوج من ماريا ابنة الامبراطور
البيزنطى مانويل كومنينوس ، وتسلم كبائنه مدينة سالونيك وقد مات دون أن
ينجب .

وهكذا لم يتبقى من هؤلاء الابناء سوى الابن الاصغر وهو بونيفيس الذى
صار ماركيز اوف مونتفرات .

وقد ساهم بونيفيس كذلك فى الحروب الصليبية ووقع أسيرا فى يد صلاح
الدين ، وأطلق سراحه أثناء تبادل الأسرى ، وعرف عن بونيفيس دمسائة
الأخلاق والشجاعة فى القتال ، وكان بلاطه فى مونتفرات مزدهرا بالفنانين
وشعراء التروبادور .

وهكذا فقد أرسل اليه الصليبيون يطلبون منه الحضور إلى سواسون Soisson
للتشاور معه . فلبى طلبهم واستقبل فى سواسون باحترام بالغ . وتوسل اليه
البارونات أن يشترك فى الحملة الصليبية وأن يقبل تولى قيادة الجيش الصليبي .

وقد استجاب بونيفيس لرجائهم ، وفي سبتمبر ١٢٠١ أخذ شارة الصليب في كنيسة نوتردام في سواسون ، وتسلم قيادة الجيش ، ثم عاد إلى بلده لتدبير بعض الأمور الخاصة به ، وتم الاتفاق على أن يلحق بهم بعد ذلك في البندقية (١). وفي ٢٢ يوليو ١٢٠٢ وصل إلى البندقية الكاردينال بطرس كابوانسو Peter Capuano نائبا عن البابا في الحملة .

اجتمع الصليبيون في جزيرة سانت نيقولا St Niolas (الليدو) التابعة للبندقية ، وهناك طالبهم الدوق داندولو بدفع المبلغ الذي اتفق عليه . لقاء نقلهم بالأسطول إلى الشرق فأخذ الصليبيون يحاولون جمع المبلغ ، وفي النهاية لم يتمكنوا من جمع أكثر من ٣٤ ألف مارك .

هنا غضب الدوق أشد الغضب . واتهمهم بالخداع وهددهم بأنه في حالة عدم دفعهم المبلغ كاملا فإنه سيركهم في هذه الجزيرة دون طعام أو شراب حتى يهلكوا (٢) .

عندئذ اجتمع البارونات وبذلوا جهدا كبيرا حتى استطاعوا جمع مبلغا آخر دفعوه للدوق وتبقى لدى الصليبيين مبلغ ٣٦ ألف مارك يجب أن تدفع للبنادقة .

وقد استغل الدوق هذا الموقف ليوجه الحملة الصليبية الوجهة التي تتفق ومصالح جمهوريته . فعرض على الصليبيين أن يؤجل لهم دفع الدين . مقابل

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 10 — 11.

Nicol : op. cit., pp. 277.

Pears : op. cit., pp. 27 — 273.

(2) Clari (R) : Laconquete de constantinople, Editeepar lauer, paris. 1924. p. 10.

أن يساعده في الاستيلاء على مدينة زارا على البحر الادرياتيكي في اقليم
سكلافونيا والتي كانت تابعة للبنادقة ثم إنتزعها منهم ملك هنغاريا .

وقد علل لهم الدوق هذا العمل بقوله — كما يذكر روبرت كلاري —
أنهم في فصل الشتاء ، ولن يستطيعوا أن يذهبوا إلى الأراضي المقدسة ، التي
كان المفروض أن يتخذوا طريقهم إليها قبل حلول هذا الفصل ، وأن الصليبيين
هم المسئولون عن هذا التعطيل . وأنه من الأفضل لهم أن يتعاونوا مع البنادقة
في الاستيلاء على زارا التي ستدعم بالكثير من المؤن ليتزودوا بها خلال
رحلتهم بعد ذلك للأراضي المقدسة .

وقد وافق البارونات وكبار رجال الحملة على اقتراح الدوق (١).

والجدير بالذكر أن الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات قائد الحملة لم يكن
موجودا مع الصليبيين آنذاك ولم يشترك معهم في الهجوم على زارا (٢)، وذلك
لوجوده في المانيا للتباحث مع فيليب السوابي والامير البيزنطي اليكسيوس
انجيلوس (٣) .

وقبل الذهاب إلى زارا أعلن الدوق عن رغبته في اتخاذ شارة الصليب
والانضمام إلى الحملة "الصليبية" الذاهبة لتحرير قبر المسيح ، وخطب فيهم خطبة
مؤثرة أوضح فيها أنه رغم عجزه وكبر سنه إلا أنه قرر أن يصحبهم إلى
الأراضي المقدسة في فلسطين وأما أن يعيش معهم أو يموت بينهم ، وفي كنيسة
سانت مارك في البندقية احتفل باتخاذ شارة الصليب التي وضعت على قبعته

(1) Clari : op. cit., pp. 11 — 12.

(2) Villehardouin : op. cit., p. 19.

(3) Nicol : op. cit., p. 179.

البيضاء الكبيرة وحذا حذوه جمع غفير من البنادقة (١) .

ومن المستغرب أن يكون أول عمل يقوم به الدوق بعد اتخاذ الصليب هو قتال مدينة زارا واهاليها المسيحيين . وفي اكتوبر ١٢٠٢ اتخذت سفن البندقية الحملة بالصليبيين طريقها إلى زارا ، التي وصلوا أمامها في ١٠ نوفمبر ١٢٠٢ وفي اليوم التالي مباشرة أى في ١١ نوفمبر ١٢٠٢ بدأ حصارهم لها . وقد كانت المدينة على جانب كبير من القوة والمناعة حتى لقد دهش الصليبيين من شدة حصانتها وقالوا بأنهم «لن يستطيعوا اقتحامها بالقوة إلا بمساعدة من الله ذاته» .

أثناء حصار الصليبيين لزارا قام أحد الاخوة السيستر شيان (٢) cistercians بتحذيرهم من قتال المدينة حيث أنها مسيحية وهم مسيحيون ومتخذون شارة الصليب أيضا مما يعرضهم لغضب بابا روما . لكن دوق البندقية غضب غضبا شديدا لدى سماعه لهذا التحذير ، ولجأ إلى التهديد ليجبر الصليبيين على مساعدته بعد أن شعر بترددهم ، فأوضح لهم بأنهم إذا تخلوا عنه فإنه سيقوم بالاستيلاء

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 16 — 17.

(٢) الاخوة السيستر شيان هم جماعة من الرهبان التابعين لدير سيتو - في برجنديا - الذي تم تأسيسه في سنة ١٠٩٨ بواسطة بعض الرهبان البندكتيين الذين رغبوا في حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية السائدة آنذاك . وكان هذا النظام الجديد محاولة لاتخاذ طريق وسط بين الاستقلال المحلي الذي تمثل في الديرية البندكتية ، والمركزية المطلقة التي اتبعتها الديرية الكلونية ، وقد أخذ هذا النظام ينمو في سرعة فائقة وانتشر في جميع أنحاء غرب أوروبا بفضل ميزات الواضحة من ناحية ، وجهود القديس برنارد (١٠٩١ - ١١٥٣) من ناحية أخرى .

للمزيد عن هذا النظام راجع :

Workman : The Evolution of the Monastic ideal, London, 1928, pp. 239 — 244.

على المدينة عن طريق الاتفاق مع أهلها وان الصليبيين سيكونون بطبيعة الحال خارج هذا الاتفاق وبالتالي فأنهم لن يحصلوا على أية مكاسب مادية . عندئذ وافق البارونات على مساعدته والاستمرار في المهمة حتى نهايتها . وفي اليوم التالي أخذوا في مهاجمة أسوار وأبراج المدينة ، حتى أعلن أهلها الاستسلام للدوق مقابل الإبقاء على حياتهم . عندئذ ذهب الدوق إلى البارونات وقال لهم : «سادتي .. لقد تم استيلائنا على هذه المدينة بفضل الله ، وبفضل مساعدتكم ، ولن نستطيع الذهاب للشرق الآن ، لأننا في فصل الشتاء ، ولأننا لن نجد أية أسواق في أي مكان آخر تمدنا بما نحتاجه ، وهذه المدينة على جانب كبير من الثراء ، ومزودة بكل المؤن ، دعونا نقسمها بالنصف ، وسأخذ النصف ، وأنتم النصف الآخر» (١) .

وهكذا تم تقسيم مدينة زارا بين الطرفين . فأخذ البنادقة النصف الذي به الميناء ، وأخذ الصليبيون نصف المدينة الآخر ، ونصبوا معسكرهم هناك ، على أن العداء لم يلبث أن تفجر بين البنادقة والصليبيين وهرع كل منهم إلى حمل السلاح واقتتلوا في شوارع المدينة بمختلف أنواع الأسلحة التي معهم واستمر القتال أسبوعاً ، وألحق الصليبيون نظراً لتفوقهم في العدد خسائر كبيرة بالبنادقة . وقد بذل دوق البندقية والبارونات الكثير من الجهد حتى نجحوا في اقرار السلام بين الطرفين . وبعد أن قضى الصليبيون بزارا ما يقرب من الأسبوعين ، وصل الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات (٢) .

في ذلك الوقت كانت الاخبار قد وصلت إلى البابا اينوسنت الثالث في روما بانحراف هذه الحملة عن هدفها الاساسي واتجاهها ضد مدينة زارا ،

(1) Villehardouin : ip. cit., pp. 20 — 21

(2) Villehardouin : op. cit., pp. 21 — 22.

وقتلها لأهاليها المسيحيين . فاستشاط البابا غضبا . وذلك لسببين . أولهما قتال مدينة مسيحية والحاق الأذى بأهاليها المسيحيين ، والثاني لأن معنى ذلك ان السيطرة على الحملة لم تعد للبابا وإنما الت لأشخاص آخرين . لذلك أوقع البابا قرار الحرمان على الحملة الصليبية كلها (١) . وهنا اسقط في يـد الصليبيين ، وأدركوا إلى أى مدى تورطوا في هذا العمل .

وقد اجتمع البارونات للتشاور ، وتم الاتفاق على ضرورة ارسال وفدا يمثلهم إلى البابا في روما ليتمسوا منه العفو عنهم ورفع قرار الحرمان. واختاروا اثنين من الاكليركيين هما نيفلون Nevelon أسقف سواسون . ويوحنا أوف نويون John of Noyon الذى يتبع بلدوين كونت فلاندرز وهينولت ، وصحبهما فارسان هما :

Robert of Bones and John of Friaize على أن روبرت تركهم واتخذ طريقه إلى سوريا ، وهكذا أصبح الوفد مكونا من ثلاثة أشخاص فقط . وحين قابلوا البابا قالوا له :

«ان البارونات يطلبون عفوك من أجل استيلائهم على زارا فقد كان هذا التصرف طائش وآثم . ولذلك فأنهم يقدمون أنفسهم لك بصفتك والدهم الطيب ، وهم على أتم استعداد لتنفيذ جميع أوامرك» .

فرد عليهم البابا موضحا بأنه يدرك تماما أن هذا الخطأ الذى ارتكبه الصليبيون هو خطأ الآخرين — بقصد البنادقة — وأنه يأسف أشد الأسف لما

(1) Nicol : The Fourth Crusade, p. 180.
Runciman The History of the Crusades, Vol. 3. p. 115. Gibbon:
The Decline and Fall of the Roman Empire Vol. 6, p. 153.

فعلوه . على أنه في النهاية غفر لهم فعائتهم هذه ، ورفع عنهم قرار الحرمان وقصره على البنادقة فقط ، ثم زودهم بنصحه وتعليماته التي نصت على تماسكهم وتعاونهم من أجل خدمة الرب . وقد منح البابا كل السلطات لرجلي الدين نيقلون ويوحنا من أجل العمل على اتحاد جيش الصليبيين ، حتى يلحق بهم كاردينالا من طرفه (١) .

وهكذا تم للبنادقة التفرير بالحملة الصليبية الرابعة واستغلالها لتحقيق مصالحهم الخاصة ، بدلا من توجيهها للشرق ومحاربة المسلمين ، وكان هذا أول انحراف يحدث لهذه الحملة الصليبية .

أما الانحراف الثاني في خط سير هذه الحملة الغربية فكانت ضحيته العاصمة البيزنطية القسطنطينية وذلك على النحو الذي سيتضح خلال عرض الأحداث في الفصل التالي .

(1) Villehardouin : op. cit., p. 26.

Runciman : A History of the Crusades, Vol. 3, p. 115.

Nicol : The Fourth Crusade, p. 280.

الحملة الصليبية والعاصمة البيزنطية

«أيتها المدينة .. المدينة ...

لقد تجرعت حتى الثمالة من كأس

غضب الله»

خونياتيس

- الاتصالات بين فيليب والصليبيين .
- وصول الامير اليكسيوس انجيلوس إلى زارا .
- خط سير الحملة من زارا إلى القسطنطينية .
- نجاح الصليبيين في استرداد العرش البيزنطى لحليفهم .
- تطور العلاقات بين الصليبيين واليكسيوس الرابع .
- استيلاء الصليبيين على العاصمة البيزنطية .

استعرضنا في الفصل السابق التفاصيل الخاصة بالحملة الصليبية الرابعة من حيث الدعوة لها والدور الذي لعبته البندقية في العمل على الانحراف بالحملة عن هدفها الأساسي ومهاجمة مدينة زارا والاستيلاء عليها ، واقتسامها مع الصليبيين وصدى ذلك عند البابا اينوسنت الثالث .

وفي أثناء ذلك كان الامير البيزنطي اليكسيوس انجيلوس ، قد أكمل رحلته ووصل إلى المانيا حيث قوبل بالترحاب من جانب شقيقته إيريسن وزوجها فيليب السوابي ، ولاشك أن اليكسيوس قد أخبر فيليب بالاتصالات التي تمت بينه وبين زعماء الحملة الصليبية أثناء مروره بشمال إيطاليا . وبما أن فيليب كان لا يستطيع أن يقدم المساعدة العسكرية لاليكسيوس نظرا لاشتعال الحرب الاهلية في المانيا وقتذاك . وبما أن قائد الحملة الصليبية وهو الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات كان ابن أخت فيليب السوابي . وبالتالي يسهل التأثير عليه من جانب خاله فيليب . بالاضافة لما ذكره المؤرخ الفرنسي الكونت ربان عن الدوافع الخاصة لدى فيليب السوابي (١) . لهذا كله فالمرجح أن فيليب قد وافق على الاستعانة بالحملة الصليبية من أجل استرداد العرش البيزنطي لوالده ووجهه اسحاق انجيلوس .

وقد تباحث كل من فيليب واليكسيوس ، واشترك معهما في المباحثات الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات وذلك أثناء زيارته لألمانيا في أوائل عام ١٢٠٢ . حول الامتيازات التي سيقدمها اليكسيوس للجانب الصليبي مقابل المساعدة العسكرية التي سيحصل عليها من الحملة الصليبية (٢) .

(١) أنظر الفصل الأول من هذا البحث .

(2) Pears : The Fall of Constantiople, Being The Story of the Fourth Crusade, pp. 273 — 275.

Nicol : The Fourth Crusade, p. 278.

٠ في ديسمبر ١٢٠٢ وبعد ما يقرب من الشهر بعد فتح الصليبيين للمدينة
برصل اليهارسل الملك فيليب . وساموا الزعماء الخسلة رسالة الملك فيليب اليهم
الشروط المعروضة عليهم . وجاء المؤرخ فيلهاردوين بنص الرسالة
ت كالتالى (١) :

سادتى . سأرسل لكم شقيق زوجتى . وأضعه بين يدي الله - الذى ربما
نه من الموت - وبين أيديكم .

ولأنكم اتخذتم موقفا تزيها تجاه الله وتجاه الحق . وتجاه العدالة لذلك أرجو
تعاونوا - قدر استطاعتكم - من أجل استرداد ميراثه الذى سلب منه
ه . وشقيق زوجتى سيقدم لكم أفضل الشروط . وسيمنحكم المساعدة
كثير فعالية من أجل استرداد الأراضي المقدسة .

أولا - إذا الله هيا لكم استرداد ميراثه . فإنه سيخضع امبراطورية رومانيا
امبراطورية البيزنطية) لسلطان البابوية التى انفصلت عنها طويلا .

وهو يعلم أنكم انفقتم ثرواتكم . وأنكم فقراء . لذلك فإنه سيمنحكم
٢٠٠٠٠ مارك من الفضة . وسيقدم المؤن لكل من فى الجيش . صغيرا
ان أم كبيرا .

وهو بشخصه سوف يذهب معكم لأرض بابليون (مصر) أو اذا رأيتم
سل من ذلك . فإنه سيرسل إلى هناك ١٠٠٠٠٠ مقاتل على نفقته الخاصة .
طوال حياته . فإنه سيضع على نفقته الخاصة أيضا خمائة فارس فى الأراضي
مقدسة لحراستها .

(1) Villehardouin op. p. 22.

وقد أوضح الرسل أنهم مزودون بكافة السلطات التي تتيح لهم إبرام الاتفاق مع الصليبيين . ثم أخذوا يوضحون أهمية هذه الامتيازات التي يقدمها لهم الأمير البيزنطي وأنهم إذا رفضوها برهنوا على أنهم ليسوا جديرين بالجد والفتح .

وقد طلب البارونات والدوق داندولو منحهم مهلة حتى اليوم التالي تفكير والتشاور في هذا الأمر .

وأثناء المشاورات التي جرت بين الصليبيين والبنادقة أوضح جماعة السيسترشيان رأيهم من أنهم لا يوافقون على هذا العرض . وأنهم لم يتركوا أوطانهم من أجل محاربة المسيحيين ، وأكدوا على ضرورة التوجه مباشرة لقتال المسلمين في سوريا . فرد عليهم أحد الصليبيين موضحاً بأنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً في سوريا وأنه عن طريق مصر أو الدولة البيزنطية فقط سيتمكنوا من استعادة الأراضي المقدسة ، وأنهم إذا لم يوافقوا على هذه الشروط ، فأنهم سوف يندمون كثيراً فيما بعد (١) .

وقد وافق قائد الحملة المركزي بونيفيس أوف مونتفرات على هذا العرض والمرجح أن الأمر كان متفقاً عليه من قبل بينه وبين الملك فيليب . والأمير إليكسيوس انجيلوس ، وذلك أثناء الاتصالات التي تمت بين هذه الأطراف في أوائل عام ١٢٠٢ . كما سبقت الإشارة .

كذلك وافق على العرض باقي البارونات . وابلغوا موافقتهم لدوق البندقية . فوافق هو الآخر . وتم إبرام الاتفاق بين الطرفين ، وقد مثل الصليبيين اثني عشرة شخصاً كان من بينهم الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات

(1) Villehardouin : op. cit., p. 24.

والكونت بلانوين أوف فلاندرز وهينولت والكونت لويس أوف باواو شارتر (١) وهكذا تم انحراف هذه الحملة الصليبية وللمرة الثانية ضد مدينة مسيحية. ولكن ما هو موقف البابا اينوسنت الثالث من هذا الانحراف الثاني للحملة؟ حين وصلت هذه الاخبار إلى روما ، علم البابا بأن فيليب السواوي واليكسيوس نجحا في التأثير على الصليبيين وتحويل اتجاه الحملة وبذلك خرج أمرها من يده ، وقد أوضح البابا لرسل الحملة الذين كانوا في روما أن الصليبيين لا يملكون الحق في التدخل في الأحداث الداخلية الخاصة بالبيزنطيين .

« Vos nullam in greacos Jurisdictionem habientes»(2)

وحذرهم أكثر من مرة من مهاجمة الدولة البيزنطية Romania بحجة أن الضرورة تقتضي ذلك . وقد أرسل البابا اينوسنت خطابات إلى الصليبيين عاد بها رسلهم ، أوضح في أحد هذه الخطابات أن الصليبيين أمروا بأن يقسموا على الطاعة ، وقد اشتمل هذا القسم على وعد بعدم مهاجمة البيزنطيين وحذرهم البابا بأنهم اذا لم يقسموا على ذلك ويمثلوا لأوامره فإن العفو الممنوح لهم نتيجة هجومهم على زارا سوف يصبح de facto أى باطلا (٣) .

وقد أعنى الكاردينال بطرس كابوانو من منصبه كنائب عن البابا في الحملة وحل محله اثنين آخرين هما :

John de Friaise and Mohon Faicete

وقد أمر أحدهما بأن يذيع قرار الحرمان الخاص بالبنادقة

أما فيما يتعلق بالقسم ، فإن بونيفيس أوف مونتفرات استغل نفوذه كقائد

(1) Villehardouin : op. cit., p. 24.

(2) Innocent III Epistolae. VIII.

(3) Pears : op. cit., p. 288.

للحملة ، وتلاعب في هذا الموضوع بأن أخفى عن الصليبيين أوامر البابا الخاصة بالقسم ، وأخبر قلة قليلة من الزعماء فقط ، وأرسل قسمهم بالوعد بعدم مهاجمة البيزنطيين إلى روما (١) .

وفي بداية ابريل ١٢٠٣ ، أرسل البابا رسلا من طرفه ومعهم خطاب منه إلى الصليبيين في زارا ، وقد احتوى خطاب البابا على أمرين ، الأول : تأكيد بالعفو الممنوح لهم ، والثاني : أمر رسمي من البابا بالإيهاجم الصليبيين البيزنطيين إلا في حالة واحدة فقط هي رفضهم امداد الحملة بالمؤن والذاد (٢) .

وقد أذيع الجزء الأول من الخطاب على الصليبيين ، أما الجزء الثاني فقد تدخل بونيفيس اوف مونتفرات ومنع اذاعته على الجيش الصليبي (٣) .

وهكذا أصبح غالبية الصليبيين لا يعلمون شيئا عن موقف البابا اينوسنت الثالث وتحذيره من هجومهم المنتظر على العاصمة البيزنطية . وفي ٧ ابريل ١٢٠٣ رحل الجيش الصليبي عن زارا بعد أن قاموا بتخريب أسوارها وابراجها ، بينما تخلف في زارا الماركيز بونيفيس والدوق داندولو في انتظار وصول الامير البيزنطي اليكسيوس انجيلوس الذي سيصاحبهم في حملتهم ضد القسطنطينية .

وفي ٢٥ ابريل ١٢٠٣ وصل اليكسيوس إلى زارا فأستقبله الماركيز والدوق بترحيب كبير وفي ٤ مايو لحقوا بالجيش عند كورفو .

ويصف فيلهاردوين فرحة الصليبيين جميعا حينما علموا بوجود الامير

(1) Pears : op. cit., p. 288.

(2) Innocent III : Epistolae, VI, p. 102.

(3) Pears : op. cit., pp. 289 — 290.

البيزنطى بينهم فى المعسكر وقدموا اليه يحبونه ويرحبون به ونصبوا خيمته فى وسط المعسكر بجوار خيمة قائد الحملة الماركيز بونيفيس الذى أوكل اليه الملك فيليب السوابى مهمة حماية اليكسيوس والاهتمام بأمره (١) .

عسكر الجيش الصليبي فى كورفو لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم غادروها ٤ مايو ١٢٠٣ . واتجهوا إلى جزيرة اندروس فأستقبلهم أهاليها بالترحيب وأعطوا خضوعهم للأمير اليكسيوس فتركها الصليبيون واتخذوا طريقهم إلى ابيدوس فسلمها اليهم الاهالى ووضعوا بها حامية . وفى ٢٣ يونيو ١٢٠٣ وصلوا إلى سانت ستيفان St. Stephin على بعد ثلاثة فراسخ من القسطنطينية .

اجتمع اللوردات البارونات من أجل التشاور فيما ينبغى عمله ، فأقترح عليهم دوق البندقية أن يذهبوا إلى جزيرة خليقدونية Chalcedon المواجهة للقسطنطينية على الضفة الاسيوية للبسفور ، ليتزودوا بالمؤن ثم بعد ذلك يذهبوا لحصار العاصمة ، وبناء على نصيحته توجهوا إلى خليقدونية وبعد أن حصلوا على كل ما يحتاجونه من مؤن أبحروا فى اليوم الثالث إلى سكيوتارى Scutari على مضيق البوسفور ، وبدأوا فرض الحصار البحرى على مدينة القسطنطينية (٢) .

والواقع أن معظم الصليبيين المصاحبين للحملة كانوا يرون هذه المدينة لأول مرة ، ومن ثمة فقد أصيبوا بالدهشة المزوجة بالاعجاب هذه المدينة ذات الاسوار العالية والابراج التى تحيط بها من كل جانب . وقصورها المبالغة الثراء وكنائسها الشائخة واتساع المدينة الذى فاق - كما يقول فيلهاردوين -

(1) Villehardouin : op. cit., p. 27.

(2) Villehardouin : op. cit., pp. 29 — 33

أنظر خط سير الحملة الصليبية الرابعة فى الخريطة رقم (١) .

اتساع أية مدينة أخرى (١) . فان قاعدة المثلث الذى تقوم عليه المدينة كانت تقارب الخمسة أميال ، وكانت القسطنطينية تستطيع أن تفاخر كروما بتلاها السبع . وكانت تلك التلال تنهض كالجدار على البوسفور والقرن الذهبى . وعند بداية القرن الثالث عشر الميلادى . كانت القسطنطينية (٢) هى المدينة الرئيسية فى العالم الغربى ، وقد منحها هذا المركز كثير من المميزات ، منها موقعها الجغرافى . فهى تقع عند نقطة التقاء قارتى أوروبا وآسيا . وتحيط المياه بالمدينة من جانبيها ، وكان مضيق البوسفور والدردنيل يمثلان ممران طبيعيين للتجارة . مما جعل القسطنطينية مركزا تجاريا فريدا نتيجة لسيطرتها على طرق التجارة بين غرب أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأسود وشواطئ بحر مرمرة .

وكان القرن الذهبى وهو الميناء الطبيعى للعاصمة محميا من أية تيارات عنيفة ، كما كان نصفه عميقا للدرجة تسمح لأية سفينة كبيرة من الوصول إلى الشاطئ بسلام ونصفه الآخر كان ضحلا وفسيجا للدرجة تكفل دخول المراكب الصغيرة . ولما كانت المياه تتدفق فى مضيق البوسفور نحو الشمال ونحو الجنوب . فقد منح ذلك المدينة الجو الصحى الممتاز نتيجة لاستمرار تجدد الهواء .

وقد امتازت القسطنطينية بمجموعة ضخمة من المباني الرائعة ، ومن أهمها الكنائس الفخمة بقبابها المرتفعة . وقيل بأنه باع من كثرة الكنائس بها أنه وجدت كنيسة على ناصية كل شارع ، ومنها على سبيل المثال كنيسة أيا

(1) Villehardouin : op. cit., p. 31.

(٢) أنظر خريطة رقم (٢) مدينة القسطنطينية وأهم معالمها

صوفيا وكنيسة الرسل ، وكنيسة القديسة ايرين ، وكنيسة القديسة ماري ،
والقديس سرجيوس ، والقديس توماس وغيرها. وكانت قباب هذه الكنائس
مغطاة بالذهب ، كما كان بعضها يضم أعمدة من الذهب والفضة وثريات لا
تعد من نفس هذه المعادن الثمينة .

أما مجموعة الآثار المقدسة التي حوتها هذه الكنائس فكانت على درجة
كبيرة من الاهمية بالنسبة للمسيحيين في كل مكان ، ويقول فيلهاردوين أن
مجموعة الآثار الدينية الموجودة بالقسطنطينية تعادل في كثرتها الآثار المقدسة
الموجودة في باقي أنحاء العالم المسيحي و كله مجتمع .

والواقع أن الدافع وراء غنى القسطنطينية بهذه الآثار هو محاولة تخليصها
من (العقدة) التي عانت منها بسبب افتقارها إلى مثل هذه الآثار ، لأن أحدا
من الرسل لم يشرفها بالذهاب إلى موضعها أو الاستشهاد بالقرب منها ، أو
تأسيس كنيسة بها ، فأين هي من بيت المقدس . ذلك المركز الديني الهام الذي
لا يمكن أن تتناول إليه أية مدينة مسيحية أخرى . وأين هي من انطاكية .
مدينة البطارقة العظام والمجامع الدينية العديدة ، وهي المدينة التي أطلق على
الحواريين فيها لأول مرة اسم المسيحيين . وأين هي من روما التي شرفها
القديس بطرس أمير الحواريين ببناء كنيسة بها وهي الكنيسة التي أصبحت
فيما بعد تضم رفاتة ؟ ان القسطنطينية ذاتها لم تؤسس إلا في فترة متأخرة نسبيا
في القرن الرابع الميلادي .

ورغبة من الاباطرة البيزنطيين في تخليص عاصمتهم من هذه العقدة . فأنهم
كانوا حريصين على جمع الآثار الدينية من مختلف البلاد . وحفظها بالقسطنطينية

حتى يكسبها ذلك التشریف الديني الذي تفتقر اليه . ويروي التاريخ مواقف عديدة توضح مدى اهتمام الاباطرة بهذا الأمر .

ففي عصر الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩) نازلت الجيوش البيزنطية مدينة الرها في عام ٩٤٤ ، ويذكر المؤرخ يحيى الأنطاكي «ان البيزنطيين التمسوا من أهلها ايقونة المنديل الذي كان سيدنا يسوع المسيح مسح به وجهه وصارت صورته فيه ، وبذل لهم الروم أنهم إذا سلموهم هذا المنديل اطلقوا من الاسارى المسلمين الذين بيدهم عددا ذكروه لهم» . ثم أوضح هذا المؤرخ أن أهل الرها واغتموا على طاب البيزنطيين بعد الرجوع إلى أولى الأمر في بغداد ، وكيف أن البيزنطيين حملوا هذا المنديل في مركب كبير إلى العاصمة البيزنطية حيث استقبله الامبراطور والبطريرك والشعب استقبالا حافلا ، وحمل هذا المنديل إلى كنيسة آياصوفيا ، ثم إلى كنيسة العذراء الملاحقة بالقصر الامبراطوري الكبير Vierge du-phare ليحفظ بها (١) .

ويروي نفس المؤرخ حادثة أخرى ، وهي حرص الامبراطور نقفور فوقاس على أخذ القرميدة التي تحمل آثار وجه السيد المسيح من مدينة منبج في عام ٩٦٦ م ، وحين أخرجها اليه أهلها لم يعرض لهم بمكروه (٢) .

أما الامبراطور يوحنا تريمسكس (٩٦٩ - ٩٧٦) فقد أعلن بكل فخر

(١) يحيى الأنطاكي : التاريخ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

Walter (g) : La Ruine de Byzance, ed. Albin Michel Paris, 1958, P. 143.

(١) يحيى الأنطاكي : التاريخ ، ص ١٢٧ .

واعتراز حصوله على عدد من الآثار المقدسة الهامة أثناء حروبه .
عام ٩٧٥ م ، فقال في خطابه إلى آشوط الثالث ملك أرمينيا المسيحي :

«... أننا عثرنا في جبله على النعلين المقدسين اللذين سار بهما المسيح حينما
ظهر على الأرض ، كما وجدنا ايقونة المخلص – المسيح – تلك التي كان قد
طعنها اليهود فسال منها في التورم وماء . ولكننا لم نلاحظ في هذه الايقونة
طعنة الحربة . ووجدنا كذلك في المدينة شعر القديس يوحنا المعمدان الرسول
وهو شيء نفيس . وبعد أن جمعنا هذه الخلفات ، حملناها معنا لتحتفظ بها
في مدينتنا – القسطنطينية – التي يكملها الرب برعايته (١) .

هذا وقد أوضح الراهب انطوان Antoine الذي أصبح فيما بعد رئيس
اساقفة نوفجورود Novgorod والذي زار القسطنطينية في أوائل القرن
الثالث عشر وقبل فتح الصليبيين لها بثلاث سنوات ، قيمة واماكن الآثار
الدينية الموجودة بالعاصمة البيزنطية بمنتهى الدقة . وعلى سبيل المثال ، فان
آثار المسيح منذ مولده موجودة بصفة خاصة في كنيسة أيا صوفيا ففيها يوجد
لفائف (أقمطة) المسيح وهو طفل ، وأواني الذهب المملوءة بالهدايا التي
احضرها الأهالي للطفل يسوع . وقميصه ووشاحه وحزامه وعصاه ونعليه ،
وقطعة من الخشب كان المسيح يعلقها في عنقه ، وحوض غسل بداخله اقدم
تلاميذه (الحواريون) . والمنضدة التي تعشى عليها في خيس الاسرار ، وخشب
الصليب والمنشار والمسامير ، وتاج الشوك والحربة والدم المقدس ، وبلاطة
من القبر المقدس (٢) .

(١) أنظر نص الرسالة في المرجع التالي :
عمر كمال توفيق : يوحنا تزييمسكس وسياسة الشرق ، الملحق رقم (١) .
ص ١٧٠ - ١٧١ .

(2) Walter : La Ruine de Byzance, p. 144.

وهناك مجموعات أخرى من الآثار المقدسة ضمتها بعض الكنائس (١) ، ولم يكن ينقض قرن حتى تضاف مجموعات جديدة ، كما حرص البيزنطيون على نقل رفات القديسين إلى عاصمتهم ، فاحضرت هيلين والدة الامبراطور قسطنطين الاكبر ، رفات القديس دانيال ، ووصلت للعاصمة رفات القديسين تيموثي واندراوس ولوقا في عهد الامبراطور فنسطانز (٣٣٧ - ٣٥٠) . واحضرت رفات القديس صموئيل في عهد الامبراطور اركاديوس (٣٩٥ - ٤٠٨) ، واشعيا في أيام ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠) ، والقديسة آن في أثناء حكم جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) . ومريم المجدلية في عهد ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢) (٢) .

وإلى جانب الكنائس كانت هناك القصور ، الفخمة منها القصر الامبراطوري الكبير الذي يسمى البوكوليون Bucoleon نسبة إلى مرفأ القصر المسمى بذلك الاسم ، وكان هذا القصر عبارة عن مجموعة كبيرة من المباني وقاعات الاجتماعات والمحاضرات والحمامات وأجنحة السكن التي شادها اباطرة مختلفون ، فقد بنى به الامبراطور ثيوفيل قاعة الاستقبال الشهيرة Triconchus و اضاف اليه باسيل الأول اضافات عديدة ، على حين انشأ به نقفور فوقاس جناحا عند شاطئ البحر .

اما القصر الجديد المسمى Blachernae الذي بناه الامبراطور مانويل كومنينوس فكانت حيطانه وأعمدته مغطاه بالذهب الخالص ، وكان العرش

(١) بخصوص المزيد من التفاصيل عن هذه الآثار وأماكن تواجدها أنظر المرجع التالي :

Walter : op. cit., pp. 144 — 145.

(2) Runciman : The Byzantine Civilisation, pp. 215 — 216.

فى هذا القصر من الذهب ومحلّى بالاحجار الكريمة ، اما التاج الامبراطورى
المعلق عليه فكان من الذهب ومرصع بالجواهر التى لا تقدر بثمن .

وكان الميدان الامبراطورى أو .. Augusteom يضم كنيسة آياصوفيا
والقصر الامبراطورى الكبير ومحاط بصفيين من الأعمدة ، وفى مواجهة
الكنيسة يقوم فوق قاعدة من البرنز تمثال للامبراطور هرقل بحجم ضخم ،
ويده اليمنى ممدودة بحركة تهديد نحو الشرق ، بينما يده اليسرى تقبض على كره
رمزا للسيادة العالمية (١) .

وبالقرب من الكنيسة والقصر الكبير كان يقع الهيودروم أو ميدان
السباق ، وهو مبنى ضخم فسيح يتسع لجلوس ما يقارب الأربعين ألف شخص
وكان فى الامكان الوصول من القصر مباشرة إلى المقصورة الامبراطورية
بهذا الملعب ، وكان الهيودروم هو مركز الحياة الاجتماعية والسياسية فى العاصمة
وكانت أعظم تسلية للأهالى هى مشاهدة الالعاب بهذا الملعب والصراع مع
الحيوانات وسباق العربات ، وكانت مشاهدة العاب السيرك مجانية تتكلفتها
الحكومة .

وكان فى الهيودروم عمود قسطنطين وهو عمود من الحجارة اقامه الامبراطور
قسطنطين ، وكذلك مسلة فرعونية قائمة على قاعدة من الجرانيت تمثل فن
النحت البيزنطى . وما زالت بعض آثار الهيودروم باقية حتى اليوم (٢) .

وكان أجمل احياء الخوانيت يقع داخل المدينة ، فعلى امتداد الرابية
الرئيسية وابتداء من مدخل القصر الكبير وميدان السباق إلى امتداد ميلين كان

(١) أنظر الصورة رقم (٢) .

(٢) رأيت هذه الآثار بمدينة اسطنبول أثناء زيارتى لها فى أغسطس ١٩٧٧ ، وانتقط

لها بعض الصور ، أنظر مجموعة الصور رقم (٣) .

يمتد نحو الغرب الشارع المسمى بالشارع الاوسط Mese وهو شارع واسع تحف به من جانبيه العقود (البواكى) . ويمر من خلال سوقين Forums احدهما سوق قسطنطين الملاصق للقصر ، والآخر سوق ثيودوسيوس الأكثر منه اتساعا . وفى النهاية يتفرع إلى شارعين رئيسيين احدهما يسير مخترقا سوق الثور واركاديوس إلى الاستودوم والبوابة الذهبية . بينما يمر الآخر امام كنيسة الرسل المقدسين إلى قصر بلاكرناى والبوابة الحاريسيانة .

وكانت تقوم على جانبي بواكى شارع الوسط أهم حوانيت المدينة مرتبة فى مجاميع تبعا لما تباع من سلع ، فصاغة الذهب أولا يليهم صاغة الفضة ثم بائعو الثياب والأقمشة وصناع الأثاث وهكذا . وكانت اغنى هذه الحوانيت تقع بالقرب من القصر الكبير عند حمامات زيوكسيبوس .. Zuexipus حيث كان المركز التجارى لسوق الحرير الضخم المعروف باسم دار الانوار لأن نوافذه كانت تضاء ليلا .

ويقول المؤرخ الاسباني بنيامين اوف توديللا الذى زار القسطنطينية فى ١١٦١ أنه وجدها تعج بالتجار الذين أتوا اليها من البر والبحر من مصر والعراق وفلسطين وروسيا وهنغاريا ولومبارديا واسبانيا ومن كل الأقطار فى العالم .

وقد تمتع معظم أهل القسطنطينية بالثراء . وكانوا يرتدون الملابس الموشاه بالذهب والاحجار الكريمة . ويمتطون خيولهم ويبدون فى مظهرهم هذا كالأمرأء . وكان اثرياء العاصمة يمتلكون الفيلات على شواطئ البوسفور وبحر مرمرة . حيث يقضون بها فصل الصيف .

وكما كانت القسطنطينية مدينة الأعمال . فأنها كانت كذلك مدينة اللهو والمسرات . كانت أشبه ما تكون فى عصرنا الحاضر بباريس ولندن . حيث

كان يذهب اليها الاثرياء من باقى البلاد لينعموا فيها بقسط من الراحة والرفاهية ومختلف أنواع المتع الحسية والفنية . ووجدت بها جميع أنواع البضائع إلى جانب تمتعها بالجو اللطيف والمناظر الطبيعية الخلابة (١) .

وهكذا فرض الصليبيون الحصار على هذه المدينة العظيمة من أجل استعادة عرشها لحليفهم ووالده الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس . وحين رأى الامبراطور اليكسيوس حصار الصليبيين للمدينة أرسل إليهم رسولا من طرفه ، وهو أحد اللومباردين ويدعى نيقولاروكس ، Nicholas Renx ، الذى خاطب الصليبيين قائلا : «سادتى . ان الامبراطور اليكسيوس يود ان يوضح لكم انه يعلم جيدا انكم أحسن العناصر . وجئتم من أحسن الاقطار على وجه الأرض ، وهو يعجب كثيرا ويتساءل ، لماذا ، ولأى غرض اقتحمت أرضه ومملكته ؟ فهو مسيحي وانتم مسيحيون . وهو يعلم جيدا انكم فى طريقكم لتحرير الاراضى المقدسة والصليب المقدس وأورشليم . إذا كنتم فقراء ومحتاجون ، فإنه يرغب حقا فى أن يمنحكم المال والزاد بشرط أن تغادروا أراضيه فورا . وهو لا يريد أن تقوموا بأى عمل تخريبى ، لأنه صاحب القوة المطلقة هنا ، ترون ذلك لو أن عددكم اضعاف ما أنتم عليه عشرون مرة . وإذا

(١) فيما يتعلق بالقسطنطينية ومميزاتها أنظر المراجع التالية :

Miller (D) : Imperial Constantiople, U S A, 1969, pp. 1 — 197,

Runciman : The Byzantine Civilisation, pp. 179 — 222.

Brehier(L) : La civilisation Byzantine Edition Albin Michel, Paris, 1970. pp. 73 — 99.

Toynbee (A); Constontine Porphyrogenetus and his world, london, 1773, pp. 201 — 223.

Diehl : Byzance, Grandeur et Decadence, Paris, 1928, pp. 104 — 120.

أراد الحاق الأذى بكم ، فلن تستطيعوا الفرار بدون الهزيمة الكاملة» (١) .

وقد اختار البارونات ودوق البندقية أحد الفرسان ويدعى Conon of Bethune لما توسموا فيه من عقل راجح وحكمة لكي يتولى الرد على هذا الرسول ، فقال موضحا وجهة نظر الصليبيين : «سيدى ، لقد قلت لنا ان مولاك يعجب كثيرا لماذا سادتنا والبارونات دخلوا إلى أرضه ومملكته ، انهم لم يدخلوا أرضه هو . لأنه اغتصب هذه الأرض ظلما وعدوانا ، وضد الله وضد الحق ، انها تخص ابن شقيقه — الامبراطور اسحاق — الذى يجلس بيننا على العرش . اذا رغب سيدك فى أن يرد لابن شقيقه تاجه وامبراطوريته ، ويلقى بنفسه تحت رحمته ، عندئذ سنتوسل لابن شقيقه لكي يصفح عنه وأن ينعم عليه بالقدر الذى يمكنه من العيش ميسور الحال ، واذا أنت لم تجبنا على هذه الرسالة ، فلانجرؤ على العودة إلى هنا ثانية» (٢) .

استقر رأى البارونات على أن يظهروا الأمير اليكسيوس إلى أهالى القسطنطينية طمعا فى أن ينضموا إلى جانبه ضد عمه الامبراطور ، وبالفعل اعتلى الأمير ظهر إحدى السفن الحربية ومعه الماركيز بونيفيس ودوق البندقية واقتربوا كثيرا من أسوار العاصمة ، غير أن ظنهم قد خاب ، فبدافع من الخوف من الامبراطور لم يجرؤ أحد من الأهالى على رؤيته ، فعاد الأمير ومن معه إلى الجيش مرة أخرى . ولم يجد الصليبيون بدا من اقتحام العاصمة . فقسموا الجيش إلى سبع فرق ، وكانت أكبر الفرق تحت قيادة الماركيز بونيفيس . وبعد جهود مضية تمكنوا من قطع السلاسل الحديدية الضخمة

(1) Villehardouin : op. cit., p. 35.

(2) Villehardouin : op. cit., p. 25.

التي تغلق ميناء القسطنطينية وأصبحوا داخل الميناء حيث هاجموا المدينة برا وبحرا ، وتعرض للهجوم قصر بلاكرناى Blachernae وهو أحد القصور الامبراطورية .

وفي صباح ١٧ يوليو ١٢٠٣ بدأت معركة رئيسية بين الطرفين استولى خلالها الصليبيون على ٢٥ برج من ابراج العاصمة والتحموا مع المدافعين عنها في قتال عنيف ، وكان الامبراطور اليكسيوس ذاته يقود المعركة ، وتلى ذلك معارك أخرى (١) . وقد أدرك الامبراطور تفوق الجانب الصليبي وعدم جدوى الدفاع ، فجمع كل ما استطاع من مجوهرات وأموال وفر ليلا مع عدد من أتباعه ، وحين علم الأهالي بفراره ذهبوا إلى الامبراطور السابق اسحاق في سجنه ، واخرجوه منه وحملوه إلى قصر بلاكرناى ، حيث أجلسوه على العرش ، وبمجرد عودته إلى عرشه أرسل إلى جيش الصليبيين يخبرهم بذلك .

اجتمع الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات مع البارونات واخبرهم بذلك ثم ابلغوا الأمير اليكسيوس ففرح فرحا عظيما ، وقد استقر رأى الصليبيين على عدم السماح للأمير بالعودة إلى والده إلا بعد أخذ موافقة الامبراطور اسحاق على كل ما تعهد به ابنه للصليبيين مقابل استرداد العرش البيزنطي ، فأرسلوا بأربعة رسل اثنين من البنادقة واثنين من الصليبيين كان أحدهما هو جيوفري فيلهاردوين ، وفتحت لهم بوابة القسطنطينية ووصلوا إلى قصر بلاكرناى حيث قابلوا الامبراطور اسحاق ، واخبروه بتفاصيل الاتفاق السابق مع ولده اليكسيوس وطلبوا منه المصادقة عليه . وبعد أن أوضح الامبراطور رأيه في

(١) يوجد وصف تفصيل لهذه المعارك في المصدر التالى : -

Villehardouin : op. cit.. pp. 35 45.

عد الأعداء وسروعه سبب . سحر الصليبيين على هذه الخدمة التي قدموها له ولأبنه وصادق على الاتفاق .

وهكذا اطمأن الصليبيون بالتزام الامبراطور اسحاق بتنفيذ شروط الاتفاق وسمحوا للأمير بدخول عاصمته ، فقاده البارونات حتى اوصلوه إلى بوابة العاصمة حيث استقبله والده بفرحة عارمة بعد أن طال فراقها . وفي اليوم التالي خرج الامبراطور اسحاق وأبنه اليكسيوس إلى الجيش الصليبي خارج البوابة وقابلوهما ، وسمحوا للصليبيين بدخول العاصمة لمشاهدتها ، ولكن في مجموعات صغيرة .

وفي أول أغسطس ١٢٠٣ توج الأمير اليكسيوس امبراطورا مشاركاً في العرش مع والده اسحاق . وبعد تتويجه ذهب الامبراطور اليكسيوس الرابع إلى الجيش الصليبي حيث أوضح للبارونات عجزه في الوقت الحالي عن دفع ما اتفقوا عليه وطلب منهم أن يمهلوه حتى شهر مارس من عام ١٢٠٤ ، وتعهد بأنه سيتحمل نفقاتهم طوال هذه المدة . وبذلك نجح في اقناع البارونات ودوق البندقية برأيه فوافقوا على الانتظار (١) .

قرر الامبراطور اليكسيوس الرابع القيام بجولة في بعض ولايات الامبراطورية لتفقدتها واقرار سلطته عليها . وقد رافقه في هذه الجولة الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وعدد من البارونات في حين بقي عدد آخر منهم مع الجيش الصليبي لحراسة المعسكر . وأثناء غياب الامبراطور اشتعل العراك داخل العاصمة بين اللاتين المقيمين بها والبيزنطيين الذين ساءهم تدخل هذا مصر البغيض في أمورهم ، واشعل بعض الأشخاص المجهولين النار في المدينة

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 54 — 50.

وسرعان ما انتشرت بشكل مخيف حتى أصبح من العسير اطفائها . وقد استمرت على هذا النحو يومين وليلتين التهمت خلال هذه المدة الكثير من الكنائس والقصور والمتاجر وامتدت حتى شاطئ البحر . وقد احترق فيها عدد كبير من النساء والرجال والأطفال والشيوخ ، وبعد أن خمدت النيران لم يجرؤ اللاتين المقيمين بالقسطنطينية على البقاء بها خوفا من تعرضهم للانتقام البيزنطيين . فحملوا زوجاتهم وأطفالهم وما تبقى من ممتلكاتهم وغادروا العاصمة وانضموا إلى جيش الصليبيين .

عاد الامبراطور اليكسيوس الرابع إلى العاصمة . وعلم بالحريق الذي اشتعل بها أثناء غيابه والحسائر التي اسفرت عن هذا الحريق ، كما أنه كان يعلم بمدى كراهية رعاياه لهؤلاء اللاتين ، لذلك وفي محاولة لكسب شعور البيزنطيين بدأت معاملته للاتين تتغير وأصبح (يتعالى) عليهم . على حد تعبير فيلهاردوين ، فلم يعد يزور معسكرهم كما كان يفعل سابقا ، وظلت المبالغ التي يدفعها لهم تنضائل وتنقص حتى انقطعت في النهاية . وقد دهش اللاتين لهذه المعاملة بعد كل الخدمات التي قدموها له ، وذهب إليه قائد الجيش الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وأوضح له وجهة نظر الصليبيين ودهشتهم من تصرفاته هذه ، وأخيرا تأكد الصليبيون أنه يضرهم الشر وأنه لن ينفذ ما اتفقوا عليه . عند ذلك ارسلوا اليه رسلهم ، وكانوا ستة أشخاص من بينهم فيلهاردوين ليوضحوا له أنه إذا لم يلتزم بتنفيذ الاتفاق فأنهم لن يعاملوه كصديق بعد ذلك وإنما سيحصلوا على حقهم بالقوة . وقد دهش الامبراطور الكسيوس وحاشيته لهذه الجرأة إذ لم يحدث من قبل أن تم تهديد الامبراطور البيزنطي داخل بلاطه (١) .

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 50 — 53.

Clari : op. cit., pp. 56 — 58

و لمحونة حيره رس نوق بسقية تريكووامسرو في استدعاء
الامبراطور اليكسيوس ودارت بينهما محادثة أوردها روبرت كلاري، وكانت
كالآلى :

"Alexe, que Cuides tu faire ?"Fist Lidux "frenge warde gue nous t'avons
gete de grant caitivete, si t'avons fait seigneur et corone a empereur:
ne nous tenras tu mie" fist li dux, "nos convenenches, ne Si n'en
feras plus?- Naie fist liempereres "jen'en ferai plus que fait enai I - Non?
dist li dux, "garchons malvais nous t'avons" List li dux. "gete de le
merde et le merde te remeterons, et je te desfi et bien saches saches tu
que je te pouiwacacherai mal a men pooir de ches pas enavant." (1)

والترجمة العربية لهذه المحادثة هي :

قال الدوق «يا إليكسيوس ما الذى تعنيه بما قلت ؟ هل فكرت كيف
انقذناك من الشقاء العظيم . وكيف جعلناك سيذا ، وتوجناك امبراطورا .
فهل رعيت عهدك معنا ، وهل اعترمت تنفيذ شيء أكثر مما فعلت ؟ » فقال
الامبراطور لا ، أنى لن أفعل شيئا أكثر مما فعلت . فقال له الدوق «اتقول
لا أيها الغلام السيء ، لقد كنا نحن الذين رفعناك من هاويه القذارة وسنعيدك
اليها مرة أخرى . وأنى لمتحديك ومنذرك لتعلم علم اليقين أنى منذ هذه
اللحظة فصاعدا سألحق بك من الأذى كل ما أستطيع » .

ظهر العداء سافرا بين الصليبيين والبيزنطيين . وبدأت المناوشات بينهما ،
وقد اشعل البيزنطيون النار فى بعض السفن الرأسية بالميناء وانتشرت النيران

(1) clari - la conquete de constantinople. p. 59

حتى بدا (وكان العالم كله يحترق) وأصيب الصليبيون بالذعر خوفا على
مراكبهم ، ولكن بعد أن نجحوا في إخماد النيران أتضح ان السفن المحترقة هي
سفن تجارية بيزية كانت راسية بالميناء ، ولم يصب أسطول الصليبيين بضرر
كبير (١) .

في تلك الأثناء أصبح البيزنطيون مقتنعين بضرورة التخلص من هذا
الامبراطور الذي كان السبب في استدعاء اللاتين وإتاحة الفرصة لهم للتدخل
في شئونهم الداخلية وكل ما ترتب على ذلك من متاعب ، فألتفوا حول أحدهم
ويدعى مورزوفلوس Mourzu Phlus وكان محبوبا من الأهالي ، وفي
أحد الليالي قبض مورزوفلوس على الامبراطور اليكسيوس وسجنه ، وأعلن
مورزوفلوس امبراطورا في كنيسة آيا صوفيا ، وحين علم الامبراطور اسحاق
بأن ابنه قد أبعد عن العرش وأودع السجن ، مرض ولم يلبث إلا قليلا حتى
توفي ، أما اليكسيوس فقد لقي حتفه بعد أن دس له مورزوفلوس السم في الطعام
باعتلاء مورزوفلوس للعرش البيزنطي لم يعد هناك أى أمل للصليبيين في
الحصول على حقهم أو تنفيذ أى شروط التزم بها قبلهم الامبراطور السابق
اليكسيوس الرابع ، لذلك لم يعد هناك مفر من الإلتجاء للقوة ، فعقدوا في آخر
مارس ١٢٠٤ م . اتفاقا بينهم وبين البنادقة ونص هذا الاتفاق على أنه في حالة
سقوط المدينة يقتسموا بالنصف كل ما يحصلون عليه منها من الغنائم والإسلاب
وأن يختاروا ستة أشخاص من الصليبيين ، وستة أشخاص من البنادقة، ويقسم
هؤلاء جميعا على الآثار المقدسة أن ينتخبوا من بينهم الرجل الأصح ليتوج
امبراطورا ويقولى حكم الامبراطورية البيزنطية. ويحصل هذا الامبراطور

(1) villeharduoin : op. cit., p. 54.

clari : op. cit., pp. 59 — 60.

على ربع ما يتم فتحه داخل العاصمة وخارجها ، ويمتلك كذلك القصرين الامبراطوريين . Bucoleon و ... Blachernae . أما الثلاثة أرباع الأخرى فتقسم بالتساوى بين الصليبيين والبنادقة . وأن يتم اختيار اثني عشر شخصا من الصليبيين ومثلهم من البنادقة وهؤلاء الأربعة وعشرون شخصا يقومون بتوزيع الاقطاعات ومناصب الشرف ، ويرتبون من يقوم على خدمة الامبراطور (١) .

وبناء على ذلك ، بدأ حصار الصليبيين للقسطنطينية في ٨ أبريل ١٢٠٤ وتقاتلوا مع المدافعين عن أبراج المدينة وتمكنوا من الاستيلاء على بعض هذه الابراج وعن طريقها تدفقوا إلى داخل العاصمة ، وحين رآهم الامبراطور مورزوفلوس فر هاربا عن طريق البوابة الذهبية فأستولى على خيمته الماركرز بونيفيس اوف مونتفرات وسقطت القسطنطينية في يد الصليبيين والبنادقة في يوم الاثنين ١٢ أبريل ١٢٠٤ (٢) .

دخل الصليبيون إلى العاصمة البيزنطية كالجراد المنتشر ، حيث اشعل بعضهم النيران فيها ، وكان هذا ثالث حريق تتعرض له العاصمة البائسة ، منذ أن جاء إليها اللاتين مع الأمير اليكسيوس انجيلوس ، وقد أتت النيران على الكثير من المنازل ، وقدر المؤرخ فيلهاردوين عدد المنازل التي احترقت في هذا الحريق وحده ، بأنها تماثل عدد المنازل التي تحتويها ثلاث مدن كبيرة من مملكة فرنسا (٣) آنذاك . ثم انطلقوا يقتلون كل من صادفهم من البيزنطيين

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 58 — 59; clari; op. cit., p. 68.

(2) Ibid : pp. 61 — 62.

(3) Villehardouin : op. cit., p. 64.

حتى أصبح من العسير حصر عدد القتلى . ثم جاء دور النهب الذى لم ينف عند أى حد . حتى الكنائس والأديرة لم تسلم من النهب والسلب . ويكفى للتدليل على ذلك ما فعله الصليبيون بكنيسة آيا صوفيا ، فقد اقتحموها وهمسكارى فمزقوا الستائر والبسط والمفروشات وداسوا الكتب المقدسة بأقدامهم وحطموا الايقونات الفنية النادرة ، وإذا كان هذا شأنهم مع الكنائس لم يكن غريبا أن يحرقوا الجامع الذى كان للمسلمين بالقسطنطينية وهو الجامع القديم الذى بنى فى عصر الامبراطور ليو الثالث (٧١٧ - ٧٤١) .

ولعل ما جاء فى خطاب البابا اينوسنت الثالث إلى الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات يعطى صورة أكبر للفظائع التى ارتكبتها الصليبيون ضد العاصمة البيزنطية وأهاليها . (١)

ويوضح لنا شاهد عيان هو روبرت كلارى ما حدث بعد ذلك فيقول :
« صدر الأمر بعدئذ بجمع كل الغنائم فى كنيسة معينة من كنائس المدينة فجاء بها اليها واختاروا عشرة فرسان من كبار الحجاج وعشرة من البنادقة ممن توسموا فيهم الأمانة وأقاموهم حراسا على هذه الثروة ، وهكذا جاءوا بالغنائم وكانت عظيمة جدا فكان بها كثير من الأوعية الذهبية والفضية الغالية الثمن ، والملابس المطرزة بالذهب وكثير من المجوهرات الثمينة ، فكان ما جمع هناك منظرا رائعا عجيبا ولم يحدث قط - منذ بداية العالم - أن رأت العين أو غنم قوم مثل هذه الغنيمة الغالية العظيمة ، بل لم يحدث ذلك زمن الاسكندر أو شرلمان ولا قبلهما ولا بعدهما . ولا أظن أنا شخصا ، أنه توفر فى أغنى مدن العالم الأربعين من الثروة ما توفر بالقسطنطينية وما عثروا عليه بها ، إذ يقول اليونان أن ثلثي كنوز

(١) أنظر ترجمة الخطاب فى خاتمة هذا البحث ص ص ١١٢ - ١١٣ .

العالم موجودة في القسطنطينية . أما الثلث الباقي فموزع في بقية الدنيا ، حتى أن نفس الأشخاص الذين عهد إليهم بالحراسة أخذوا كل ما طمعوا فيه من الحلى الذهبية وامتدت يدهم بالسرقة إلى هذه الثروة وإلى كل ما وجدوه ، وأخذ كل رجل غنى ما طمع فيه من الحلى الذهبية أو الأقمشة الحريرية والمذهبة وسواها وانطلق به ، وبهذه الطريقة شرع الكبار في سرقة الغنائم حتى لم يبق شيء يتقاسمونه مع عامة الجيش من الحجاج أو الفرسان الفقراء أو العسكر الذين عاونوا في كسب هذه الغنائم .

أقول لم يبق شيء لمقاسمته مع هؤلاء سوى الفضة المجردة كالأوعية الفضية التي اعتادت نساء المدينة حملها معهن إلى الحمامات .

أما الأسلاب الأخرى التي بقيت فقد اختفت بطرق شريرة كما أخبرتك لكن أخذ البنادقة — على أية حال — النصف المقرر لهم ، أما الأحجار الكريمة والثروة الكبيرة التي بقيت لتقسم فقد نهبت بأساليب أخرى كما سأقص عليك فيما بعد» (١) .

أما شاهد العيان الآخر وهو جيوفري فيلهاردوين ، فقد قال أن الغنائم التي أخذها الصليبيون بعد فتحهم القسطنطينية كانت من الكثرة لدرجة يمكن معها القول أنه ليس لها نهاية ، من ذهب وفضة وأحجار كريمة وحرير وفراء ويشهد فيلهاردوين على أنه منذ الحليقة لم تؤخذ غنائم من مدينة قط مثلاً أخذ من القسطنطينية فشبّع من الصليبيين من كان جائعاً ، واغتنى منهم من كان فقيراً . (٢) .

(1) Clari : La conquete de constantinople p p, 80 — 81.

(2) Villehardouin : op. cit., p. 65.

وهكذا لم يقع بصر الصليبيين على تحفة أو ثروة إلا نهبوا ولم يتركوا
أثرا فنيا أو أدبيا إلا افسدوه ودمروه . وقد بات الصليبيون وهم في فرح
وسرور وشكروا الله الذي منحهم النصر وهم حوالى ٢٠ ألف رجل ، على
٤٠٠ ألف رجل بيزنطى «والأكثر من ذلك على المدينة العظيمة الشديدة
التحصين» . (١)

أما الجانب الآخر المهزوم ، المغلوب على أمره ، وأعنى به البيزنطيين .
فأنهم باتوا ينوحون ويرثون مدينتهم الحبيبة : مثلما رثاها مؤرخهم المعاصر
نقيتاس خونيايس بقوله (٢) :

Ourbs, urbs, urbium omnium ocule ,Per orbem Terrarum celebris
mater, Princeps religionis, rectae sententiae dux, eruditionis alumna,
Omnis Pulchritudinis diversorium, itahe ex mahu domini calicem
Puroris bibisti. Itahe pars extitisti ignis multo Vehementioris eo quo
olim pentapolis divinitus conflagravit.

«أيتها المدينة ، المدينة . يا خير المدائن . يا حديث العالم . يا منسار
الأرض ، يا حامية الكنائس . يا سيدة الايمان . يا قلعة العلم . يا ملاذ كل
الخير ، لقد تجرعت حتى الثمالة من كأس غضب الله ، ولقد حل بك اتون
ابشع من ذلك الذى انصب لظاه قدما على المدائن الخمس» .

وقد تمنى خونيايس ، لو أن مدينتهم كانت قد وقعت في يد المسلمين
«الذين كانوا لطفاء ورحماء» حين فتحوا بيت المقدس ، ولم يفعلوا بها مثلما
فعله هؤلاء المخلوقات «الذين يحملون صليب المسيح على اكتافهم» (٣) .

(1) Villehardouin : op. cit., p. 65.

(2) Choniates : Historia, ed. Bonn. p. 763.

(3) Choniates : Historia, ed. Bonn, pp. 761 — 762.

بعد ان انتهت موجة النهب والسلب التي اجتاحت القسطنطينية كان على الجميع مهمة اختيار امبراطور لاتيى يحكم الامبراطورية البيزنطية ، وهنا عاد الفاتحون إلى الاتفاق السابق بينهم ، فكونوا لجنة من اثني عشرة شخصا ، ستة من الصليبيين وستة من البنادقة لاختيار أحدهم ، وكانت المنافسة شديدة بين الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات ، وبين الكونت بلدوين اوف فلاندرز وهينولت .

وبلدوين هذا يعد واحدا من أكبر السادة الاقطاعيين الفرنسيين ، ولد في عام ١١٧٢ ، ووالده هو بلدوين الخامس كونت هينولت ، الذي تزوج في عام ١١٦٩ من مارجريت شقيقة فيليب الازاسي كونت فلاندرز . وقد توفي فيليب في مدينة عكا عام ١١٩١ دون أن ينجب وريثا ، قال أقليم الفلاندرز إلى شقيقته مارجريت ، التي توفيت هي الأخرى في ١١٩٤ ، وبذلك ورث ابنها بلدوين أقليم فلاندرز . وحين توفي والده بلدوين الخامس في ديسمبر ١١٩٥ آل إليه أقليم هينولت أيضا . وبذلك جمع بلدوين الابن بين حكم أقليمي الفلاندرز وهينولت . وكان الكونت التاسع على الأقليم الأول ، والكونت السادس على الأقليم الثاني .

وقد ساهم بلدوين بنصيب كبير في الصراع الذي اشتعل في الغرب الأوروبي بين ملوك فرنسا وإنجلترا وألمانيا حتى اشتراكه في الحملة الصليبية الرابعة (١) .

وهكذا اشتعلت المنافسة على منصب (الامبراطور) بين كل من بونيفيس اوف مونتفرات ، وبلدوين اوف فلاندرز وهينولت ، وكان الأول يتفوق

(1) Wolf : Studies in The Latin Empire of Constantinople,
Lanbon 7691 Book IV, pp. 281 — 288.

على الثاني بما له من قوة الشخصية وقيادة الجيش الصليبي وصلات عائلته
ببزنطة .

ومن ثم فقد أخذ بونيفيس يهيء نفسه لهذا المنصب ، فاستولى على القصر
الامبراطوري الكبير Boukoleon وتزوج من مارجريت (ماريا) الهنغارية
أرملة الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس ، وقد اعتبره البيزنطيون حاكمهم
الجديد وحين كانوا يقابلون اللاتين في الطريق كانوا يصيحون الماركيز هو
الامبراطور المقدس Aios Phasileos Marchio لكن بونيفيس
أدرك أنه لن يستطيع السيطرة على لجنة الانتخاب لأن ثلاثة فقط من الصليبيين
الستة كانوا يؤيدونه ، في حين أن الثلاثة الآخرين مضافا اليهم الستة من البنادقة
كانوا يؤيدون منافسه بلدوين . فقد كان الدوق داندولو يخشى من قوة
شخصية بونيفيس وكان يفضل ان يكون الامبراطور الجديد أضعف شخصية
وأقل أهمية حتى يسهل السيطرة عليه ، أضف لذلك أن بونيفيس كان حليفا
قدما لجنوا ، وهذا وحده سببا كافيا لكي يعمل الدوق بكل قواه ونفوذه على
إبعاد بونيفيس عن هذا المنصب .

وفي منتصف ليلة ٩ مايو ١٢٠٤ أعلن نيفلون اسقف سواسون الذي كان
عضوا في لجنة الانتخاب ، اختيار بلدوين كونت فلاندرز وهينولت امبراطورا
وفي ١٦ مايو تم تتويجه في احتفال مهيب في كنيسة آيا صوفيا واتخذ لقب :

(١) porphyrogenitus, Semper Augustus

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 67 — 68; Clari : op. cit.,
pp. 93 — 94
Wolf (R) : Studies in The Latin Empire of Constantinople,
pp. 188 — 190.

أما بالنسبة لمنصب بطريرك كنيسة القسطنطينية ، فقد كان أحد الشروط الهامة للطرفين في اتفاقهم قبل إسقاط العاصمة البيزنطية ينص على التالي : —
«الجانب الذي لم يختار منه الامبراطور ، يكون لديه السلطة لكي ينصب رجل دين على كنيسة آيا صوفيا ، ويختار كبطريرك من أجل خدمة الرب ، والكنيسة الرومانية المقدسة للامبراطورية» (١) .

وبعد اختيار لجنة الانتخاب لبلدوين اوف فلاندرز من الجانب الصليبي كامبراطور . أصبح اختيار بطريرك كنيسة القسطنطينية من نصيب البنادقة . فأجتمع رجال الدين منهم في كنيسة آيا صوفيا ، واختاروا توماس موريوسني لهذا المنصب . Thomas Mauroceni

وكان توماس ينتمي إلى عائلة نبيلة هي عائلة موريوسني التي يرجع أصلها إلى مانتوا Mantua ولم يكن موجودا بالقسطنطينية وقت انتخابه . والوصف الوحيد الذي جاء عن توماس كان لنقيتاس خونيا تيس المؤرخ البيزنطي الذي رآه بالقسطنطينية في نهاية صيف عام ١٢٠٥ م . والذي يعكس لنا وجهة نظر البيزنطيين في أول رجل كاثوليكي يتولى رئاسة كنيستهم الارثوذكسية .

Nicol : The Fourth Crusade and The Greek and Latin Empires, 1204—1261, n C.M.H. ed. Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, part. 1,p. 286.

Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire, Vol. 6, p. 179.

Walter : La Ruin de Byzance, pp. 150 — 151.

(1) Wolf : Studies in the Latin Empire of Constantiople, Book IX, p. 227.

قال نقيتاس : ان توماس كان فى منتصف العمر ، سمينا (تديرا مثل الكرة ، ضخما مثل خنزير معلوف) ، أجرد ، يضع خاتما فى أصبعه . وفى بعض الأحيان يرتدى قفازا من الجلد فى كفيه . أما لباسه فهو ضيقا للغاية . حتى يبدو وكأنه محاكا على جسده مباشرة ، ومن الصدر يميل هذا اللباس إلى السعة (١) .

وقد ظل البابا اينوسنت الثالث لعدة شهور . وهو لا يعلم بأمر اختيار توماس مورو سيني بطريركا للقسطنطينية . وفى ٢١ يناير ١٢٠٥ . علم البابا بذلك ، وأعلن اعتراضه على هذا الاختيار . ولم يكن اعتراض البابا على شخص مورو سيني نفسه ، فهو على حد قوله : «نعم نحن وأخواننا ان الشخص الذى اختير ، نبيل المولد ، شريف ، فطن ، ومثقفا بالقدر الكاف» . ولكن اعتراض البابا كان على الطريقة التى تم بها انتخابه . لأن اختيار بطريرك القسطنطينية من صميم اختصاص البابا أو نائبه ، لذلك فقد شعر البابا اينوسنت الثالث (بالألم) لأن انتخاب مورو سيني تم فى مجمع عام (٢) .

على أن البابا لم يلبث أن وافق على هذا الاختيار ، وفى ٥ مارس ١٢٠٥ تم ترقية البابا لتوماس من شماس مساعد إلى شماس ، وفى ٢٦ مارس عينه قسا وفى ٢٧ مارس جعله اسقفا ، وفى ٣٠ مارس أنعم عليه البابا بالعباءة Pallium الخاصة بمنصب رئيس الاساقفة ، مع التوصية بارتدائها فى احتفال مقدس ،

(1) Choniates : Historia, ed. Bonn, pp. 854 — 855.

(2) Wolf : Studies in the Letin Empire of Constantiople, Blook IX, P. 228.

Walter : La Ruine de Byzance, p. 154.

Runciman : The Byzantine Theocuacy. Cambridge University

Press, 1977 pp. 138 — 139.

كما أنعم عليه بعدة امتيازات منها ، منحه الحق في أن يحمل الصليب أمامه حينما ذهب ، فيما عدا روما أو أية مدينة أخرى يكون بها نائب بابوي (١) .

وحسب الاتفاق السابق بين الطرفين ، كان نصيب الامبراطور بلدوين ، ربع الاراضى التى تم الاستيلاء عليها ، فمنح حكم القسطنطينية ذاتها ما عدا حى البنادقة ، ومعظم تراقيا بما فيه ادرنة ، والجزر الواقعة فى الجنوب الشرقى من بحر ايجة ، وهى جزر ساموتريس و كوس و لسبوس وساموس ، و خيوس . وكان نصيب بونيفيس اوف مونتفرات حكم بعض الاراضى فى آسيا الصغرى ، لكنه رفض وطلب منحة مملكة سالونيك التى كان يحكمها شقيقه من قبل ، وحتى تكون مملكته متاخمة لأملاك ملك هنغاريا شقيق زوجته الجديدة مارجريت .

ولما رفض الامبراطور بلدوين طلبه دخل الاثنان فى صراع ، وانتهى الأمر بتأييد دوق البندقية لبونيفيس وموافقة على منحه سالونيك ، مقابل قبول الماركيز بيع جزيرة كريت للبنادقة بدلا من الجنوية الذين كانوا قد طلبوا شرائها منه (٢) .

وبذلك نجح بونيفيس اوف مونتفرات فى تأسيس مملكة خاصة به تضم مقاطعة سالونيك وبعض الاراضى المجاورة لها مثل مقدونيا وتساليا (٣) .

(1) Wolf : op. cit., Book IX, pp. 230 — 231.

Walter : op. cit., p. 155.

والجدير بالذكر أن مورسني لم يستمر طويلا فى منصبه إذ توفى فى عام ١٢١١ ،
أنظر :

Nicol : op. cit., p. 303.

(2) Wolf : op. c t., Book I, p. 195.

(3) Villehardouin : op. cit., p. 69.

Wolf : op. cit., p. 190.

أما البندقية فقد فازت بنصيب الأسد من تلك الغنيمة ، إذ أخذ البنادقة حيا كبيرا في القسطنطينية يباشرون فيه نشاطهم التجارى ، واستولوا كذلك على معظم الجزر القريبة من الشاطئ بما فيها جزيرة ايوبيا ، هذا زيادة على بعض المراكز الساحلية في شبه جزيرة المورة ، ورقعة واسعة من الأرض شمال خليج كورنثة ، كذلك ضم البنادقة إلى هذه الممتلكات جزيرة كريت التى اشتروها من بونيفيس اوف مونتفرات . وقد كانت مجموعة الغنائم التى حصل عليها البنادقة من الضخامة لدرجة اتاحت لدوق البندقية ان يطلق على نفسه لقب «حاكم ربع ونصف أراضي الامبراطورية البيزنطية» .

وهكذا توسعت البندقية ، وأصبحت ممتلكاتها في غرب وشرق أوروبا معا ، كما أصبح لها السيطرة كذلك على الطريق البحرى الممتد من البندقية حتى القسطنطينية ، وكان لها حق الاشراف على المضائق والممرات البحرية المؤدية للعاصمة ، فضلا عن الحى الخاص بها في القسطنطينية وحق الاشراف على كنيسة آيا صوفيا (١) .

على أن الحال لم يكن كذلك بالنسبة للصليبيين إذ أن نصيبهم من الغنيمة البيزنطية ، قد وزع بين عدد كبير من أمراءهم الذين أقاموا امارات خاصة صغيرة . وهكذا استأثر كبار رجال الحملة الصليبية بالغنيمة وحدهم مما ترك صغار الصليبيين في حالة شديدة من الحق وخيبة الأمل .

(1) Wolf : op. cit., pp. 190 — 192.

Nicol : op. cit., 287 — 189.

Ostrogorsky : op. ciy., pp. 423 — 424.

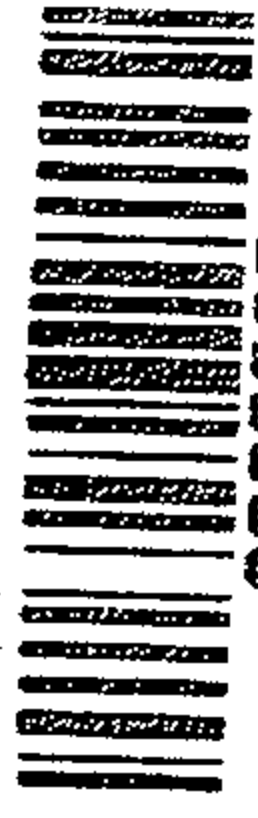
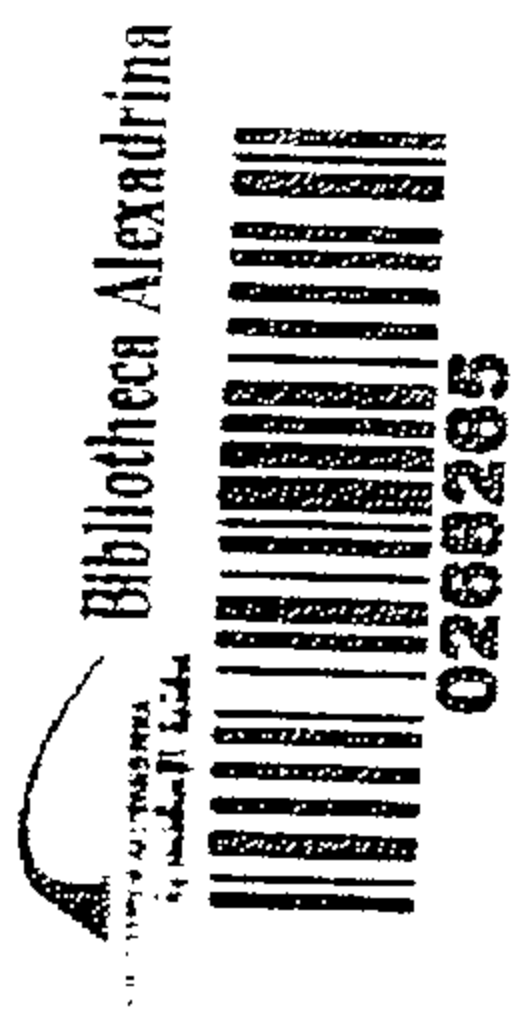
هذا ، ولم ينعم دوق البندقية داندولو بهذا كله لمدة طويلة فلم يلبث أن مرض وتوفى في مايو عام ١٢٠٥ : ردفن في احتفال مهيب في كنيسة آيا صوفيا ، أنظر :

Villehardouin : op. cit., p. 102.

Wolf : op. cit., Book 1p. 203.

هذا بالإضافة إلى روح العداء التي استحكمت بين مختلف العناصر ،
والجنسيات التي تألفت منها الحملة ، كما ظهر ذلك في المنازعات بين الألمان
والبرجنديين ، وبين اللمبارديين والفلمنكيين ، وبين جميع هؤلاء والبنادقة .
أما فيما يتعلق بالعلاقات بين اللاتين والبيزنطيين ، فقد ظل التباعد سائدا
بين الطرفين ، فقد كان الغزاه الغربيين على درجة من الجمود والكبرياء بحيث
أنهم لم يحاولوا تفهم الحضارة البيزنطية على حقيقتها ، في حين احتقر البيزنطيون
هؤلاء (البرابرة) الغربيين الاجلاف (١) .
وهكذا تطور الصراع الداخلي بين البيزنطيين من أجل الاستحواذ على
العرش ، وانتهى بهذه المأساة التي حلت بعاصمتهم على يد اللاتين .

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 379.



0269295